العلـــــــم في الإســـــلام

فضله وآدابه ، وأقسامه

تأليف:

أ.د/ عمر مولود عبدالحميد

أستاذ الدراسات العليا

بعدد من الجامعات الليبية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

[سورة العلق: 1 – 5]

﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾

[سورة المجادلة من الآية 11]

قال النبي – صلى الله عليه وسلم –: ((من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين...)).

رواه البخاري ومسلم عن معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه -

وقال – صلى الله عليه وسلم– أيضاً:((فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ))، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – ((إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ)).

رواه الترمذي عن أبي أمامة الباهلي - رضي الله عنه - . حديث حسن صحيح

مقدمة الكتاب

الحمد لله الذي علم القرآن، خلق الإنسان علمه البيان، والشكر له –جل وعلا– على نعمائه التي لا تحصى عددا ولا تنتهي عدّا، والصلاة والسلام على من بعث رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً وهادياً إلى الحق وسراجاً منيراً محمدا صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين عزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون.

أما بعد:

فإن أي عاقل ينبغي عليه أن ينظر إلى تكريم الله له بدعوة ملائكته الكرام إلى السجود لأبينا آدم –عليه السلام–، فكان ذلك تكريما له، وقد ورثنا هذا التكريم الذي من شأنه أن يجعلنا نسجد لله شكرا له على هذا التفضيل العظيم، ثم لا ننسى أن العلم الذي دعينا إليه تعلماً وتعليماً يعتبر من أفضل النعم وأعظمها قدراً؛ لأنه يرفع شأن صاحبه عند الله وعند الخلق، ويمكنه من معرفة ما له وما عليه، ويجعله شمعة تضيء له ولمن حوله الدروب، وهو –أيضاً– الوسيلة العظيمة لرفعة الشعوب وتقدمها وسيادتها وقيادتها لنفسها ولغيرها، والمشاهدة ترينا أن أي أمة قدّرت العلم فوضعت له أسسه الرواسي وقواعده المتينة، وعملت جهدها في تحصيله والاحاطة بشوارده وصلت إلى مدارج السيادة والريادة بين الأمم، وقد وصلت –بالفعل– ذرى العلم أمم على مدى التاريخ صارت للبشرية قائدةً، ولم تتأخر أي أمة عن ركب التحضر والتمدن إلا بركودها عن ميادين العلم واستهتارها بدوره وروابضه، والتاريخ سجل كل ذلك في يقظة ووعي، فكان ازدهار أمم وما خلفته من حضارات شاهدة لها بما كانت عليه من جودة العلم والمعرفة، وشواهد أخرى دلت على ركود ونوم أمة أخرى فنعتت بالضعف والمسكنة وسوء الحال، وكان لخلف الأولين –ممن ذكرت– لسانٌ بينٌ يمجد عمل

أجدادهم، ويدعو إلى التمسك به وإثرائه، وكان لخلف الآخرين تمسكن وضعف يثبط عزائمهم ويشدهم إلى الكسل والضعف وربما اليأس من النهوض وقهر التخلف والتشرذم، والأمة الإسلامية هي من بين تلك الأمم التي لها حالات نهوض ورقي وحالات هبوط ومسكنة، وهي الآن تعاني من نتائج حالات ضعفها الشيء الكثير، والمخلصون فيها حيارى وهم يشاهدون سفينتهم تهدد بالغرق كيف ينقذونها؟.

وإنني أومن بأن الزهد في العلم هو الذي جعلهم يصلون إلى هذه الحالة، حيث رضوا بأن يفتحوا أفخم وأعظم دور للعلم شكلاً، لكنهم لم يعمروها بما يجب أن يعمروها به حقيقة ووضعا، وترددوا عليها طالبين ومطلوبين دون أن تكون لهم الرغبة الجادة في العلوم الدينية والدنيوية النافعة، وجعلوها مقصداً لنيل الشهادات فحسب، فإنْ تَخَلّف الطالب عن الدرس لم يعاقب، وإنْ تخلف الأستاذ عن محاضرته لم يعاتب بل لم ينبه، وكثيرا ما تردد الألسن آيات الصدق والإخلاص، وكذلك الأحاديث النبوية تنطق بها الألسن لكن النتيجة المطلوبة يقل حصولها، وأسباب ذلك كثيرة، وفي مقدمتها ضعف ولي أمر الأسرة، وكذلك ضعف المسؤولين عن المؤسسات الحكومية والأهلية، وضياع رسائل وسائل الإعلام المتعددة، ابتداءً برسالة منابر المساجد وانتهاء برسالة القنوات المرئية ووسائل الإعلام المقروءة، فمنها السلبي ومنها المدمر، والكتاب هو من بين وسائل المعرفة التي هضم حقها في الوطن العربي والإسلامي وبخاصة كتاب الشريعة الغراء، حيث قل قراؤه وتضاءل المؤلفون لما يكون نافعا منه، بل بعض الشعوب العربية والإسلامية قلّت فيها دراسة دينهم ولغتهم حتى صار الإسلام غريبا كما بدأ، ولغته يهجرها ويخطئ فيها كثير من الناطقين بها.

والصحوة مطلوبة في هذا الزمان الذي أخبر عنه الصادق الأمين -كما ورد في مسند الإمام أحمد- حيث قال-صلى الله عليه وسلم-: ((يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ

الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا)) قَالَ: قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: ((أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ يَنْتَزِعُ الْمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ)) قَالَ: قُلْنَا: وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: ((حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ))،هذا هو الزمن الذي نحن فيه والذي يشير إليه هذا الحديث الشريف، فواجبنا أن ننظر إلى واقعنا فنعالجه وفق علاج الشريعة الغراء للمنحرفين عن الجادة، والشريعة الإسلامية قادرة على دخولها لجميع ميادين الحياة، وهي صالحة لكل زمان ومكان؛ لأنها من وضع العليم الخبير، وعلاجنا لابد أن يكون قائما على العلم بكل أنواعه وجميع فروعه دون استثناء، فلابد أن تكون دور القرآن ودور العلم الشرعي واللغوي موجودة في كل مدينة وقرية؛ حتى تكون هذه العلوم خُلق كل إنسان، ولابد أن تكون علوم الدنيا بمختلف فروعها وتخصصاتها موجودة حتى نستغني عن دور العلم التي لا تعبر عن شخصيتنا ولا يكون لنا وجود فعلي فيها، وحتى لا نكون طفيليين على موائد غيرنا، ولابد من بناء الروح والجسد؛ لأن العقل السليم في الجسم السليم، ولأن الجسم السليم إذا لم يتغذ بالروحانيات فلا ينتج إلا جفافا، وينبغي أن تكون الرئاسة والقيادة لأهل الدين والعلم الصادقين المخلصين، ولا يصح أن تكون وراثة يعتليها من لا حقيقة له، كما يجب أن يكون الحكم والسلطة لأشراف الأمة وأعلمها وأفضلها خلقا وسلوكا واستقامة، فالمحسوبية لا يصح أن تكون في وطن يريد أهله له السلامة، وما نشاهده اليوم في كثير من بلدان الأمة العربية والإسلامية في مجال الحكم والقيادة لا يقره عقلاء الأمة ومخلصوها؛ لأنه يقوم على المحاباة والغلبة والتحكم، خلافاً لما جرى على عهد النهضة للأمة الإسلامية الذي قال فيه حاكمهم وهو أبو بكر الصديق –رضي الله عنه–: "الضعيف فيكم قوي عندي حتى أزيح علته إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ منه الحق إن شاء الله"، وهو نفسه الذي قال للرعية: "أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة عليكم، إن أحسنت

فأعينوني وإن أسأت فقوموني"، كما قال عمر الفاروق -رضي الله عنه- وهو يخطب: أيها الناس من رأى منكم فيّ اعوجاجاً فليقومه، فقام له رجل وقال: والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا، فقال عمر: الحمد لله الذي جعل في هذه الأمة من يقوم اعوجاج عمر بسيفه.

وعندما ينظر المنصف إلى الاستقامة وأهلها يجد أن أي مجتمع تتوفر فيه هذه الاستقامة يكون سعيدا ويحقق طموحاته وتآلفه وتعاظمه، واختلالها يورثه انتكاسا وتفرقا وضعفا.

ولكي تكون الدعوة إلى إصلاح المجتمع كله صادقة لابد أن تقوم على التخطيط العلمي الشامل لشؤون الحياة كلها، وإلى جانب التخطيط ينبغي أن يكون التنفيذ كذلك دون تخاذل أو تكاسل أو تسويف، ومعاقبة كل متهاون وفق منهاج لا يفرق بين حاكم ومحكوم ولا بين قريب وبعيد ولا بين ذي جاه ومن ليس له جاه.

ولما كان العلم من أهم مدارج الكمال نجد الباري -جلت حكمته- قد بدأ به في توجيه عباده إلى حياتهم الكريمة في قوله: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ... ﴾.

وقد أكرمني الله بالعيش في رياضه منذ تعقلي للخطاب وحتى إشرافي على الثمانين من العمر، فرأيت أن تكون دعوتي بالقلم إلى ضرورة جمع شيء من الخطوط المبينة لطريقة تحصيل العلوم النافعة -دنيا وأخرى-، فكتبت من خلال فصلين حوصلة ما تجمع لي خلال رحلة العمر، وقد عنونت لكتاب بهذا الخصوص أسميته:

العلم في الإسلام

فضله وآدابه، وأقسامه

فبينت في فصل أول فضل العلم وآداب تحصيله ونشره، وفي فصل ثانٍ أجملت مقدمات لمجموعة من العلوم الإسلامية؛ انتفاعا بسلوك العالم الكبير عبد الرحمن

بن خلدون –رحمه الله– في مقدمته الشهيرة، مؤملاً أن يحصل النفع بـــذلك، مـــع الاعتراف بفارق كبير بين الأسلوبين وفي المحتوى، وأعترف بأنه جهـــد المقـــل، وهو وإن كان مختصراً فإنه سينفع قارئه إن شاء الله تعالى، وهو قابل للزيادة بـــل هو محتاج إليها، وسيكون هدفي إن مد الله في العمر، وأدعو الله سبحانه وتعـــالى أن يثيبني على ذلك، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به العباد، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

مدينة الحرشة

الموافق 24/ شوال / 1435هـ

20 / 8 / 2014 م

توطئة علمية

الجهل والعلم في الإنسان

إذا وُجه إلى الإنسان البسيط سؤال حول العلم والجهل من حيث سبق أحدهما وتأخر الآخر لدى الإنسان، قد يحصل له قبل الجواب شيء من التفكير، وما كان له أن يفكر في هذا الأمر لبساطة الجواب، فإن الإنسان عندما يُولد يبدأ حياته في معزل عن العلم، ومع نموه تنمو معه إحساسات ومدارك، فإذا وصل سن السابعة حصل له تمييز وتعقل وعلم يتلاءم مع سنه غالباً.

فالعلم إذاً مسبوق بالجهل، ومن كرم الله للإنسان أن ميزه عن بقية أفراد جنس الحيوان بالفكر الذي يكتسب به أفعاله بانتظام، وهو ما يسمى بالعقل التمييزي، وقد يكتسب معارفه عن طريق المخالطة والمجاورة والمشاركة، فيسمى بالعقل التجريبي، فإذا حصل به تصور الموجودات حاضراً وغائباً على ما هي عليه سمي بالعقل النظري.

ويكون إدراكه وأهليته للمعرفة في ذروة الكمال عندما يصل سنّ التكليف بالأحكام الشرعية فيصبح مسئولاً عن كل ما يصدر عنه، لأنه صار مالكاً لآلة العلم والمعرفة؛ وهي العقل.

وقد صرح القرآن الكريم في أول ما نزل على الرسول الأمين –صلى الله عليه وسلم– بما يُفيد طروّ العلم لدى الإنسان وسبق الجهل عليه حين ما قال –جل وعلا–: ﴿ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:5] كما امتن الله عليه بقوله: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ [السجدة: 9] فإن الله أعطاه العلم عندما اكتملت لديه أدواته واستعملها، وهي العقل والسمع والبصر، فكان علمه مكتسبا باستعماله لهذه الأدوات التي حصلت ببلوغه مرحلة سنّ التمييز ولم يكن له علم قبل وجود هذه الأدوات واستعمالها.

لذا كان العلم لاحقاً مكتسباً، والجهل كان سابقاً ذاتياً.

الفصل الأول

العلم: فضله وآداب تحصيله ونشره

المبحث الأول:

التعريف بالعلم وفضل تحصيله

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: التعريف بالعلم:

من صفات الله: العليم والعالم والعَلاَّم، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الخَلاَّقُ العَلِيمُ﴾ [فاطر:81]، وقال: ﴿ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الكَبِيرُ المُتَعَالِ﴾ [الرعد:8]، كما قال جلت حكمته ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقّ عَلاَّمُ الغُيُوبِ﴾[سبأ:47].

والعلم ضد الجهل، ويأتي بمعنى المعرفة، كما يأتي بمعنى الشعور، تقول: ما علمت بخبر قدومه أي ما شعرت، كما يأتي بمعنى الاتقان يقال: علم الشيء وتعلمه: إذا أتقنه[1].

وتعريفه: إذا أُضيف إلى الله فهو صفة ينكشف بها الشيء على ما هو عليه انكشافاً لا يحتمل النقيض بوجه من الوجوه.

وهو أيضاً أعلى مراتب الإدراك الأربع الذي يحصل للإنسان؛ لأن ما يقع في ذهنه إما أن لا يحتمل غيره احتمالاً ناشئاً عن دليل فهو العلم والجزم، وإما أن يحتمل غيره على وجه التكافؤ من غير رجحان من جهة على آخرى فهو الشك، فإن كان هناك رجحان في جهة ومرجوحية في غيرها، فما فيه رجحان يسمى ظناً، وما فيه مرجوحية يسمى وهماً.

ولا يشك أحد في مكانة العلم وفضله وسمو منزلته إذ به يعرف الإنسان ما له وما عليه، وبه تتقدم البشرية وتسعد، وعن طريقه تتحقق آمال الشعوب ويعلو قدرها وتسمو مكانتها، ويُعرف الحلال من الحرام، والحق من الباطل، ولم تتقدم أمة من الأمم ويعلو شأنها إلا به.

---

(1) النفيس من كنوز القواميس. مادة (ع ل م).

وبضدها تتميز الأشياء، وضد العلم الجهل، وهو الظلام الذي يحجب حقائق الأشياء ويعطل العقول عن التجديد والابتكار والخلق والإبداع، ويقعد بأصحابه مقعد المتخلف، بل يرمي بهم إلى مستنقعات الرذيلة وسفاسف الأمور ومنحدر الأخلاق، ويُقدم الحقائق معكوسة فلا يرى الجاهل في الأمور إلا ما طفح منها على السطح، وقد لا يُمثل شيئاً من الحقيقة، وهو معول هدم وتأخر وانحطاط، ويكفي أصحابه سوءًا أن لا يُحسب لهم حساب، وإذا حضروا لا يُستشارون، وإذا غابوا لا يُسئل عنهم، وإذا امتحنوا دخلوا في إطار المحنة، ويصعب عليهم الخروج منها بسلام.

المطلب الثاني: فضل تحصيله:

إن فضل العلم عظيم ومكانته رفيعة نطق بذلك القرآن الكريم وأظهرته السنة النبوية وهتف بها العقلاء شعراً ونثراً، وصاغه الحكماء درراً وتبراً.

وبنى به من أحسنوا استخدامه حضارة عظيمة مكنتهم من الصمود أمام أحداث الزمان، وجعلتهم محل إشارة بالبنان، ونذكر –إن شاء الله تعالى– فيما يلي شواهد ناطقة بما قلناه في جلاء لا يُماثله جلاء، من خلال ثلاثة فروع:

الفرع الأول: فضله من القرآن الكريم:

1–قال الله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا العِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ ﴾ [آل عمران:17]، حيث جمع الله في هذه الآية بين اسمه جل جلاله والملائكة وأولى العلم في كونهم جميعاً شهوداً بوحدانية الله وتفرده وعدم وجود من يشاركه في الكون خلقاً وإعداماً، وفي ذلك ما فيه من التشريف لأولي العلم وتفضيلهم على ما سواهم ومن سواهم من كثير من خلق الله.

2-قال الله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: 10]، فقد جمع الله العلماء ولابد أن يكونوا مؤمنين في مثل هذا المقام مع من آمنوا من أمة محمد -صلى الله عليه وسلم-، حيث عطف بالواو الذي يقتضي تشريك العلماء للمؤمنين في الرفعة والعلوّ، وكأن وصف العلم في حد ذاته هو صِنْو الإيمان في رفعة الشأن وعلو المنزلة، يدل على التكريم العظيم لمن علموا ما طلب منهم أن يعلموا، وتنكير لفظ **درجات** يفيد التكثير الذي بدوره يفيد أيضاً الإجلال والتكريم في مثل هذا المقام.

3-قال الباري جلت حكمته: ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾[النساء:112]، امتنّ الله في هذه الآية على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بكونه علّمه ما لم يعلم، وهذا يوضح بجلاء درجة العلم ومن يتعلمه، فإن من نال شرف العلم نال الفضل العظيم بصريح الآية المذكورة.

4-قال الله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه:114]، المتتبع للقرآن الكريم لا يجد فيه ما يدل على أمر الله سبحانه وتعالى لنبيه بأن يطلب الزيادة من أي شيء سوى العلم؛ لما له من الفضل على من يتعلمه، فيكفيه شرفاً أنه يحمل اسماً من أسماء الله جل وعلا.

5-نفى الله المساواة في المكانة والمنزلة بين من يعلم ومن لا يعلم في صيغة استفهام استنكاري وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 9] فكأنه قال سبحانه وتعالى لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، فكما لا يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور فكذا لا يستوي الجاهل مع العالم.

فالعالم يُبصر الأمور على حقائقها ويضع لها ما يناسبها، والجاهل قَـلَّ أن يُبصر الأمور على حقائقها بل هو يخبط خبط عشواء، وإن صادف وجه الصواب مرة فإنه يخطئه مرات.

6- قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَـاءُ﴾ [فـاطر:28]، فقـد قصرت الآية الخشية الحقة من الله على العلماء لأنهم يعرفونـه معرفـة لا تشوبها شائبة، وأسلوب الآية -حيث اشتملت على التوكيد- يُرشد إلى مدح الله للعلماء والتنويه بعلو منزلتهم، ويحمل النص المذكور بين طياته مذمـة الجاهلين لأنهم لا يعرفون من أوجدهم وأنعم عليهم بنعم لا تحصى معرفـة حقة.

7- ولتقريب الأمور إلى أذهان الناس نجد القرآن الكريم أكثـر مـن ضـرب الأمثال لهم حتى نافت مواضعها عن الأربعين، ليقرب إلى أذهانهم دقـائق الأمور ليعقلوها، ونجده يذكر أن هذه الأمثال لا يعرفها إلا من أوتوا العلـم والمعرفة، يتجلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَـا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العَالِمُونَ﴾[العنكبوت:43].

8- ولما كان للعلماء تبصر بحقائق الأمور وإدراك منهم لهـا علـى وجههـا الصحيح غالباً، كانوا ملاذاً عبر التاريخ لمن حرموا نعمة المعرفـة، وقـد رفع الله درجة العلماء بأن أمَرَ غيرهم أن يسترشدوا بهم وأن يسألوهم عما يجهلونه، حيث قال جلت حكمتـه ﴿ فَاسْـأَلُوا أَهْـلَ الـذِّكْرِ إِن كُنـتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[الأنبياء:7]. ومن البين أن أهل الذكر هم العلماء.

9- إن كون أول آية تنزل من القرآن الكريم تبدأ بالأمر بالقراءة وتذكر أداةً من أدواتها وهو القلم، فيه من معاني التقدير والاحترام للعلم ما لا يخفي علـى أحد، يتجلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّـذِي خَلَـقَ۞ خَلَـقَ الإِنسَانَ مِـنْ عَلَـقٍ۞ اقْـرَأْ وَرَبُّـكَ الأَكْـرَمُ۞ الَّـذِي عَلَّـمَ بِـالْقَلَمِ﴾

[العلق:1-4]، وعضَّدها في نفس المعنى قول الله جل وعلا ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم:1] حيث أقسم بأداة الكتابة وهو القلم، وبما يكتبه القلم مما يحتاج الناس إلى كتابته.

10-لما كان الفهم والبيان المستلزمان لهداية الناس هما المقصودان من الحكمة، إذ بها يحصل الأثر المرجو والغاية التي من أجلها خَلَقَ الله الخلق.

عرّف الله عباده أن هذه هي النعم الحقيقية التي تستوجب الشكران فقال تعالى﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:152] بعد قوله ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: 151]. فكان العلم من تلك النعم التي استوجبت الشكر.

11-إن الله امتن على سيدنا يوسف -عليه السلام- بما وهبه من الحكم والعلم، لقوله جلت حكمته ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ [يوسف: 22]، وبمثل ذلك كان لسيدنا موسى -عليه السلام-، حيث قال في حقه ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ [القصص:14]، فلو لم يكن للعلم فضل كبير ومكانة عالية لما كان ذلك الامتنان بالعلم والحكم على نَبِيَّيْن عظيمين.

12-أخبر الله ملائكته بأن يجعل له خليفة في الأرض غيرهم، فاستعظمت الملائكة ذلك وقالت ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾، ولكي يُبين لهم عجزهم وقدرة من أرادهُ خليفته بعد أن علَّمه الأسماء كلها ﴿ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 31] فعجزوا ثم نطقوا بما يدل على عجزهم حيث ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾ [البقرة: 32] وحينئذ أمر خليفته بقوله ﴿ أَنبِئهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: 33] فعلموا أن سر تقديم من جعله خليفة له

عليهم هو تميزه عليهم بالعلم، وهذا يدل على فضل العلم، وأن من ناله نال الفضل الكبير والمنزلة الرفيعة والقدر العظيم.

13-وصف الله طالوت بوصفين في مقام المدح والامتنان، حيث قال جلت حكمته ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي العِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة:247] فقد بدأ بالعلم وثنَّى بما يدل على القوة وسلامة الأعضاء، ومع أن كلا الوصفين يجعلان صاحبهما في منزلة رفيعة فإن تقديم العلم على بسطة الجسم فيه إشعار بما يتميز به العلم من تقدير الله واعتباره أساس التكريم قبل سواه.

14-خاطب الله نبيه بقوله ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ إلى قوله ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران:7]، وقد اختلف العلماء في الواو في ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ ﴾ هل هي للاستئناف أو للعطف؛ فعلى أنها للعطف يصبح المعنى أن الله يعلم تأويل المتشابه، والراسخون في العلم كذلك يعلمونه.

وفي ذلك ما فيه من علو المنزلة والثناء عليهم، حيث علموا ما علم الله، وما خفي على غيرهم واحتاج إلى التأويل بمقتضى ما منحهم الله من العلم والمعرفة. وهو مروي عن ابن عباس،رضي الله عنهما فقد ثبت عنه أنه قال: (أنا ممن يعلم تأويله)[1] ولا يُستغرب منه هذا القول لأن الرسول -صلى الله عليه وسلم- دعا له بقوله: (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)[2]، وبمثل قوله قال مجاهد فقد قرأ الآية وقال: (أنا ممن يعلم تأويله)[3] وبقولهما قال الربيع ومحمد بن جعفر بن الزبير والقاسم بن محمد، وغيرهم[4].

---

(1) الجامع لأحكام القرآن – القرطبي – دار الشام للتراث – بيروت- لبنان-18/4.

(2) مسند الإمام أحمد -266/1- رقم الحديث 2397، المعجم الأوسط للطبراني 273/4، حديث رقم 4176.

(3) الجامع لأحكام القرآن – 18/4.

(4) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 17/4-18.

ومن العلماء من يرى أن الواو للاستئناف وليست للعطف، فيكون قــول الله تعالى ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ﴾ كلاماً مستأنفاً مبتدأ، خبره (يقولون آمنا)، والثنــاء على الراسخين في العلم حينئذ جاء نتيجة جودة ذهنهم وحسن نظرهم[1].

وعلى هذا القول: السيدة عائشة وابن عمر وابن عباس فــي أحــد رأييــه وعروة بن الزبير وعمر بن عبدالعزيز ومالك بن أنس رضي الله عنهم[2].

والمتأمل يتضح له أن من رسخت أقدامهم في العلم وعظُم فهمهم وإدراكهم للعلوم هم محل تكريم بمقتضى سياق الآية، سواء اعتبــرت الــواو للعطــف أو للاستئناف، وهو ما نريد أن نُثبته من استشهادنا بهذه الآية.

الفرع الثاني: فضله من السنة النبوية:

وردت أحاديث كثيرة على لسان رسولنا الكريم –عليــه أزكــى الصــلاة والتسليم– تُبين فضل العلم وشرفه، والمكانة العظيمة التي يتبوؤها العلماء وطلاب العلم، والمحبون له ولهم، ونذكر على سبيل المثال بعضاً منها لمجرد الاستشــهاد وتوضيح المرام:

1–ممَّا ورد في فضل تعلم القرآن وتعليمه ما رُوى عن عثمان بن عفان –رضي الله عنه– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: ((خيركم من تعلم القرآن وعلمه))[3].

2–في جميل ما ورد من الأمثال في بيان الانتفاع بالعلم عن أبي موسى الأشعري –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: ((مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ

---

(1) محاسن التأويل للقاسمي – 752/3.

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 16/4.

(3) جامع الترمذي، مع تحفة الأحوذي 150/8–151.

بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّة[1] قَبِلَتِ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً، وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ))[2].

فالرسول –صلى الله عليه وسلم– ضرب مثلاً للذين أخذوا عنه ما بُعث به من الفقه فعلموا وعلّموا بأرض أصابت ماء وكانت طيبة فأنبتت العشب والكلأ، وبأرض صلبة أمسكت الماء فتم الانتفاع به والاستفادة منه، فالأرض في حاليتها عند ما أصابها الوابل من المطر كانت محل نفع، والذي تعلم وعلم كان أيضاً محل انتفاع ونفع، فالكل في مقام المدح والثناء.

وفي آخر الحديث شبه من لم ينتفع بما جاء به من الهدى بأرض هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فلا خير فيها كما أنه لا خير فيمن لم ينتفع بالعلم والفقه والهدى الذي أتى به الرسول –صلى الله عليه وسلم–.

ولا شك أن ضرب الأمثال بالأمور المحسوسة الملموسة له الأثر البالغ في تثبيت المعارف والتسليم بها والتأثر بما ترمي إليه.

---

(1) ذكر ابن حجر في شرحه لهذا الحديث اختلاف العلماء في ضبط هذا اللفظ، فنمهم من ضبطه بقوله نقية بالنون والياء المشددة، ومنهم من ضبطه بقية بالباء والياء والمشددة، ومسلم بقوله طيبة، وفي حاشية أصل أبي ذر ثغية بفتح المثلثة وكسر الغين وفتح الياء المخففة، قال الخطابي هي مستنقع الماء في الجبال والصخور، قال القاضي عياض هذا غلط في الرواية وإحالة للمعنى؛ لأن هذا وصف للطائفة الأولى التي تُنبت، وما ذكره وصف للثانية التي تمسك الماء، قال وما ضبطناه في البخاري من جميع الطرق إلا نقية بفتح النون وكسر القاف وتشديد الياء التحتانية، وهو مثل قوله في مسلم طائفة طيبة، ينظر فتح الباري، 1/128–129.

(2) صحيح البخاري بشرح فتح الباري 1/129.

3-عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما-عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((قليل العلم خير من كثير العبادة، وكفى بالمرء علما إذا عبد الله وكفى بالمرء جهلاً إذا أُعجب برأيه، إنما الناس رجلان عالم وجاهل، فلا تُمَارِ[1] العالم، ولا تحاور الجاهل))[2].

يرشد هذا الحديث إلى قيمة العلم، وأن العمل بدونه لا قيمة له تذكر مهما كَثُر ذلك العمل، أمام العمل الذي يصحبه علم، فإن قليله بالعلم يُصبح كثيراً، والتعبد القليل المصحوب بالعلم يكفي صاحبه ويجعله في منازل المقبولين عند الله، لأن عبادته حينئذٍ لا يداخلها عجب ولا تتعرض لخلل، وإذا حصل فعلاجه ميسور على صاحبه.

وفي الحديث نهي عن مخاصمة العلماء مُخاصمة لا يكون هدفها التعلم والوصول إلى الحقيقة، كما يحصل من الكثير في هذا الزمان، حيث يتطاول الجهلة على العلماء فيخطئونهم وينسبون إليهم ما لم يصدر عنهم، ويفهمون منهم ما لم يقصدوه، كما أن الحديث نهى عن محاورة الجاهلين، لأن محاورتهم يغلُب أن تكون عقيمة وسلبياتها أكثر من إيجابياتها ويفترض في الجاهل أن يسأل ليتعلم، ولا يحاور بقصد الظهور، ويؤكد الحديث المذكور في بعض جوانبه أيضاً ما رويى عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((العلم خير من العبادة وملاك الدين الورعُ))[3].

---

(1) تخاصم وتغالب.

(2) جامع بيان العلم وفضله - 25/1، وفي هامش عليه ما يلي: (رواه الطبراني في الكبير، وفي الأوسط "8693"، وأبو نعيم في الحلية 5/ 173-174، والبخاري في التاريخ الكبير 1/ 381 ببعضه، والبيهقي في المدخل "453" ص302، وفي سنده إسحاق بن أسيد، قال أبو حاتم: شيخ ليس بالمشهور، ولا يشتغل به).

(3) جامع بيان العلم وفضله 27/1 وفي الطبراني: "فضل العلم أفضل من العبادة..." المعجم الكبير، الطبراني 38/11 حديث رقم 10970.

4-من عظيم الأمثال التي تدل على شرف حافظ القرآن الملازم لقراءته أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- مثله بجراب مسك مفتوح تنبعث منه الروائح الذكية ينتعش بها كل من يقترب منه، وأن حافظ القرآن الذي لا يلازم قراءته شبهه بجراب مسك فمه محكم الوثاق رائحته محجوبة لا ينتفع به غير صاحبه، ومن باب أولى الشخص الذي لا يحفظ القرآن ولا يتلوه فليست له رائحة طيبة يتميز بها، والرائحة هي عبارة عن الانتفاع بالقرآن، يتضح ذلك مما رواه أبو هريرة-رضي الله عنه- حيث قال: ((بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعثاً وهم ذوو عدد فاستقرأهم، فاستقرأ كل رجل منهم - يعني ما معه من القرآن- فأتى على رجل من أحدثهم سنا، فقال ما معك يا فلان؟ فقال: معي كذا وكذا وسورة البقرة، فقال: أمعك سورة البقرة؟ قال: نعم، قال: أذهب فأنت أميرهم: فقال رجل من أشرافهم، والله ما منعني أن أتعلم البقرة إلا خشية ألّا أقوم بها، فقال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: ((تعلموا القرآن وأقرأوه، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشو مسكاً ريحه في كل مكان، ومثل من تعلمه فيرقد وهو في جوفه كمثل جراب أوكئ على مسك))[1].

5-ومما يوضح شرف حامل القرآن وقارئه ما روي عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يحيى صاحب القرآن يوم القيامة فيقول: يا رب حَلِّهِ فيلبس تاج الكرامة، ثم يقول يا رب زده فيلبس حلة الكرامة، ثم يقول: يا رب ارض عنه، فيقال أقرأ وارق ويزاد بكل آية حسنة))[2].

---

(1) جامع الترمذي مع تحفة الأحوذي 8/150-151.

(2) جامع الترمذي مع تحفة الأحوذي 8/183.

6-عن أبي ذر -رضي الله عنه- قال: قال لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ((يا أبا ذر لأن تغدو فتَعْلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعة، ولأن تغدو فتعلم باباً من العلم عمل به أو لم يعمل خير لك من أن تصلي ألف ركعة))[1].

7-إن طالب العلم له أجر كبير ومكانة عظيمة، وما ينفقه من زمن في تحصيله يُعتبر عبادة، يوضح ذلك ما روي عن أنس بن مالك-رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع))[2].

ويؤخذ من هذا الحديث أن طلب العلم في حد ذاته عبادة ولو لم يقصدها الطالب، فهو يؤجر أجر المتعبدين دون أن يعلم.

8-عن أبي أمامة الباهلي-رضي الله عنه- قال: ذكر لرسول -صلى الله عليه وسلم- رجلان: أحدهما عابد والآخر عالم، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم، ثم قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرضين وحتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير))[3].

المتتبع للتصلية يجدها تأتي لغويا بمعان عدة، فهي من الله بمعنى المغفرة، ومن الملائكة بمعنى الاستغفار، ومن العباد بمعنى الدعاء.

فصلاة الله في الحديث على معلم الناس الخير معناها مغفرة ذنوبه والتجاوز عن تقصيره عما هو مطلوب منه إن حصل ذلك منه بسبب انشغاله بتعليم العلم ونشره بين الناس، وصلاة الملائكة تعني استغفارهم له عما بدر منه من ذنوب،

---

(1) سنن ابن ماجه 79/1 حديث رقم 219.

(2) جامع الترمذي يشرح تحفة الأحوذي 339/7-340.

(3) جامع الترمذي يشرح تحفة الأحوذي 379/7-380.

والصلاة من أهل السماوات والأرضين ترشد إلى مدى تعاطف هذه الكائنات كلها مع من حذق العلوم وجعلها في خدمة المجتمع وهذا بدون شك يوضح مكانة العلماء عند الله ورفيع المنزلة التي جعلهم فيها من بين سائر خلقه، وجدير بمن حباه الله بالعلم والمعرفة أن يفقه ذلك وأن يشكر خالقه على هذه النعمة الجُلَّى فيُصرفها تصريف من يرجو المزيد من رضا الرحمن وعلياء الجنان.

9- ويقرب من هذا ما روي عن زيد بن ثابت -رضي الله عنه- أنه قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((نضَّر الله امرءاً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه))[1].

10- إن التفقه في الدين من عوامل التكريم والتفضيل، يؤكد ذلك ما روي عن جابر -رضي الله عنه- أنه قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ((الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا))[2].

11- من كرم الله للإنسان أن يجازيه بالحسنى على إحسانه، ومن إحسان الشخص العالم تعليم غيره، فمن يهتدي على يديه يكون ثوابه له، أخذاً عن سهل بن سعد -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لأن يهدي الله بهداك رجلاً واحداً خير لك من حمر النَّعَم))[3].

وحمر النعم بضم الحاء وسكون الميم هي الإبل خاصة، وقد ذكرت هنا في مقام التفضيل لأنها أنفس الأموال عند العرب، فمن ملكها نال شرفاً عظيماً في قومه، والحديث بين أن شرف تعلم العلم وهداية الإنسان بالتوجه إليه حتى ينالله خير له عند الله من أن ينال ما هو محل تقدير عظيم عند العرب وهي الإبل القوية[4].

---

(1) سنن أبي داوود بشرح عون المعبود 95/10، جامع الترمذي بشرح تحفة الأحوذي 348/7.

(2) الجامع الصحيح - البخاري - 1238/3، حديث رقم 3203 وجامع بيان العلم وفضله 22/1.

(3) سنن أبي داوود بشرح عون المعبود 95/10.

(4) المرجع السابق.

12- إن التوجه نحو تحصيل العلم برغبة وأدب وخشوع واستحياء يجعل مقام صاحبه عند الله عظيماً، بينما الإعراض عنه يورث صاحبه بعداً عن الله وشؤماً، يوضح ذلك ما روي عن أبي واقد الليثي -رضي الله عنه-أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-وذهب واحد، قال: فوقفا على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهباً، فلما فرغ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ألا أخبركم بالنفر الثلاثة، أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه))[1].

13- إن طريق العلم النافع هي طريق الجنة؛ لأنه يهدي صاحبه إلى عمل الخير والقيام بما هو مطلوب منه، ويحول بينه وبين التسويف والتباطؤ، وبخاصة دراسة علوم القرآن وفهم معانيه والأحكام الواردة فيه، يظهر ذلك بجلاء مما رواه أبو هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على مُعْسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وحفتهم الملائكة وذكرهم فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يُسرع به نسبه"[2].

---

(1) التاج الجامع للأصول 1/61-62.

(2) التاج الجامع للأصول 1/62-63.

14- من أعظم نعم الله على من أُوتي علماً وعمل به تكريم الله له يوم القيامة حيث يُشفعه في المُذنبين فينالون بشفاعته رضا الرحمن ويدخلون الجنان، يتضح ذلك بجلاء مما رواه عثمان بن عفان –رضي الله عنه– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: ((يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء))[1].

15- من فضل العلم على صاحبه إذا نشره بين الخلائق تأليفاً أو تعليماً للغير مباشرة أن ثواب عمله يأتيه حيا أو ميتاً ما دام الذي قام به موجوداً ينتفع به الناس صاغراً عن كابرٍ، يوضح ذلك ما رواه أبو هريرة –رضي الله عنه– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: ((إذا مات الانسان انقطع عمله إلا من ثلاث، من صدقة جارية أو علم ينتفع به بعده أو ولدٍ صالح يدعو له))[2].

16- ومثل هذا الحديث ما رواه أبو هريرة –رضي الله عنه– أيضاً عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: ((إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علماً نشره وولداً صالحاً تركه أو مصحفاً ورَّثه أو مسجداً بناه أو بيتاً لابن السبيل بناه أو نهراً أجراه أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته"[3].

17- إن تعلم الفقه يعتبر من أعظم المغانم، وهو جماع الخير كله، يوضح ذلك ما رواه معاوية بن أبي سفيان –رضي الله عنه– حيث قال: سمعت النبي–صلى الله عليه وسلم– يقول: ((من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين وإنما أنا قاسم والله يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله))[4].

---

(1) التاج الجامع للأصول 65/1 – جامع بيان العلم وفضله 37/1.

(2) سنن الترمذي –660/3 حديث رقم 1376، سنن النسائي –251/6– حديث رقم 3651.

(3) التاج الجامع للأصول –75/1–76.

(4) صيح البخاري بشرح فتح الباري –121/1.

18- ويبين الرسول -صلى الله عليه وسلم- أن العلوم التي تَفْضُلُ غيرها وتستحق العناية ثلاثة: القرآن وعلومه والسنة وعلومها، وعلم المواريث، ونصُّ الحديث كما رُوى عن عبدالله بن عمرو -رضي الله عنهما- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((العلم ثلاثة وما سوي ذلك فضل: آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة))[1].

19- وقد ورد التحذير من تعلم العلم لغير وجه الله، كأن قصد به صاحبه المغنم الدنيوي، أو ليظهر به على الناس، أو ليسخره في المعاصي؛ لما ثبت عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من تعلم علماً لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار))[2].

20- في السياق المذكور في الحديث السابق ما رواه كعب بن مالك عن أبيه قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((من طلب العلم ليجاري به العلماء أو ليماري به السفهاء ويصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار))[3]. ويقرب من هذا الحديث ما روي عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من تعلم علماً مما يُبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة)) يعني ريحها[4].

21- إن المدينة المنورة مهبط الوحي ومنبع العلم، منها انتشر وذاع وعم الآفاق، وقد أخبر الرسول -صلى الله عليه وسلم- أنه يأتي زمان يبحث الناس فيه على ما يحتاجون إليه من العلوم والمعارف فلا يجدون ضالتهم إلا في المدينة المنورة،

---

(1) التاج الجامع للأصول -64/1.

(2) التاج الجامع للأصول-74/1.

(3) جامع الترمذي بشرح تحفة الأحوذي -346/7.

(4) سنن أبي داوود بشرح عون المعبود -97/10-98.

يوضح ذلك ما رواه أبو هريرة –رضي الله عنه– أن الرسول –صلى الله عليه وسلم– قال: ((يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم فلا يجدون أحداً أعلم من عالم المدينة))[1] حديث حسن صحيح[2].

22– إن طلاب العلم يجب أن ينالوا من الناس كل تقدير واحترام لأنهم يطلبون الخير ويسعون إليه ويلاقون في سبيل تحصيله المصاعب الجمة، فالتخفيف عنهم بالكلمة الطيبة وإزالة المصاعب وتلبية طلباتهم ومساعدتهم بمختلف أوجه المساعدة من شأنه أن يمكنهم من تحقيق ما يؤمِّلون، وبذلك يكونون عدة للبلاد، وأعمدة راسخة من أعمدة الثبات والاستقرار، وهم بالتالي تتحقق بهم وصية الرسول –صلى الله عليه وسلم– التي رواها أحد طلاب العلم وهو أبو هارون العَبْدِيّ الحذى قال: "كنا نأتي أبا سعيد –رضي الله عنه– فيقول مرحباً بوصية رسول الله –صلى الله عليه وسلم، إن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: ((إن الناس لكم تبع وإن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرضين يتفقهون في الدين فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً))[3].

23– لقد حث النبي –صلى الله عليه وسلم– على طلب العلم لما فيه من الخير والبركة، فقد ثبت عن أنس بن مالك –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: ((طلب العلم فريضة على كل مسلم))[4].

---

(1) قال عبدالرزاق المراد بعالم المدينة هو الإمام مالك، وفي رواية لابن عيينة أنه الإمام مالك أيضاً، وفي رواية عنه أنه العمري وهو عبدالله بن عبد العزيز بن عبدالله بن عبدالله بن عمر بن الخطاب. ينظر تحفة الأحوذي بشرح الترمذي –373/7. ولا يبعد عندي أن يكون المراد بعالم المدينة الرمز إلى أن المدينة المنورة ستكون متجه الناس لمن يتواجد فيها من علماء أفذاذاً على مرّ الزمان يستنجد بهم في الشريعة من يحتاجون إلى توضيح الغامض ودفع الشبهات وإزالة كل ضائقة حول الشريعة الغراء قد تحصل للأمة الإسلامية في أي زمان إكراماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي صارت مسكناً أبديا له.

(2) جامع الترمذي مع تحفة الأحوذي –7–373.

(3) التاج الجامع للأصول 73/1.

(4) سنن ابن ماجه 776/3، المعجم الكبير – الطبراني –195/10 حديث رقم 10461.

24- كما أن العلم من شأنه أن يهدي الإنسان إلى عمل الخير الذي يهديه إلى الجنة، وهي غاية عظيمة يسعى الناس إليها بمختلف الوسائل الممكنة، ويرشد إلى ذلك ما رواه أبو الدرداء -رضي الله عنه- أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من سلك طريقا يبتغي فيه علماً سلك الله به طريقا إلى الجنة))[1].

25- وقد ثبت أيضاً أن العلم يجعل لصاحبه يوم القيامة ميزة يتميز بها عن كثير من أصناف الناس، حيث يدخل به في عداد من يشفعون لغيرهم يوم القيامة، فقد ثبت عن جابر بن عبدالله -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يبعث الله العالم والعابد، فيقال للعابد أدخل الجنة، ويقال للعالم: اثبت حتى تشفع للناس بما أحسنت أدبهم))[2].

وهذه بدون شك مزية يُغبط عليها العلماء العاملون بعلمهم المُؤدون لرسالتهم نحو مجتمعهم، لا الكسالى الخاملون، ولا المتباهون به، ولا من يبيعونه بعرض زائل أو متاع فانٍ.

26- إن العلم يرفع مقام طالبه إلى منزلة الشهداء إذا مات وهو يطلبه، لأن طلبه للعلم فيه محاربة للجهل، فكما أن المجاهد بسيفه يحارب الطواغيت والظالمين ويدعو الناس إلى نور الإسلام وهديه، فإن طالب العلم يسعى للحصول على السلاح الذي به يرشد الناس إلى الحق وإلى الاهتداء بهدي الإسلام، فيعتبر من المجاهدين، وإذا مات وهو يطلبه مات شهيداً، يوضح ذلك ما رواه أبو هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا جاء الموت طالب العلم أو كلمة نحوها وهو على هذه الحال مات وهو شهيد))[3].

---

(1) سنن الترمذي بشرح تحفة الأحوذي 375/7.

(2) شعب الإيمان - البيهقي -268/2- حديث رقم 1717.

(3) كشف الأستار للهيثمي عن زوائد البزار 84/1- حديث رقم 138.

27- لما كان العلم من شأنه أن يهدي صاحبه إلى سلوك طريق الخير والابتعاد عن الانحراف – وهو فوق ذلك يكون نافعاً لكل من يُعاشره، بل في هـذا الزمـان حيث كثرت وسائل نشر العلم يعم نفعة كثيراً من الخلائق ولو من غير معاشرة – فإن أعمال العالم وأقواله وإرشاداته وتوجيهاته تسهم في الاستقامة وتجعـل الناس يعيشون على خير، ولا يجد الشيطان وأعوانه سبيلاً إلى إفسـاد النـاس وإغوائهم، وهذا واضح من كلام الرسول –صلى الله عليه وسلم– فيمـا رواه عبد الله بن عباس –رضي الله عنهما– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنـه قال: ((ففيه أشد على الشيطان من ألف عابد))[1].

28- من كرم الله لطالب العلم أن يُسخر ملائكته الكرام لتكون في عون طالب العلم وفتح أبواب الخير له وإزالة العراقيل من أمامه، حتى يتحصل على مقصوده، وهذا واضح مما رواه صفوان بن عسال أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: ((إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب))[2].

ومعنى تضع أجنحتها تذللها له لتكون بمثابة بساط له يفترشه ليستريح عليه وهو يكابد دقائق العلوم، أو هي بمثابة أجنحة الطائر يعتليها اعتلاء معنوياً ليصـل إلى ما شرد من دقائق العلوم أو خفى منها، فتكون أجنحة الملائكة عبـارة عـن عونها للطالب في تذليل صعاب المسائل ودقائقها، وليس ذلك من المستحيل علـى الله سبحانه وتعالى، فإن كثيراً ما يسخر ملائكته لتكون في عون الإنسان.

29- إن مجلس العلم مجلس مبارك، والرسول –صلى الله عليه وسلم– فضله علـى مجلس الدعاء، مع أنه قال في حق الدعاء إنه هو العبادة، ولكنه فضل الجلوس في مجلس العلم وآثره على مجلس الدعاء، مما يؤكد سمو مكانة العلم ومحبـة الله لها، وهذا يتضح مما رواه عمرو بن العاصي –رضي الله عنه– أن النبـي

---

(1) سنن الترمذي بشرح تحفة الأحوذي، حديث رقم 2821/ ج374/7.

(2) مسند الإمام أحمد –240/4– حديث رقم 18123.

–صلى الله عليه وسلم– ((مر بمجلسين في مسجده وأحد المجلسين يدعون الله ويَرْغبون إليه، والآخر يتعلمون الفقه ويعلمونه، فقال –صلى الله عليه وسلم–: كلا المجلسين على خير وأحدهما أفضل من صاحبه أما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وأما هؤلاء فيتعلمون العلم ويعلمون الجاهل فهم أفضل وإنما بعثت معلماً ثم أقبل فجلس معهم"[1].

30- ترغيباً للناس في التوجه لاكتساب صفة العلم النافع اكتساباً حقيقياً، نجد الرسول الكريم –صلى الله عليه وسلم– في حديث طويل –رواه أبو الدرداء – رضي الله عنه يقول: ((...وإنه ليستغفر للعالم من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في البحر وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب))[2].

فذو العقل المدبر عند ما يعلم أنه باكتسابه صفة العلم النافع يُسخر له من في السموات ومن في الأرض ليكونوا في خدمته بالاستغفار له مما يقع منه من تقصير وارتكاب أخطاء، كما يعلم أنه سيكون له فضل كبير على من لم يكتسب صفة العلم بما يماثل فضل القمر في إنارتها للكون ليلة البدر على سائر الكواكب الأخرى، والفارق بينها واضح لكل من يشاهد القمر وبقية الكواكب في الإنارة فإن من شأن ذلك أن يحفزه إلى تحمل المتاعب مهما عظمت في سبيل تحقيق ما وعد الله به على لسان رسوله الكريم الذي لا ينطق عن الهوى.

31- يكفي العالم شرفاً أن يكون فيما تحصل عليه من علم قد ورثه عن الأنبياء الذين هم صفوة الخلق وأحباء الخالق شرفهم بحمل شرعه الحنيف وائتمنهم على وحيه المعصوم، فقد ثبت عن أبي الدرداء –رضي الله عنه– من حديث طويل أن الرسول –صلى الله عليه وسلم– قال: ((.... إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن

---

(1) مسند البراز 428/6 حديث رقم 2458.

(2) سنن الترمذي بشرح تحفة الأحوذي– ج375/7–376.

الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافرٍ))[1].

الفرع الثالث: كلام العلماء والحكماء حول فضل العلم والدعوة إليه ونشره وتحصيله:

فمن ذلك:

1- قول الحكماء: "من كتم علماً فكأنه جاهله"[2].

2-قال مصعب بن الزبير لابنه: "تعلم العلم، فإن يكن لك مال كان لك جمالاً، وإن لم يكن لك مال، كان لك مالاً"[3].

3-قال عبد الملك بن مروان لبنيه: "يا بني تعلموا العلم، فإن كنتم سادة فقتم، وإن كنتم وسطاً سدتم، وإن كنتم سوقه عشتم"[4].

4-قال بعض الحكماء: "العلم شرف من لا قدر له، والأدب مال لا خوف عليه"[5].

5-قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: "تفقهوا قبل أن تسوَّدوا"[6].

6-قال بعض الأدباء: "العلم أفضل خلف، والعمل به أكمل شرف"[7].

7-قال بعض البلغاء: "تعلم العلم، فإنه يقومك ويسددك صغيراً، ويقدمك ويسودك كبيراً، ويصلح زيفك وفسادك، ويرغم عدوك وحاسدك، ويُقوِّم عوجك وميلك، ويصحح همتك وأملك"[8].

---

(1) سنن الترمذي بشرح تحفة الأحوذي، ج376/7، سنن أبي داوود بشرح عون المعبود، حديث رقم 3624/ج72/9 وما بعدها.

(2) جامع بيان العلم وفضله 6/1.

(3) أدب الدنيا والدين للماوردي /24، المكتبة التوفيقية بمصر.

(4) المصدر السابق.

(5) المصدر السابق.

(6) صحيح البخاري بشرح فتح الباري - كتاب العلم - باب الاغتباط في العلم - 12/1.

(7) أدب الدنيا والدين للماوردي /24.

(8) المصدر السابق 24، 25.

8-عن علي -رضي الله عنه- قال: "كفى بالعلم شرفاً أن يدعيه من لا يحسنه ويفرح إذا نُسب إليه، وكفى بالجهل ذمًّا أن يتبرأ منه من هو فيه"[1].

9-قال علي -رضي الله عنه-: "قيمة كل امرئ ما يحسن"، فأخذه الخليل فنظمه شعراً فقال:

لا يكون العلي مثلَ الدني لا ولا ذو الذكاء مثل الغبي

قيمة المرء قدر ما يحسن المر ء قضاء من الإمام علي[2]

10-قال ابن المعتز في منثور الحكمِ: "العالم يعرف الجاهل لأنه كان جاهلاً والجاهل لا يعرف العالم، لأنه لم يكن عالماً"[3].

11-عن وهب بن مُنبّه قال: "يتشعب من العلم الشرف وإن كان صاحبه دنيئاً، والعز وإن كان مهيناً، والقرب وإن كان قصياً، والغنى وإن كان فقراً، والنبل وإن كان حقيراً، والمهابة وإن كان ضعيفاً، والسلامة وإن كان سفيها"[4].

12-سئل ابن المبارك -من الناس؟ فقال: العلماء، قيل: فمن الملوك؟ قال الزهاد، قيل: فمن السفله؟ قال: الذين يأكلون الدنيا بالدين[5].

13-قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: "عليكم بالعلم قبل أن يرفع، ورفعه موت رواته، فوالذي نفسي بيده لَيَوَدُّنَّ رجال قتلوا في سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء لما يرون من كرامتهم، فإن أحداً لم يولد عالماً، وإنما العلم بالتعلم"[6].

---

(1) أدب العالم والمتعلم 48. عبدالحميد شاهين، ط1.

(2) أدب الدنيا والدين للماوردي /24-25.

(3) فتح الباري شرح صحيح البخاري 12/1- أدب الدنيا والدين، ص27.

(4) ادب العالم او المتعلم /48.

(5) إحياء علوم الدين للغزالي 14/1.

(6) المصدر السابق /15.

14-قيل في منثور الحكم: "زلة العالم كالسفينة تغرق، ويغرق معها خلق كثير"[1].

15-قيل لعيسى بن مريم: "من أشد الناس فتنة؟ قال: زلة العالم، إذا زل هلك بزلته عالم كثير، فهذا وجه، وإما لأن الجهال بذمه أغرى، وعلى تنقيصه أحرى، ليسلبوه فضيلة التقدم، ويمنعوه مباينة التخصيص، عناداً لما جهلوه ومقتاً لما باينوه، لأن الجاهل يرى العلم تكلفاً ولؤماً، كما أن العالم يرى الجهل تخلفاً وذماً"[2].

16-قال أبو بكر بن دريد:

جهلت فعاديت العلوم وأهلها كذاك يعادي العلم من هو جاهله

ومن كان يهوى أن يُرى متصدراً ويكره لا أدري أصيبت مقالته[3]

17-وقال الحسن البصري -رحمه الله-: "يوزن مداد العلماء بدم الشهداء فَيَرْجَحُ مداد العلماء بدم الشهداء"[4].

18-قيل لبعض الحكماء: "أي الأشياء تقتني؟ قال: الأشياء التي إذا غرقت سفينتك سبحت معك. يعني العلم قيل أراد بهلاك السفينة هلاك بدنه بالموت[5].

19-قال بعضهم: "من أتخذ الحكمة لجاماً اتخذه الناس إماماً، ومن عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار"[6].

---

(1) أدب الدنيا والدين، ص31.

(2) أدب الدنيا والدين /28.

(3) المصدر السابق /25.

(4) إحياء علوم الدين 15/1.

(5) المصدر السابق.

(6) المصدر السابق.

20-قال أبو الأسود الدؤلي "ليس شيء أعز من العلم، الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك"[1].

21-قال الشافعي -رحمه الله-:

ومنزلة السفيه من الفقيه كمنزلة الفقيه من السفيه

فهذا زاهد في قرب هذا وهذا فيه أزهد منه فيه

إذا غلب الشقاء على سفيه تنطع في مخالفة الفقيه[2]

22-قال يحيى بن خالد لابنه: "عليك بكل نوع من العلم، فخذ منه، فإن المرء عدو ما جهل، وأنا أكره أن تكون عدو شيء من العلم وانشد:

تفنن وخذ من كل علم فإنما يفوق امرؤ في كل فن له علم

فأنت عدو للذي أنت جاهل به ولِعلم أنت تتقنه سلم[3]

23-قال بعض الأدباء: "كل عز لا يوطده علم مذلة، وكل علم لا يؤيده عقل مضله"[4].

24-قيل: "العالم كالعين العذبة نفعها، وقيل العالم كالسراج من مرّ به اقتبس"[5].

25-قال الشافعي -رحمه الله-: "من لا يحب العلم لا خير فيه فلا يكن بينك وبينه معرفه"[6].

26-قال الأحنف بن قيس- رحمه الله-: "كاد العلماء أن يكونوا أرباباً وكل عز لم يوطد بعلم فإلى ذل مصيره"[7].

---

(1) إحياء علوم الدين للغزالي 14/1- العقد الفريد مع شيء من الاختلاف ج76/2.

(2) أدب الدنيا والدين 28.

(3) أدب الدنيا والدين 28-29.

(4) المصدر السابق 29.

(5) أدب العالم والمتعلم /48.

(6) المصدر السابق /49.

(7) إحياء علوم الدين 15/1- العقد الفريد -ج75/1.

27-من وصايا لقمان لابنه: "جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك، فإن الله سبحانه يحي القلوب بنور الحكمة كما يُحيى الأرض بوابل السماء"[1].

28-قال الشافعي -رحمه الله-: العلم مروءة من لا مروءة له"[2].

29-عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: "لأن أعلم بابا من العلم في أمر ونهي أحب إليَّ من سبعين غزوة في سبيل الله"[3].

30-قال بعض البلغاء: "العلم عصمة الملوك، لأنه يمنعهم من الظلم ويردهم إلى الحلم، ويصدهم عن الأذية، ويعطفهم على الرعية، فمن حقهم أن يعرفوا حقه، ويستنبطوا أهله، فأما المال فظل زائل، وعارية مسترجعة، وليس في كثرته فضيله، ولو كانت فيه فضيله لخص الله به من اصطفاه لرسالته واجتباه لنبوته"[4].

31-قال بعض علماء السلف: "إذا أراد الله بالناس خيراً جعل العلم في ملوكهم، والملك في علمائهم"[5].

32-عن أبي الدرداء -رضي الله عنه- قال: "مذاكرة العلم ساعة خير من قيام ليله"[6].

33-عن الحسن البصري قال: "لأن أتعلم باباً من العلم فأُعلم مسلماً أحب إليَّ من أن تكون لي الدنيا كلها في سبيل الله تعالى"[7].

---

(1) المصدر السابق.

(2) أدب العالم والمتعلم /48.

(3) المصدر السابق /51.

(4) أدب الدنيا والدين /29.

(5) المصدر السابق.

(6) أدب العالم والمتعلم /51.

(7) المصدر السابق.

34-عن سفيان الثوري والشافعي -رحمهما الله- قالا: "ليس شيء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم"[1].

35-قيل لبَزرْجَمْهَر: "العلم أفضل أم المال؟ فقال بل العلم. قيل: فما بالنا نري العلماء على أبواب الأغنياء ولا نكاد نرى الأغنياء على أبواب العلماء؟ فقال: ذلك لمعرفة العلماء بمنفعة المال، وجهل الأغنياء بفضل العلم"[2].

36-وقف بعض المتعلمين بباب عالم ثم نادى: تصدقوا علينا بما لا يتعب ضرساً، ولا يُسقم نفساً، فأخرج له طعاماً ونفقة. فقال: فاقتني إلى كلامكم أشد من حاجتي إلى طعامكم، إني طالب هدى لا سائل ندى فأذن له العالم، وأفاده عن كل ما سأل عنه، فخرج جذلاً فرحاً، وهو يقول: علم أوضَحَ لبساً خير من مال أغنى نفساً"[3].

37-قال الشافعي -رحمه الله-: "من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن تعلم الفقه نُبل مقداره، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن لم يصن نفسه، لم ينفعه علمه"[4].

38-قال علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-: "العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم والمال محكوم عليه، مات خزَّان الأموال وبقى خزَّان العلم، أعيانهم مفقودة، وأشخاصهم في القلوب موجودة"[5].

---

(1) المصدر السابق.

(2) أدب الدنيا والدين /24-25.

(3) المصدر السابق /26.

(4) أدب الدنيا والدين /30.

(5) المصدر السابق.

39-حُكى أن بعض الحكماء رأى شيخاً كبيراً يُحب النظر في العلم ويستحي، فقال له: يا هذا أتستحي أن تكون في آخر عمرك أفضل مما كنت عليه في أوله"[1].

40-ذكر أن إبراهيم المهدي دخل على المأمون وعنده جماعة يتكلمون في الفقه، فقال: يا عم، ما عندك فيما يقول هؤلاء؟ فقال: يا أمير المؤمنين: شغلونا في الصغر، واشتغلنا في الكبر. فقال: لم لا تتعلمه اليوم؟ قال: أو يحسن بمثلي طلب العلم؟ قال: نعم، والله لأن تموت طالباً للعلم، خير من أن تعيش قانعاً بالجهل، قال: وإلى متى يحسن بي طلب العلم؟ قال: ما حسنت بك الحياة، لأن الصغير أعذر، وإن لم يكن في الجهل عذر، لأنه لم تطل به مدة التفريط، ولا استمرت عليه أيام الإهمال"[2].

41-قيل في منثور الحكم: "جهل الصغير معذور وعلمه محفور"[3].

42-عن سهل التُّسْتْرى -رحمه الله- قال: "من أراد النظر إلى مجالس الأنبياء فلينظر إلى مجالس العلماء فاعرفوا لهم ذلك"[4].

43-قال علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-: "أغد عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً، ولا تكن الخامس فتهلك"[5].

44-قيل لبزرجمهر "مالكم لا تعاتبون الجهال؟ فقال: إنا لا نكلف العُمي أن يبصروا ولا الصم أن يسمعوا"[6].

45-قيل لبزرجمهر: "ما أعجب الأشياء؟ فقال: نُجح الجاهل، وإكداء العاقل"[7].

---

(1) المصدر السابق.

(2) المصدر السابق.

(3) المصدر السابق.

(4) أدب العالم والمتعلم /51.

(5) أدب الدنيا والدين /32.

(6) المصدر السابق/32.

(7) المصدر السابق/33.

46-قال بعض العلماء: "من أحب العلم أحاطت به فضائله"[1].

47-قال بعض الحكماء: "من صاحب العلماء وُقِّر ومن جالس السفهاء حُقر"[2].

48-عن معاذ بن جبل -رضي الله عنه-قال: "تعلموا العلم فإن تعلمه خشية وطلبه عباده ومذاكرته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه من لا يعلمه صدقة وبذله لأهله قربه"[3].

49-قال ابن عباس -رضي الله عنه-: "كونوا ربانيين حلماء فقهاء علماء"[4].

50-قال عبدالله بن المعتز: "نعمة الجاهل كروضة في مزبلة"[5].

51-قال مالك بن دينار: "من لم يؤت من العلم ما يقمعه، فما أوتي منه لا ينفعه"[6].

52-قال بعض الحكماء: "الفقيه بغير ورع، كالسراج يضيء البيت ويحرق نفسه"[7].

53-قال أبو مسلم الخولاني: "مثل العلماء في الأرض مثل النجوم في السماء إذا بدت للناس اهتدوا بها وإذا خفيت عليهم تحيروا"[8].

54-قال بعض الحكماء: "كلما حسنت نعمة الجاهل ازداد قبحاً"[9].

55-قال بعض العلماء لبنيه: "يا بني تعلموا العلم، فإن لم تنالوا به من الدنيا حظاً فلأن يذم الزمان لكم، أحب إليَّ من أن يذم الزمان بكم"[10].

---

(1) المصدر السابق.

(2) المصدر السابق/31.

(3) أدب العالم المتعلم/48.

(4) صحيح البخاري بشرح فتح الباري 119/1.

(5) أدب الدنيا والدين، ص33.

(6) أدب الدنيا والدين /36.

(7) المصدر السابق.

(8) أدب العالم والمتعلم/48.

(9) أدب الدنيا والدين /33.

(10) المصدر السابق /33-34.

56-قال رجل لأبي هريرة -رضي الله عنه-: أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه، فقال: كفى بترك العلم إضاعة"[1].

57-قال بزرجمهر: "الجهل في القلب كالنز[2] في الأرض يفسد ما حوله"[3].

58-عن مجاهد أنه قال: "لا يتعلم العلم مستح ولا متكبر"[4].

59-قيل للخليل بن أحمد: " أيهما أفضل، العلم أو المال؟ قال العلم. قيل فما بال العلماء يزدحمون على أبواب الملوك والملوك لا يزدحمون على أبواب العلماء؟ قال ذلك لمعرفة العلماء بحق الملوك وجهل الملوك بحق العلماء"[5].

60-قال الأصمعي: أول العلم الصمت والثاني الاستماع، والثالث الحفظ، والرابع العمل، والخامس نشره[6].

61-قال معاذ بن جبل: تعلموا العلم فإن تعلمه حسنة، وطلبه عبادة، وبذله لأهله قربة. والعلم منار سبيل أهل الجنة، والأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والزين عند الأخلاء، والسلاح على الأعداء، يرفع الله به قوماً فيجعلهم قادة أئمة، تُقتفى أثارهم، ويُقتدى بفعالهم، والعلم حياة القلب من الجهل، ومصباح الأبصار من الظلمة، وقوة الأبدان من الضعف، يبلغ بالعبد منازل الأخيار، والدرجات العلا في الدنيا والأخرة، والفكر فيه يعدل الصيام، ومذاكرته القيام، وبه توصل الأرحام، ويعرف الحلال من الحرام[7].

---

(1) المصدر السابق/31.

(2) النز ما يتحلب من الأرض من الماء، ونزت الأرض تحلب منها النز ترتيب القاموس م. نزَّ.

(3) أدب الدنيا والدين /32.

(4) صحيح البخاري يشرح فتح الباري 162/1.

(5) العقد الفريد، للفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، ت328هـ/ط1- ج75/2.

(6) العقد الفريد ج77/2.

(7) المرجع السابق.

62-أنشد ابن طباطبا العلوي:

يلوم علي أن رحت في العلمِ طالبـاً أجمع من عنـد الرجـال فنونـه
فأملـك أبكـار الكـلام وعونـه وأحفـظ ممـا أسـتفيد عيونـه
ويزعم أن العلم لا يجلـب الغنـى ويحسن بالجهـل الـذميم ظنونـه
فيا لائمي دعنـي أغـالي بقيمتـي فقيمة كل الناس مـا يحسـنونه[1]

63-أورد صاحب العقد الفريد كلاماً جيداً عن الإمام علي -كرم الله وجهه- في شان العلم وفضله، حيث قال: حدثنا أيوب بن سليمان قال حدثنا عامر بـن معاوية عن أحمد بن عمران الأخنس عن الوليد بن صالح الهاشمي، عبدالله بن عبدالرحمن الكوفي عن أبي مخنف عن كميل النخعي قال أخـذ بيـدي علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فخرج بي إلى ناحية الجبانة فلما أصْحر تنفس الصعداء، ثم قال: يا كميل، إن هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاهـا، فاحفظ عليّ ما أقول لك: الناس ثلاثة، عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، مع كل ريح يميلون، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق.

يا كميل، العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والمـال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، ومنفعة المال تزول بزواله، يا كميل محبه العلم دِينٌ يدان به، به يكسب الانسان الطاعة في حياته، وجميـل الأحدوثـة بعـد وفاته، والعلم حاكم والمال محكوم عليه، يا كميل مات خُزَّان المال وهـم أحيـاء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجـودة. إن هاهنا لعلماً جماً – وأشار بيده إلى صدره – لو وجدت له حَمَلَةَ، بلى أجد لَقِناً غير مأمون عليه يستعمل الدين للدنيا، ويستظهر بحجج الله على أوليائه، وبنعمه علـى

(1) المرجع السابق 78/77.

عباده، أو منقاداً لحملة الحق ولا بصيرة له في أحنائه، ينقدح الشك في قلبه لأول عارض من شبهة، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ليس من رعاة الدين، أقرب شبهاً بالأنعام السائمة، كذلك يموت العلم بموت حامليه، اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم بحجة الله إما ظاهراً مشهوراً، أو خافياً مغموراً لئلا تبطل حجج الله وبيناته وكم ذا، وأين؟ أولئك الأقلون عدداً أو الأعظمون عند الله قدراً؟ بهم يحفظ الله حججه حتى يودعها نظراءهم، ويزرعها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة الإيمان حتى باشروا روح اليقين، فاستلانوا ما استخشن المترفون، أنِسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدانهم، أرواحاهم معلقة بالرفيق الأعلى.

يا كميل، أولئك خلفاء الله في أرضه، والدعاة إلى دينه، آهٍ آهٍ شوقاً إليكم، أنصرف (يا جميل) إذا شئت[1].

64-قال أيوب السختياني: إن من أصحابي من أرتجي بركة دعائه ولا أقبل حديثه[2].

65-ورد عن الحكماء قولهم: علِّم علمك من يجهل، وتعلم ممن يعلم، فإذا فعلت ذلك حفظت ما علمت، وعلمت ما جهلت[3].

66-عن لقمان أو عيسى عليه السلام أنه قال: كما ترك الملوك لكم الحكمة فاتركوا لهم الدنيا[4].

67-عن ابن أبي الحسين قال: بلغني أن لقمان الحكيم كان يقول: يا بني لا تتعلم العلم لتباهي به العلماء، وتماري به السفهاء وترائي به في المجالس، ولا تدع العلم زاهداً فيه ورغبة في الجهالة، يا بني اختر المجالس على عينك، فإذا رأيت قوماً يذكرون الله فاجلس معهم فإنك إن تك عالماً ينفعك علمك،

---

(1) العقد الفريد، ج74/2.

(2) العقد الفريد ج78/2.

(3) المصدر السابق.

(4) جامع بيان العلم وفضله – ج128/1.

وإن تك جاهلاً يعلموك، ولعل الله يطلع عليهم برحمة فتصيبك معهم، وإذا رأيت قوماً لا يذكرون الله فلا تجلس معهم، فإنك إن تك عالماً لا ينفعك علمك، وإن تك جاهلاً يزيدوك غياً، ولعل الله أن يطلع عليهم بعذابٍ فيصيبك معهم[1].

68-عن يزيد بن أسلم أن لقمان قال لابنه: يا بني لا تتعلم العلم لثلاث ولا تدعه لثلاث: لا تتعلمه لتمارى به أو لتباهي أو لترائي به، ولا تدعه زهادة فيه، ولا حياء من الناس ولا رضا بالجهالة. قال زيد بن أسلم كان لقمان من النَّوبة[2].

69-من مواعظ لقمان لابنه: لا تجادل العلماء فتهون عليهم ويرفضونك، ولا تجادل السفهاء فيجهلوا عليك ويشتمونك، ولكن اصبر نفسك لمن هو فوقك في العلم ولمن هو دونك، فإنما يلحق بالعلماء من صبر لهم ولزمهم واقتبس من علمهم في رفق[3].

70-عن السري قال لقمان لابنه: يا بني إن الحكمة أجسلت المساكين مجالس الملوك[4].

71-قال أبو حنيفة: اعلم أن العمل تبع للعلم، كما أن الأعضاء تبع للبصر، والعلم مع العمل اليسير أنفع من الجهل مع العمل الكثير"[5].

---

(1) المصدر السابق -ص128-129.

(2) المصدر السابق -ص129.

(3) المصدر السابق.

(4) المصدر السابق.

(5) أدب العالم والمتعلم -ص61.

المبحث الثاني

شروط تحصيل العلم وآداب العالم والمتعلم وحقوقهما على المجتمع

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: شروط تحصيل العلم:

لتحصيل العلم شروط لابد منها، وقد تباينت وجهات نظر الذين كتبوا العلم في تعدادها، وفي اعتبار بعضها شروطاً عند واحد وعدم اعتبارها كذلك عند غيره، وإنني أوجز القول فيها وأحاول الإتيان على معظمها بقدر ما يفتح الله به، فنسأله التوفيق والتسديد، وأشير إلى أن هناك من نظمها في بيتين، حيث قال:

أخي لن تنال العلم إلا بستة ... سأنبيك عن تفصيلها ببيان

ذكاء وحرصٌ وافتقار وغربة ... وتلقين أستاذ وطول زمان

1- فأولها كما هو واضح الذكاء والمراد به سرعة الفطنة وهي الحذق للشيء وإليه وبه، فهي من باب فَرِحَ ونَصَرَ وكَرُمَ[1] فمن تغلب عليه الغفلة والبلادة لا يُطلب منه أن يكون عالماً، لأن طلب ذلك منه يعتبر ضرباً من المحال، وهو عبث لا يأتي بنتيجة.

2- الشرط الثاني لتحصيل العلم حرص الطالب عليه، والحرص بمعنى أن يكون طالب العلم متطلعاً إلى المعرفة جاداً فيها متمسكاً بأسبابها، لا تثني عزيمته عوائق الزمان ولا تصاريف الأحداث في سبيلها، بل لا تزيده الشدائد إلا مزيداً من تكثيف الجهد ومداومة الطلب، فإنه بذلك ينال مرغوبه ويتحقق له مطلوبه، والذي توقفه الصعاب وتثني عزيمته الشدائد يصعب عليه أن ينال عظائم العلوم ودقائقها، فهي مرهونة بالصبر والمصابرة، وتحمُّل المكاره مهما اشتدت.

---

(1) ترتيب القاموس. مادة ذكاء –فطن.

وقل أن تخيب آمال طالب العلم إن كان حرصه على تحصيله على نحو ما وصفنا.

3- الشرط الثالث من شروط تحصيل العلم: حاجة الانسان إليه وافتقاره له، بمعنى أن الإنسان يشعر بنقص دائم في جانب المعرفة ويسعى لتلافيه ولا يقف عند حد في طلبه، وكلما قطع شوطاً في محراب العلم كلما عظم تطلعه للمزيد، استجابة لأمر الله المتكرر لعباده بضرورة أن يكونوا عالمين بأمور دينهم ودنياهم متمكنين من معرفة شرع الله وما يسهم في ازدهار الأمة الإسلامية وتقدمها.

وشعور الإنسان بافتقاره إلى المزيد من التحصيل العلمي من شأنه أن يدفع صاحبه إلى تخطي الحواجز والتغلب على الصعاب وعدم الخضوع لها مهما اشتدت، وفي ذلك ما فيه من الشعور باللذة والسعادة عند الظفر بالمطلوب، وقلَّ أن ينال طالب العلم مرغوبة إذا لم يكن جسوراً مقداماً.

والفقر الذي هو شرط من شروط تحصيل العلم قد يكون معنويا وهو على نحو ما ذكرنا، وقد يكون مادياً بمعنى أن قلة المال هي التي تدفع صاحبها عادة إلى العلم والمعرفة ليزيل به فقره المادي والمعنوي من جهة، وليبني لنفسه مكانة ملموسة في مجتمعه من جهة أخرى، حيث إن الناس يتعاملون مع بعضهم بالتقدير والاحترام وفق ما هم عليه من الغنى المادي وقد قيل "لولا أبناء الفقراء لضاع العلم".

لكني أميل إلى أن الفقر الذي يكون دافعاً للتحصيل العلمي الذي هو شرط من شرائط تحصيله إنما هو الفقر المعنوي، أي شعور الانسان دائماً بأنه بحاجة إلى المزيد من العلم ولو كان ذا مال وفير وسعة في الرزق، فبدونه قد لا يحصل علم، بل بانعدامه لن يكون إليه توجه البتة.

فهو سر التحصيل والاستدامة في طلبه والتفاني في سبيله وبـــذلك يتحقـــق المرغوب.

4- الشرط الرابع الغربة: والمراد بها أن يكون طالب العلم متوجهـــاً إليـــه لا يزاحمه فيه شيء، بحيث يكون شغله الشاغل، والغربة نوعان:

أ- قد تكون حقيقية: بمعنى أن يقطع طالب العلم الفيافي والمســـافات مـــن أجله متى علم أن في سفره تحقيقاً لتطلعاته، والرحلة في ســـبيل العلـــم عرفت منذ وجود الإسلام، فالمدينة المنورة كانت قبلة طـــلاب علـــوم الحديث والفقه، وكذلك الكوفة والبصرة وبغـــداد ومصـــر والقيـــروان والزيتونة ودمشق وفاس ومكناس والأندلس وغيرهـــا علـــى مســـتوى إسلامي، وهناك دُور أُخر للعلم غير ما ذكرنا كانت محط أنظار طلابه شدوا الرحال إليها ونالوا منها مرغوبهم؛ تحقيقاً لما رواه أنس بن مالك أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قال: "من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع"[1].

ب-وقد تكون معنوية: وهي انكباب الشخص علـــى الـــدرس والتحصـــيل ومذاكرة العلوم وملاحقتها في دورها مع انقطاع الطالب عـــن النـــاس وعن شؤون الحياة الأخرى بحيث يكون غريباً في مجتمعه لا يعرفه إلا قلة من أقرب أقاربه، وبذلك لا يكون لتوجهه العلمي مزاحم، ويفـــوض أمر معيشته إلى ولي أمره أو إلى ذي رحم أو صاحب إحســـان يكفيـــه مؤونة ذلك حتى ينال مرغوبه.

وقد عرف منذ قديم الزمن بوجود محسنين أوقفوا شيئاً من أموالهم ودورهم على طلاب العلوم الشرعية، وما زال ريعها إلى هذا اليوم يعتمـــد عليـــه بعـــض الطلاب في شتى أنحاء الوطن الإسلامي.

---

(1) سبق تخريجه، راجع ص19

ولا شك أن هذه ميزة عظيمة للمسلمين يجب الحفاظ عليها وتشجيع من لهم سعة من المال أن يتنافسوا على دوامها.

5- الشرط الخامس: أن يتلقى طالب العلم العلوم عن متخصص مشافهة وسماعاً لا اقتناصاً من الكتب، لأن العلوم تقوم على قواعد وضوابط يدركها المتخصصون لا غيرهم، فلوا اقتصر طالب العلم على أخذه لها من الكتب فإنه لا يأمن الخطأ، بل سيكون فريسة له، وهذا معروف من الواقع، فإن الذين انكبوا على الكتب قراءة وتحصيلاً عندما صاروا يجيدون القراءة وقعوا في كثير من الأخطاء في فهمهم وفي نطقهم مما جعل المحذرين من مخاطر الاعتماد على الكتب أن يقولوا "لا تأخذ العلم عن الصحفي ولا القرآن عن المصحفي"، فقائل هذا يحذر من أخذ العلم عمن أخذ العلوم من الكتب مباشرة دون أن يسمعها من أساتذة متخصصين، والمراد بالصحف الكتب، وسميت بذلك لأنها تتألف من صحائف، وليس المراد بالصحفي ما عرف الآن بأرباب الصحافة المحررين لها والناشرين لأخبار المجتمع فيها.

والتحذير المذكور لأخذ العلوم من الكتب مباشرة إنما يكون للطالب المبتدئ الذي لم يصل درجة الاعتماد على النفس في الفهم والتحصيل، أما من حذق العلوم وضبط القواعد وأدرك أسسها فلا محذور عليه فله أن ينتقل بين مصادر العلوم ومراجعها يأخذ منها ما احتاج إليه، دون تقييد له أوحَدٍّ من نشاطه، لأنه مأمون الجانب مضمون السلامة إن شاء الله تعالى، وكما يحذر المبتدئ من أخذ العلوم من الكتب مباشرة وهو ما يسمى بالوجادة، فإن على مريد قراءة القرآن أن يعتمد في ذلك على مقرئ حفظ القرآن ونقله عن شيخ، لا من المصحف مباشرة، لأن قراءة القرآن لها خواص من حيث النطق والكتابة لا يمكن استيعابها من المصحف مباشرة، بل لابد لها من شيخ ملقن استوعب قراءة النص القرآني استيعاباً صحيحاً.

6- الشرط السادس: إعطاء مدة كافية للعلم المراد تحصيله فلا يصح الاستعجال واختصار الزمن اختصاراً مخلا.

ومن أجل أن يقوم التحصيل العلمي على أسس ثابتة فقد ضبطت مراحل التعليم في كل أرجاء الدنيا بسنوات محددة تلتئم مع عقلية الدارس ونضجه الفكري، وكذلك رتبت العلوم ترتيباً منطقياً يتم وفقه حصول المعرفة حصولاً لا يداخله اضطراب ولا يعتريه استغراب.

وهذا من شأنه أن يجعل طالب العلم يتنقل في رياض العلوم تنقلاً سليماً لا يتعرض معه لهزات تؤدي بتحصيله للعلوم إلى نتائج غير محمودة.

هذه هي شروط تحصيل العلوم عند من يراها شروطاً يتوقف تحصيل العلوم عليها، وهناك من غاير بعضها بغير ما ذكرنا، وهناك من أضاف عليها، مثل إضافته للشروط[1]:

أ- العقل: فالمجنون لا يطلب منه ذلك ولا يُجعل له هذا الشرط.

ب- زاد يحقق له راحة النفس: بمعنى أن يكون له مورد مالي يعتمد عليه في معيشته مدة دراسته، فالذي ليس له ذلك لا يتأتى له متابعة العلوم ولا البحث عنها، لأن حياته مرهونة بلقمة العيش، فلا بد من تأمينها ليتحقق له التوجه نحو العلم والمعرفة.

ج-الخوف من الله -عز وجل-: ومعناه أن يكون الانسان متقياً لربه مبتعداً عن المحارم واقفاً عند حدود الله، مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: 282] ولذا قيل: رأس العلم، الخوف من الله تعالى[2].

---

(1) أدب الدنيا والدين /53.

(2) العقد الفريد- ج80/2.

المطلب الثاني: آداب العالم والمتعلم وواجباتهما:

العلم يحصل بالتعلم، وهو فريضة لأنه قوام الدنيا والدين، وبه تحصل السعادة الدنيوية والأخروية، ولابد من عالم ومتعلم، ولكل آداب، وتفصيلها كما يلي:

أولاً: آداب العالم وواجباته مع تلاميذه:

1- أن يكون متخلقاً بالأخلاق الحميدة ذا دين متين ليكون قدوة حسنة لتلاميذه فيأخذون عنه العلم والسلوك.

2- أن يقصد بتعليمه لغيره وجه الله تعالى بحيث يكون مخلصاً في أداء رسالته العلمية فلا يقصد الرياء والسمعة ولا الجاه ولا السلطان، بل يعتبره عبادة، والعبادة لا تكون إلا كذلك[1].

3- التواضع ومجانبة العُجب، لأن التواضع عطوف والعجب منفِّر، وهو بكل أحد قبيح وبالعلماء أقبح لأن الناس بهم يقتدون.

4- من أدب العالم أن يقول فيما لا يعلم لا أعلم، فقد قال بعض الحكماء "من العلم أن لا تتكلم فيما لا تعلم بكلام من يعلم"، وروي عن ابن عباس أنه قال "إذا ترك العالم لا أدري أصيبت مقاتله".

5- من أدب العالم ألا يرى نفسه قد بلغ قمة المعرفة، وعليه أن يبحث عن المزيد؛ لقوله الله تعالى ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾، ولأن قليله أشبه شيء بقليل الخير، وكثرته أشبه شيء بكثيره، ولن يعيب الخير وكثرته إلا القلة.

6- من أدب العالم أن يعرف مقدار علمه الذي وصل إليه، فلا يدعي ما ليس عنده، ولا يقف عند حد، وقد قال الخليل بن أحمد الرجال أربعة:

أ- رجل يدري ويدري أنه يدري فذلك عالم فاسألوه.

---

(1) ينظر: أدب العالم والمتعلم عبدالحميد شاهين، ص65 وما بعدها.

ب–رجل يدري ولا يدري أنه يدري فذلك ناسٍ فذكروه.

ج–رجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فذلك مسترشد فأرشدوه.

د– رجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذلك جاهل فارفضوه[1].

ومن الغريب أن يعتبر الخليل بن أحمد الجاهل مرفوضاً، وكان الواجب أن يطلب تعليمه، لأن من حق الجاهل على العالم أن يعلمه ما لم يظهر منه الصدود والتعنت والتمسك بجهله.

7–أن يعمل بعلمه ويحث نفسه على أن تأتمر بما علم حتى لا يكون كمن قال فيهم الباري ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ [الجمعة: 5] ولا كمن قال فيهم ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:44]

وهو يعلم أن ثمرة العلم العمل.

وقد قال الخضر للنبي موسى –عليه السلام–: "يا ابن عمران تعلم العلم لتعمل به، ولا تتعلمه لتحدث به فيكون عليك بوره ولغيرك نوره".

8–ألا يحجب علمه على أحد طلبه أو كان أحد تلاميذه بمقتضى وظيفته التي تقلدها نظير مرتب أو كان تبرعاً منه.

9–ألا يبحث على نوايا المتعلمين هل كانوا صادقين أم غير صادقين في توجههم نحو العلم، فإن عليه أن ينفق ما عنده من العلوم، ولو ظهر له من حال بعض طلابه عدم الصدق والإخلاص في توجههم نحو العلم فعليه أن يحاول هدايتهم فعسى أن يكون لجهده أثر إيجابي وانعكاسات تحصل بها الهداية.

10–أن يتدرج في إعطاء المعارف لطلابه فيبدأ للمبتدئين بأوليات العلوم وبعبارة واضحة دون استغراب، ولا يصعد بهم إلى مالا يتأهلون له فيضرهم من حيث

---

(1) أدب الدنيا والدين، ص57 وما بعدها.

يريد نفعهم، وأن يفتح المجال لأسئلتهم، بل يشجعهم عليها حتى يزول الخجل وينمحي التردد.

11-أن يتودد لطلابه بالعبارات الرقيقة وبلين الكلام، فلا يخاطبهم بما فيه جفاء، أو بما يجرح عواطفهم، ويخاطبهم بالكنى والألقاب الطيبة كما كان يفعل الرسول -صلى الله عليه وسلم- بصحابته، ويتفقد غائبهم، ويساعد من ظهرت له مشاكل على حلها، ويعين محتاجهم بما تيسر له، ويكون معهم كالأب مع أولاده، اقتداء بما كان عليه السلف الصالح مع تلاميذهم، فقد ثبت عن عبدالله بن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: "أكرم الناس عليَّ جليسي الذي يتخطى الناس حتى يجلس إليَّ، لو استطعت ألا يقع عليه الذباب لفعلت".

12-أن يوجه تلاميذه ورواده نحو محبة الله ورسوله ومحبة الآخرة والزهد في الدنيا ومتاعها، ويصرفهم عن كثرة التعلق بها والانغماس في أحضانها، ويذكرهم بأنها دار زائلة لا يغتر بها عاقل حتى تصفو نفوسهم للطاعة وتصبح شغلهم الشاغل ومقصدهم الأسمى.

13-أن يقوم بترغيبهم في العلم ويبين لهم فضله وفضل طالبيه وفضل العلماء عند الله سبحانه وتعالى عن طريق ذكر الآيات والأحاديث وأقوال الحكماء في هذا الشأن؛ استمالة لهم حتى تصبح لهم قناعة بتحصيله وبذل الجهد في سبيله.

14-أن يلتمس العذر لهم عند ظهور سوء أدبهم وجفائهم، إذ ظروف الحياة متقلبة ومشاكلها متكاثرة والمنغصات قد تحصل للإنسان فيذهب حلمه من حيث لا يشعر، ومقابلة العالم بالحسنى لمثل ذلك تأتي بنتائج إيجابية أكثر من مقابلتها بالتعنيف والعقوبة، إذ إن كظم الغيظ والعفو عن المسيء عند المقدرة يعتبران من سمات الكمال وصفات خيار الرجال.

15-أن يستعد علمياً لما يريد الحديث فيه وعنه بتخير عناصره وشواهده حتى يكون كلامه مركزاً منضبطاً دقيقاً مقبولاً عند السماع إليه وافيا بالغرض.

16-أن يوجه طلابه إلى الاشتغال بالعلم في كل وقت ويفرض عليهم واجبات ويحاسبهم على تنفيذها فيحسن لمن يقوم بها على أكمل وجه ويكرمه ويثني عليه بما لا يطغيه، ويعنف من يهملها بدون تجاوز مع تكليفه بتلافي ما قصر فيه.

17-أن يعتني بمظهره من حيث اختيار الملابس شكلاً ونظافة، إذ جمال الهيئة يسهم في تقبل كلام صاحبه وتوقيره وجعل هيبة له في نفوس سامعيه وجلاسه.

18-ألا ينزل إلى مستوى طلابه في المزاح معهم ومخالطتهم والمبالغة في التواضع معهم حتى لا تضيع هيبته لديهم.

19-أن يتخلق بأخلاق العلم الذي حذقه بحيث تظهر آثاره على سلوكياته فيعرف بها ويهتدي الناس إليه عن طريقها، فيحصل الانتفاع به دون حاجة إلى السؤال عنه، إذ مظهره يدل على مخبره.

وعدم تخلقه بذلك يعتبر انحرافاً عن السلوك من شأنه أن يكون سبّة على نفسه وعلى المجتمع وضرراً لا يقف عند حد، وقد قيل في منثور الحكم "زلة العالم كالسفينة تغرق، ويغرق معها خلق كثير"[1].

20-أن يكون ذا ورع، لأنه بدون ورع يكون كالسراج يضيء البيت ويحرق نفسه.

هذا ما يظهر لي من آداب العالم وواجباته.

ثانيا: بعد الانتهاء من آداب العالم وواجباته نجمل القول في آداب المتعلم وواجباته فيما يلي:

1-أن يخلص في تعلمه بحيث يبتغي به وجه الله دون أن يشرك معه فيه غيره، ليحصل الامتثال لأمره سبحانه وتعالى له بالتعلم.

---

(1) أدب الدنيا والدين /31، وأدب العالم والمتعلم /65.

2- أن يبدأ بأوليات العلوم قبل غيرها ليحصل التدرج في التحصيل العلمي، وأن يقدم الأهم فالأهم: فحفظ القرآن والتفقه في الدين ومعرفة علوم اللغة العربية والتفسير والحديث قبل غيرها، وتعلم ما تتوقف عليه العبادة مقدم على ما سواه.

3- أن يشغل وقته في التحصيل العلمي دون أن يزاحمه بغيره ما دام في مرحلة التعلم، فلا يصح خلالها أن يلتفت إلى التجارة أو السياسة وما شابه ذلك، وولي أمر الطالب حري بأن ينبهه إلى واجبه العلمي، وألا يفسح له مجال التفلت منه.

4- أن يحرص على ملازمة أساتذته في الوقت المحدد لذلك، لأن التغيب عن الدروس ينشأ عنه جهالة الطالب بما يصعب فهمه عليه منفرداً متى فاته ذلك عنها انقطاعاً كلياً فيعيش مع الجاهلين.

5- أن يستعد للدراسة معنوياً ومادياً ليستعين بذلك على فك الغامض أثناء متابعته لشرح أساتذته وتقييد ما يحتاج إلى تقييد من ملاحظات يراها ضرورية.

6- أن يتواضع للعلم والمعلم لأنه بالتواضع يناله، وقد قيل:

العلم حرب للدعي المتعالي كالسيل حرب للمكان العالي

كما عليه أن يشاور معلمه في أموره ويأتمر بأمره وأن ينقاد له انقياد المريض للطبيب الحاذق، بل عليه أن يتجاوز التواضع إلى التملق لمعلمه لأن التملق للمعلم يظهر مكنون علمه ويبرز ما لديه من مخزون، والتذلل له سبب لإدامة صبره، وبإظهار مكنونه وإبراز مخزونه تكون الفائدة، وباستدامة صبره يكون الإكثار.

ولا يستساغ التملق في غير هذا المجال، لما رواه معاذ بن جبل –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: ((ليس من أخلاق المؤمن الملق إلا في طلب العلم))[1].

قد يقال إن التملق تذلل ومن العيب أن يتذلل المؤمن لغير الله، نقول إن هذا الاستشكال أجاب عنه عبدالله بن عباس --رضي الله عنهما– بقوله: "ذُلِلتُ طالباً فعزّزت مطلوباً" ووافقه في هذ ما ورد عن أحد الشعراء:

ومن لم يذق ذل التعلم ساعة تجرع كأس الذل طول حياته

ومن حكم الفرس قول أحدهم "إذا قعدت وأنت صغير حيث تحب، قعدت وأنت كبير حيث لا تحب"[2].

7- أن يأخذ العلم عن علماء أخذوه بالتلقي عن علماء متخصصين لا عن طريق الوجادة من الكتب متى كان غير مؤهل أن يأخذ منها مباشرة، لأن ذلك يورثه الوقوع في التصحيف والغلط والتحريف، فالعلوم لها قواعدها، وأسسها قد لا تنال بأخذها من الكتب مباشرة.

ولذا قيل: لا تأخذ القرآن عن المصحفي ولا العلم عن الصحفي

8- أن ينظر المتعلم إلى معلمه نظرة احترام وتقدير، وأن يعتقد كمال أهليته ورجحانه على من سواه من طبقته فيما يتلقاه عليه من العلوم، وأن يتحرى رضاه ويرد العيبة عنه إذا سمعها، ولا يفشي له سراً، لأن ذلك أدعى إلى انتفاعه به ورسوخ ما سمعه منه في ذهنه، وأن يدعو له كلما ذكر، قديما كان من السلف الصالح من يتصدق قبل أن يأتي إلى معلمه ويقول "اللهم استر عيب معلمي عني ولا تذهب بركة علمه مني".

---

(1) تخريج أحاديث إحياء علوم الدين، 160/1، وورد في شعب الإيمان للبيهقي بلفظ: "لا حسد ولا ملق إلا في العلم أو في طلب العلم" 224/4. ووصف في كل بالضعف.

(2) أدب الدنيا والدين /53–54.

لكننا نجد في هذا الزمان ممن اندسوا وسط طلاب العلـــم- والعلـــم مـــنهم براء- يأتي الواحد منهم للمدرسة او الكلية بسكّينة عاقداً العزم على إسالة دم معلمه أو تحطيم سيارته أو كتابة العبارات السيئة على المقعد الذي يجلس عليه معلمه، بل وصل به الأمر إلى إزهاق روح المعلم لا لتقصير أو إساءة من المعلم للطالـــب، وإنما لرسوبه أو لضعف درجته عند ذلك المعلم، ويجري ذلك في مختلف المدارس والمعاهد والجامعات ويكون علاجه: الطلب من المعلم أن يصفح وأن يسامح.

9- أن يحرص الطالب على القرب من معلمه حتى يسمع ما يقولـــه بوضـــوح ويفهم كلامه فهماً كاملاً صحيحاً.

10- أن ينبه معلمه إذا غفل عن شيء بلطف وأدب وخفض صوت دون إشعاره بأنه مخطئ، أو أنه يفوقه في الفهم والتحصيل.

11- أن يتحين الفرص المواتية لاقتناص المعارف، فربما يشح الزمان بما سمح ويَضِنّ بما منح فتضيع الفرص.

12- من أدب المتعلم أن يسأل معلمه بلطف وبعبارة لا تعنت فيهـــا ولا تعـــالي يعتريها، وكثرة السؤال منه في موضع يلتبس عليه أمره لا يعتبر عيباً حتى يفهم ما استعصى عليه فهمه.

13- من أدب المتعلم إذا قرب منه العلم ألا يطلب ما بَعُد، وإذا سهل من وجه فلا يطلب ما صعب، وإذا حمد من خبر فلا يطلب من لم يَخْتَبرْ، لأن العـــدول عن القريب إلى البعيد عناء، وترك الأسهل بالأصعب بلاء، والانتقال مـــن المخبور إلى غيره خطر، يقول على بن أبي طالـــب -كـــرم الله وجهـــه- "عُقْبىَ الأخرق[1] مضرة، والمتعسف لا تدوم له مسرة"[2].

---

(1)لأخرق الأحمق أو من لا يحسن الصنيعة، ترتيب القاموس مادة خَرَقَ.

(2)أدب الدنيا والدين /57، وأدب العالم والمتعلم /73 وما بعدها

وقال بعض الحكماء: "القصد أسهل من التعسف، والكف أودع من التكلف، وربما تتبع نفس الإنسان من بَعُد عنه استهانة بمن قرب منه، وطلب ما صعب احتقاراً لما سهل عليه، وانتقل إلى من لم يخبره مللا لمن خبره، فلا يدرك محبوباً، ولا يظفر بطائل، وقد قالت العرب في أمثالها: "العالم كالكعبة يأتيها البعداء ويزهد فيها القرباء"[1].

(1)المرجع السابق.

المطلب الثالث: آداب المفتي والمستفتي؟؟؟

الحديث عن آداب المفتي والمستفتي نجمله فيما يلي:

أولا: آداب المفتي:

إن المفتي يصدق عليه ما ذكرناه من الآداب التي تتعلق بالعالم، لكن من الضرورة إضافة بعض الآداب التي تخصه باعتباره مفتياً، وذلك لأن الفتوى منزلتها عظيمة ودرجتها رفيعة وخطرها شديد، إذ المفتي مُبلغ عن الله كما قيل، وهو كما قال ابن المنكدر – بين الله وخلقه فلينظر كيف يدخل بينهما.

ولخطورة الفتوى وردت تهيبّات واحتياطات وتحذيرات كثيرة عن السلف والخلف لمن ينتصب لها، ومنها:

1- ثبت عن عبدالرحمن بن أبي ليلى أنه قال: "أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يُسأل أحدهم عن المسألة فيردها إلى هذا، وهذا إلى هذا حتى ترجع إلى الأول[1].

2- ثبت عن ابن مسعود وابن عباس –رضي الله عنهما– أنهما قالا:"من أفتى عن ما لم يُسأل عنه فهو مجنون"[2].

3- ورد عن عطاء بن السائب التابعي أنه قال: "أدركت قوماً يُسأل أحدهم عن شيء فيتكلم وهو يَرْعَد"[3].

4- روي عن ابن عباس ومحمد بن عجلان أنهما قالا: "إذا أغفل العالم لا أدري أصيبت مقاتله"[4].

5- ثبت عن سفيان بن عيينة وسحنون قولهما: "أجسر الناس على الفتيا أقلهم علماً".

---

(1) سبق تخريجه.

(2) الآدب الشرعية – لابن مفلح المقدسي 218/2.

(3) المرجع السابق.

(4) سبق خريجه.

6-قال الهيثم بن جميل: "شهدت مالكاً سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها لا أدري"[1].

وقيل في حقه أيضاً ربما سئل عن خمسين مسألة فلم يجب عن واحدة منها[2].

كما قيل:

فكم بلا أدري أجاب المصطفى حتى أتى الوحي وإلا وقفا

ولذا لابد أن يكون المفتي ظاهر الورع مشهوراً بالديانة الظاهرة والصيانة الباهرة، وأن يكون عاقلاً بالغاً، ثقة، مأموناً، فقيه النفس، سليم الذهن، صحيح التصرف، ذا قدرة على الاستنباط، وليس من شرطه الحرية والذكورة وسلامة الأعضاء فيجوز أن يكون المفتي أنثى أو أعمى أو أخرس إذا فهمت إشارته.

ويجب وجوباً عينياً على من امتلك القدرة على الإفتاء أن يجيب عن أسئلة السائلين إذا لم يوجد غيره ممتلكاً للقدرة عليها، فإن وجد غيره كانت إجابة السائلين عن أي منهم واجبة على الكفاية، إذا قام بها واحد سقط وجوبها عن غيره.

وعلى من أكرمه الله بالعلم ألا يتساهل في الفتوى كأن يتتبع الرخص التي لا يملك عليها دليلاً أو ما شذ من أقوال العلماء أو يسارع إلى الإجابة دون التثبت من فهم السؤال فهماً جيداً أو قبل استكمال صاحبه له، فللحاكم منع استمرار من ثبت عنه ذلك في الفتوى.

وللمفتي آداب تجب مراعاتها، من أهمها:

1-أن يكون جوابه واضحاً مزيلاً للإشكال عن السائل، يستوي أن يكون مكتوباً أو شفاها، لكنه يتقيد في إجابته بما ورد في السؤال صراحة.

---

(1) سبق تخريجه.

(2) ينظر: آداب العالم والمتعلم لشاهين /81 وما بعدها للفقار السابقة من رقم 6/1.

2- أن يكون رفيقاً بالسائل في تفهيمه، وعليه أن يصبر على مراجعته حيث عسر عليه الفهم حتى يُبلغه مقصوده في الفهم.

3- أن تكون الإجابة عن السؤال المكتوب بعد قراءته قراءة كاملة متأنية حيث من الممكن أن يكون وضوح السؤال مع آخر كلمة في ما هو مكتوب.

4- أن يطمئن إلى صحة فتواه بقراءتها أو عرضها على من يأنس فيهم الفهم الجيد من طلابه وجلسائه ولو كانوا دونه في العلم استرشاداً بهم واستنارة بما قد يظهر لهم من ملاحظات عليها.

5- أن يكون تدوينه للإجابة بخط واضح لا خفاء فيه ولا لبس، وبعبارة يسهل فهم المراد منها على القارئ، ولا يترك فراغات في السطور، وإذا أضاف كلمة أو شطبها يجب التنبيه عليها بخطه وتوقيعه.

6- يجب أن يكون الجواب في ورقة واحدة بقدر الإمكان، لأن عدم استكمال الجواب فيها يستدعي إضافة ورقة أخرى قد يحصل تزوير جراء تعدد الورق، فإن كان ولابد فعليه أن يعيد في أول السطر الأول من الورقة الثانية أخر جملة كتبها في السطر الأخير من الورقة الأولى.

7- إذا ظهر من المستفتي عدم الرضا بالفتوى كتابة فللمفتي إفهامه الجواب شفاهة دون الميل عن الحق لصالح المستفتي أو خصمه ودون مجاملة للسائل أو غيره، فالحق أحق أن يتبع.

8- يجوز للمفتي أن يجيب بما فيه تغليظ على المستفتي في مسألة تقبل الترخيص إن ظهرت له مصلحة في هذا التغليظ.

9- إذا تزاحمت استفتاءات المستفتين يجب على المفتي أن يجيب عنها مرتبة الأسبق فالأسبق، فإن تساوت أقرع بينهم.

10- يجوز للمفتي إذا قدمت له فتوى ورأيه يتفق معها أن يكتب عليها ما يدل على موافقته لها مع التوقيع عليها.

11-قد تكون عبارة السائل المكتوبة غير واضحة وتحتمل عدداً من المعاني فيجوز عندئذ للمفتي أن يتوقف بأن لا يجيب عنها ويكتب ملاحظة عليها بما يفيد عدم وضوحها.

12-لا يجوز للمفتي أن يفتي إذا كان في حالة نفسية أو جسدية غير مريحة كإصابته بحالة غضب أو جوع أو عطش أو حزن أو فرح شديد غالب أو ملل أو حر شديد، لأن ذلك من شأنه أن يؤثر على فتواه[1].

ثانياً: للمستفتي آداب أهمها ما يلي:

1-أن يتأدب ويتلطف مع المفتي في عبارته ووقفته أو جلسته ويتخير الأوقات المناسبة.

2-أن يقوم بتقديم سؤاله بنفسه، وله أن ينيب غيره إن كان ثقة جيد الفهم، وحينئذ يعتمد جواب المفتي إن كان يعرف خطه أو كان مختوماً بخمه.

غير أنني أرى ضرورة السؤال من صاحب المسألة شخصياً في الأيمان والطلاق لاحتمال حصول أي تغيير في العبارة يتغير معه المعنى إن كان السؤال شفويا.

3-إذا تكررت حادثة السؤال للشخص نفسه فهل يعتمد الجواب الأول دون تكرار الاستفتاء منه وهو رأي فقهي؟ أو يعيد الاستفتاء مرة أخرى لاحتمال تغير الاجتهاد في المسألة عند المفتي، وهو رأى للفقهاء أيضاً، ونؤكد على الثاني.

4-عملاً بقول الله تعالى ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء:7] يجب على كل مسلم إذا حصل له في دينه ما يستوجب السؤال أن يسأل أهل

---

(1) آداب العالم والمتعلم لشاهين، ص92.

المعرفة بموضوعه دون تسويف أو خجل ولـــو أدى الأمـــر إلـــى التنقـــل لمسافات بعيدة من أجل معرفة الحكم الشرعي فيما يخصه.

5-من الواجب على المسلم أن يستفتي من هو أهل للفتيا فإن لم يعـــرف أحـــداً سأل أهل الدراية، ولا يجوز له الاكتفاء بسؤال أي شخص ولـــو منتصـــباً للفتوى إن لم يشتهر أمره بها، لأن كثيراً من الناس في هذا الزمان صارت لهم جرأة على شرع الله يفتون وهم جهال بما أفتوا به.

6-للعامي أن يستفتي عما يحصل له، فإن كان المفتي واحداً التزم ما أفتاه بـــه وإن تعددوا فله أن يسأل عدداً منهم، وله أن يعمل بجواب من سكنت إليـــه نفسه واستراح له عند الاختلاف متى تأكدت أهليتهم عنده لذلك[1].

ودين الله يسر

والله أعلم

(1) ينظر: آداب العالم والمتعلم، ص103 وما بعدها.

المطلب الرابع: حق العلم والعلماء وطلاب العلم على المجتمع ووجوب العمل بالعلم

إن المجتمع هو الذي يجني ثمار العلم ويسعد بتواجده فيه وتتوفر له مطالبه واحتياجاته بسببه، فحري به أن يقدر ذلك للعلم وحامليه وطلابه، اعترافاً منه بقيمته والإنعامات التي تحصل له عن طريقه، ويمكنني أن أوجز ما أراه حقاً على المجتمع لحاملي لواء العلم سواء كانوا معطين أو آخذين:

1- تعظيم العلماء وطلاب العلم وتكريمهم بالقول والعمل ولذا قيل:

إن المعلم والطبيب كليهما لا ينصحان إذا هما لم يُكرما

فاصبر لدائك إن أهنت طبيبه وأصبر لجهلك إن جفوت معلما

وقال سيدنا علي –رضي الله عنه– "لا يعرف فضل أهل العلم إلا أهل الفضل"[1].

2- اعتبارهم من شرائح المجتمع التي لها حق الأسبقية والتفضيل في المواقع والحالات التي تتطلب ذلك.

3- الاعتناء بأحوالهم المعيشية والرقي بمستواهم فيها حتى لا ينشغلوا عن واجبهم بالجري وراءها.

4- توفير مكاتب للعلماء والمدرسين، وبخاصة في المراحل الجامعية التي تتطلب تواجد الأساتذة في أوقات مختلفة غير أوقات المحاضرات للتمكن من مراجعة الطلاب لهم والاستفادة منهم استفادة كافية.

5- توفير ضروريات الحياة في المرافق والمؤسسات التعليمية، ومن أهمها النظافة وتوفير ماء الشرب ودورات المياه بقدر كافٍ.

---

(1) أدب الدنيا والدين /54.

6- الاهتمام بدور العلم مظهراً ومخبراً بما يفوق أو يماثل اعتناء المسؤولين في الإدارات الحكومية الأخرى بمكاتبهم وإداراتهم ومساكنهم الخاصة.

7- توفير الجو الملائم للتحصيل العلمي دون إدخال عوامل التشويش إلى المؤسسات العلمية حتى يتفرغ العلماء وطلاب العلم لواجبهم دون منغصات أو مؤثرات ضارة.

8- توفير ما يتطلبه البحث العلمي من الوسائل التعليمية والكتب المرجعية والدراسية والأجهزة الإلكترونية في الوقت المناسب.

9- التسيب الإداري في دور العلم سلاح مدمرٌ يطمس نور العلم ويخلق أجيالاً ضررها على المجتمع والبلاد أخطر من ضرر الجرائم وأسلحة الحروب الفتاكة.

10- العناية بالمرافق الكمالية بعد الضرورية في المؤسسات العلمية والتعليمية من شأنه أن يخلق جاذبية للعلماء وطلاب العلم تجاه تلك المؤسسات وذلك مثل الرحلات العلمية والترفيهية والميادين الرياضية والحدائق ذات الأشجار والأزهار والرياحين.

11- حماية المؤسسات العلمية والتعليمية من المتطفلين العابثين الذين كثيراً ما يقتحمونها باعتبارها أماكن ترفيهية لهم يقتنصون فيها ومنها ضعاف وضعيفات العقول، وأقل درجة في الإساءة حصول التشويش منهم على طلاب العلم وخلق جو غير ملائم للعلم والتعلم.

12- اعتبار الزمن المخصص للدراسة زمناً مقدساً لا يجوز إهداره بالتساهل في تضييعه والتغافل عمن يهدرونه دون عقاب عاجل.

13- الاستفادة مما يوجد في دور العلم في الدول المتقدمة بتوفيرها في مؤسساتنا العلمية والتعليمية.

14-على المجتمع أن يكون مقتدياً بعلمائه في رقي أخلاقهم، متشبهاً بهم في جميع أفعالهم ليصير لهم آلفاً وعليها ناشئاً ولما خالفها مجانباً، فقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- "خيار شبانكم المتشبهون بشيوخكم، وشرار شيوخكم المتشبهون بشبانكم"[1] كما روى ابن عمر عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: "من تشبه بقوم فهو منهم"[2].

(1) أدب الدنيا والدين، الماوردي، 76. وقد بحثت عنه فيما توفر لي من مصادر فلم أعثر عليه في غير الكتاب المذكور.

(2) سنن أبي داوود 78/4 حديث رقم 4033.

وجوب العمل بالعلم والتغليظ عمن أهدر العمل بما علم

طلب العلم فريضة على كل مسلم، كما أن العمل بما علم فريضة أيضاً، لوجود النصوص الشرعية الدالة على ذلك.

فقد صح عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: ((طلب العلم فريضة على كل مسلم))[1]، ولقول الله تعالى: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: 105].

- وكذلك ورد عن معاذ بن جبل –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: ((لا تزول قدما عبد من بين يدي الله –عز وجل– حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن جسده فيما أبلاه، وعن علمه ما عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه))[2].
- وقد ورد عن أبي الدرداء–رضي الله عنه– قوله: "إنك لن تكون عالماً حتى تكون متعلماً ولن تكون عالماً حتى تكون بما علمت عاملاً"[3].

غير أن تعلم العلوم لا يكون مقصوداً لذاته، بل المقصد الأول والأخير هو العمل به، فمن علم ولم يعمل كان حسابه عسيراً وعاقبته وخيمة؛ لما ورد من الأحاديث النبوية والآثار السلفية من التغليظ على تارك العمل به وعقاب من وقف عند العلم وأهمل العمل، ويتضح ذلك من الأحاديث النبوية الآتية، وآثار السلف البينة.

فمن الأحاديث النبوية ما يلي:

1–روى أبو تميمة الجهني عن جندب أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال:

---

(1) سبق تخريجه.

(2) البحر الزخام مسند البزار –405/1– حديث رقم 2640.

(3) المدخل إلى السنن الكسرة – البيهقي – تحقيق محمد ضياء الرحمن الأعظمي دار الخلفاء للكتاب الإسلامي– 1414هـ–135.

((مثل العالم الذي يعلم الناس الخير ونسي نفسه كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه))[1].

2- عن أسامة بن زيد -رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه في النار فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه فيقولون أي فلاناً ما شأنك، أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه))[2].

3- عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((أول الناس يقضى يوم القيامة عليه ثلاث: رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت ولكن قاتلت لأن يقال فلان جريء وقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت ولكن تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال قارئ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال: ما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال: كذبت ولكن فعلت كي يقال جواد فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار))[3].

---

(1) المعجم الكبير – الطبراني -165/2- حديث رقم 1682.

(2) صحيح البخاري بشرح فتح الباري -106/20- حديث رقم 6569، مسند الإمام أحمد -117/36- حديث رقم 21784.

(3) سنن النسائي -447/6- حديث رقم 11559.

ومن آثار السلف:

1-ورد عن أبي بن كعب-رضي الله عنه- قال: "تعلموا العلم وأعملوا به ولا تتعلموه لتتجملوا به، فإنه يوشك إن طال بكم زمان أن يتجمل بالعلم كما يتجمل الرجل بثوبه"[1].

2-أن معاذ بن يحيى الرازي كان يقول: "مسكين من كان علمه حجيجهُ، ولسانه خصيمه، وفهمه القاطع يغدره، وقيل لبعضهم: ألا تطلب العلم؟ فقال: خصومي من العلم كثير فلا أزداد"[2].

3-كان سفيان الثوري يقول: "ليتني لم أكتب العلم، وليتني أنجو من علمي كَفافاً لا علي ولا لي"[3].

4-عن مالك بن دينار قال: إني وجدت في بعض الحكمة: "لا خير لك أن تعلم ما لم تعلم ولم تعمل بما قد علمت، فإن مثل ذلك مثل رجل احتطب حطباً فحزم حُزمةً ذهب بحملها فعجز عنها فضم إليها أخرى"[4].

5-وورد في الحكم أن: من حجب الله عنه العلم عذبه على الجهل وأشد منه عذاباً من أقبل عليه فأدبر عنه ومن أهدى الله إليه علماً فلم يعمل به"[5].

---

(1) جامع بيان العلم وفصله وابن عبدالبر -14/2.

(2) اقتضاء العلم العمل – الخطيب البغدادي -53.

(3) المرجع السابق -55.

(4) المرجع السابق -57.

(5) جامع بيان العلم وفضله – ابن عبد البر- 11/2.

المبحث الثالث: كتابــة العلم وآفاتــه

وهو يشتمل على تمهيد ومطلبين:

تمهيد:

الكتابة والخط:

الدلالة اللغوية إما أن تكون نطقاً أو كتابة أو إشــارة، والنطــق أوضــحها وأدلها وأكثرها استعمالا، والكتابة تالية لذلك، وهي ذات أهمية عظيمــة؛ لأن بهــا يتميز الإنسان عن الحيوان[1] ويُعبر عما في نفسه من أحاسيس وآمال وتطلعــات، وتنتقل بها العلوم والمعارف من بلد إلى بلد، ومن عصر إلى آخر، وهي لا تحصل إلا بالتعلم.

وقد بلغت الكتابة عند العرب مبلغاً عظيماً من الجودة والإتقان عند التبابعة الذين ازدهرت حضارتهم ودولتهم باليمن، ومنها انتقلت إلى الحيرة، حيث نقلــت عن طريق سفيان بن أمية إلى الحجاز[2].

ولما كانت الكتابة صنعة من الصنائع التي عادة ما يعظم شأنها في الحضر على عكس ما تكون عليه في البدو فإن الخط العربي في فجر الإسلام كان قليــل الجودة والاتقان؛ لما كان عليه عرب الحجاز وقت ذاك من البداوة وبعــدهم عــن التحضر والصنائع، وعدم جودته لا يخل بمكانة المسلمين في أول أمرهم، لأنه لا يعود نقصه على الذات في الدين ولا في الخلال، بل يرجع إلى أســباب المعــاش وازدهار العمران والتعاون عليه.

وعندما دخل الإسلام أمصاراً عظيمة مثل البصرة والكوفة وبغداد والأندلس والقاهرة وبلاد المغرب العربي فإن الخط ازدان وحصل التأنق فيه، وبلــغ ذروة

---

(1) المقدمة لابن خلدون، ص375– ط دار الشعب.

(2) المرجع السابق، ص376.

الجمال والإتقان والجودة، وصار له معلمون يرسمون للمتعلم الحروف بقوانين في وضعها وأشكالها متعارفة بينهم، الأمر الذي شجع على كتابة الكتب ونسخها وتجليدها وامتلاء القصور والمكتبات العامة والخاصة بها، وظل الأمر كذلك حتى انفرط عقد الخلافة في بغداد وضاع ملك المسلمين في الأندلس، فتبع ذلك هبوط للخط العربي وركود أمره واندراس لرسومه، وجُهل فيه وجه التعليم بفساد الحضارة وتفكك العمران.

وتبعاً لذلك صارت المخطوطات قليلة الجدوى تصعب الاستفادة منها لكثرة ما يقع فيها من أخطاء وانحراف للخط عن مساره الصحيح بدرجات متفاوتة بين الأمصار؛ لأن الخط عوض الكلام الذي يحصل به البيان عما في النفس من المعاني فإذا لم يكن الخط واضحا فإن ما في النفس لا يكون واضحاً أيضاً.

ونلاحظ أن بعض الخطوط وإن جمل ظاهرها فإن قراءتها تصعب على غير أصحابها العارفين لها، ولذا تكون غير مقبولة، ولا يجوز التعامل بها لما فيها من عسر وانبهام لمحتواها، وبعض الكاتبين في هذا الزمان يخرجون بالحروف عن مسارها الطبيعي وتكوينها الذي عُرفت به فيسببون إحراجاً لمن تكون له حاجة في قراءتها واستخراج معانيها.

وقد تضيع الفائدة منها أو يحصل انحراف في الفهم نتيجة الاعتماد على التخمين في التعرف عليها، ويكثر هذا لدى طلاب المدارس والجامعات في زماننا هذا، مما يجعلنا ندعوا إلى ضرورة تعليم الخط في سنوات الدراسة الأولى بشكل جاد.

والمتتبع لنصوص القرآن والسنة النبوية يجد فيها ما يرشد إلى العناية بالكتابة والخط، حيث نزلت على سيدنا محمد –صلى الله عليه وسلم– فيها الأمر بالكتابة، وفيها التنويه بالتعليم وأدواته بالتصريح الذي ينفي أي شبهة، حيث قال جلت حكمته ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ۞ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ

الأَكْرَمُ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: 1-4] كما قال أيضاً ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم:1] فإن تسطير القلم يقتضي أداة تتم عليها الكتابة ويداً تكتب وشخصاً يعرف ما يكتب؛ فتكون هذه الأمور كلها مجتمعة مسخرة لحفظ العلوم وانتقالها للحاضرين ولمن سيأتي بعدهم.

ويكفي إشادة بأمر الكتابة أن سورة من القرآن تحمل اسم القلم.

وقد ذكر بعض المفسرين عند تعرضهم لتفسير قول الله تعالى: ﴿ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ [الأحقاف: 4]: أن المراد من الأثارة "الخط" وهو مروي عن ابن عباس وابن خويزمنداد، وأسند إلى الإمام مالك أنه يحكم بالخط إذا عرف الشاهد خطه[1].

ثم إن الرسول -صلى الله عليه وسلم- أذن لأسرى بدر المكيين بأن يفدي كل كاتب منهم نفسه بتعليم عشرة من صبيان المدينة الكتابة والقراءة، كما أنه أكثر من كتَّاب الوحي حتى بلغ عددهم أربعين كاتباً، بالإضافة إلى تخصص كتّاب للصدقة وكتّاب للمداينات والمعاملات، وكتّاب للرسائل يكتبون باللغات المختلفة.

وقد كان للتشجيع على تعلم الكتابة وتقدير من تعلموها أثر في تدوين القرآن الكريم أثناء نزوله وبعده، وكتابة الوثائق والمعاهدات والكتب إلى الولاة والدول المجاورة، وتدوين بعض من صحف الحديث الشريف، علي يد من كان يجُيد الكتابة مثل: عبدالله بن عمرو بن العاص، حيث عرفت عنه الصحيفة الصادقة التي كتبها مباشرة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وقد اشتملت على ألف حديث[2]، كما كُتب في عهده -صلى الله عليه وسلم- في السنة الأولى للهجرة الصحيفة التي أثبتت فيها حقوق المهاجرين والأنصار واليهود وعرب المدينة، وكانت بمثابة الدستور الذي يحفظ حقوق مواطني الدولة.

---

(1) تفسير القرطبي 181/16.

(2) علوم الحديث ومصطلحه، د. صبحي الصالح /27.

وفضل تعلم القراءة والكتابة لا يقف عند حد، والأمة التـــي اعتنـــت بهـــا استطاعت أن تُخَلد أمجادها وتراثها وأن تسجل تاريخها بما يحويه من تقدم ورفعه وعظات وعبر.

وبالانتهاء من هذا التمهيد نخلص إلى ذكر المطلبين:

المطلب الأول: كتابة العلم:

في أول بعثة النبي –صلى الله عليه وسلم– كان الكتاب يكتبون له ما يمليه عليهم من رسائل ومكاتبات للملوك وغيرهم، يدعونهم فيها إلى الإسلام وإلى ما يرى أن يكتب لهم فيها مما يتعلق برسالته إلى الناس كافة، وقد استأذن الكتبة منه أن يأذن لهم في كتابة ما صدر عنه من أقوال أو ما يشاهدونه منه من أفعال فنهاهم عن فعل ذلك، فقد ورد عن أبي سعيد الخذري –رضي الله عنه– أنه قال: "أستأذنّا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في الكتابة فلم يأذن لنا"[1]، وروي عن أبي سعيد الخذري –أيضاً– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: ((لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن فمن كتب عني غير القرآن فليمحه))، وقال: ((حدثوا عني ولا تكذبوا ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار))[2].

وعن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: خرج علينا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ونحن نكتب الأحاديث فقال: ((ما هذا الذي تكتبون؟)) قلنا: أحاديث سمعناها منك، قال: ((أَكِتَاباً غير كتاب الله تريدون؟ ما أضل الأمم من قبلكم إلا ما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله)) قال أبو هريرة: أنتحدث عنك يا رسول الله؟ قال: ((نعم تحدثوا عني ولا حرج فمن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار))[3].

والصحابة –رضوان الله عليهم– كانوا يمتثلون ذلك، فقد ثبت أن زيد بن ثابت دخل على معاوية فسأله عن حديث فأمر إنساناً يكتبه فقال له زيد " إن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أمرنا ألا نكتب شيئاً من حديثه" فأمر معاوية الكاتب أن يمحو ما كتبه فمحاه"[4].

---

(1) الجامع الصحيح سنن الترمذي – باب ما جاء في كراهة كتابة العلم 38/5 حديث رقم 2665.

(2) مسند الإمام أحمد –94/18–11536، المستدرك للحاكم –216/1– حديث رقم 10076.

(3) أطراف المسند المعتلي بأطراف المسند الحنبلي – ابن حجر العسقلاني 419/7 حديث رقم 10076.

(4) شرح سنن أبي داوود – لعبد المحسن العباد –262/19.

وقد نهج الصحابة الكرام في حياتهم نفس المنهج، حيث بقوا يعتمدون على الحفظ في الصدور دون أن يكتبوها أو يأذنوا بكتابتها في السطور، يرشد إلى ذلك ما روي عن أبي نضرة قال: قلنا لأبي سعيد إنك تحدثنا بأحاديث مُعْجِبة وإنا نخاف أن نزيد أو ننقص فلو كتبناها، قال: لن تكتبوه ولن تجعلوه قرآنا، ولكن احفظوا عنا كما حفظنا، ثم قال مرة أخرى: خذوا عنا كما أخذنا عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم–"[1]

- وبمثل النهي عن كتابة الأحاديث عن الصحابة ورد النهي عن التابعين عنها، ومن ذلك:

1–ما روي أن عُبيد الله بن عبدالله بن عمر دخل على عمر بن عبد العزيز فأجلس قوماً يكتبون ما يقول فلما أراد أن يقوم قال له عمر: صنعنا شيئاً، قال: وما هو يا ابن عبد العزيز؟ قال: كتبنا ما قلت قال: وأين هو؟ قال: فجيء به فخرق"[2].

2–عن المنذر بن نافع قال سمعت إدريس بن أبي إدريس يقول: قال لي أبي اتكتب شيئاً مما تسمع مني؟ فقلت: نعم: قال: فأتني به، قال: فأتيته به فخرقه"[3].

3–عن حميد أن بكر بن عبدالله بعث إلى أبي العالية أن يكتب له حديثاً، فقال: فجاء أبو العالية فقال مرحباً بك، فقال: لو كنت أكتب لأحدٍ لكتبته لك فحدثهُ حتى حفظه"[4].

---

(1) المستدرك للحاكم –651/3 حديث رقم 6393، كما رواه الدارمي في سننه مع شيء من الاختلاف 59/1 حديث رقم 487.

(2) تقييد العلم – الخطيب البغدادي – دار إحياء السنة –ط2–1974–45.

(3) نفس المصدر –46.

(4) نفس المصدر –47.

دواعي النهي عن الكتابة

نهى النبي –صلى الله عليه وسلم– والصحابة الكرام والتابعون لهم بإحسان عن كتابة الحديث – وقد ذكرت ذلك قب ل قليل، ثم ما ورد من النهي عن كتابة غيره من العلوم المختلفة كل ذلك كان لأسباب تتضح مما يلي:

1– "ثبت أن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– أراد أن يكتب السنن فاستشار في ذلك أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فأشاروا عليه أن يكتبها فظل عمر يستخير الله شهراً ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال: إني كنت أردت أن أكتب السنن وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله تعالى، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبداً"[1].

2–ورد عن ابن فضيل عن حصين بن عبد الرحمن عن مرة قال: "بينما نحن عند عبد الله بن مسعود إذ جاء ابن قرة بكتاب قال وجدته بالشام فأعجبني فجئت به، قال: فنظر فيه عبدالله ثم قال: إنما هلك من كان قبلكم باتباعهم الكتب وتركهم كتابهم قال ثم دعا بطست فيه ماء فماثه[2] فيه ثم محاه"[3].

يتضح من الأثرين السابقين أن سبب نهي من نهى عن كتابة الحديث وغيره من العلوم يرجع إلى الخوف من أن يضاهى بكتاب الله غيره أو يشتغل عن القرآن بسواه، والنهي عن الكتب القديمة لعدم معرفة حقها من باطلها وصحيحها من فاسدها والقرآن يغنينا عنها، ثم إن النهي عن كتب العلم في صدر الإسلام كان للخوف من الأعراب الذين دخلوا في الإسلام حديثاً فلم يفقهوا في الدين ولم يجالسوا العلماء العارفين وليس لهم تمييز بين القرآن وغيره فيختلط الأمر عليهم،

---

(1) تقييد العلم – الخطيب البغدادي –49.

(2) امتاث الأقط مرسه في الماء وشربه– ترتيب القاموس – الطاهر الزاوي – مادة (م ي ث).

(3) المصدر السابق – 53 – جامع بيان العلم وفضله مع شيء من الاختلاف –35/1.

فيلتبس بالقرآن ما قد يجدونه من الصحف، ويعتقدون أن ما اشتملت عليه هو من كلام الرحمن[1].

- يضاف إلى ذلك أن الكتابة قد يتكل عليها من كتبوها وغيرهم فيتركون الحفظ، فقد ورد عن سفيان الثوري أنه قال: بئس مستودع العلم القراطيس، وكما قال الشاعر:

استودع العلم قرطاساً فضيعه وبئس مستودع العلم القراطيسُ

وينسب إلى منصور الفقيه قوله:

علمي معي حيث ما يممت أحمله بطني وعاءٌ له لا بطن صندوق

إن كنت في البيت كان العلم فيه معي أو كنت في السوق كان العلم في السوق[2]

كما قال أبو العتاهية: "من منح الحفظ وعى، ومن ضيع الحفظ وهم"[3].

- على أن هناك من السلف من كان يكتب ما يرى كتابته حتى يحفظه فإذا حفظه محاه، فقد ثبت "أن (مسروقا) قال لعلقمة: اكتب لي النظاير قال – علقمة–: أما علمت أن الكتاب تكره؟ قال –مسروق– إنما أنظر فيه ثم أمحوه، قال –علقمة–: فلا بأس"[4]، وكان هذا الأسلوب متبعاً لدى الكثير من السلف[5].

- ترك الكتابة والنهي عنها كان محل ندم عند بعض التابعين حين كبر ودخل عليه شيء من النسيان، ومن أولئك إبراهيم النخعي فقد دخل على حفظه شيء لتركه الكتاب[6].

---

(1) ينظر تقييد العلم الخطيب البغدادي –58.

(2) جامع بيان العلم وفضله – ابن عبدالبر –140/1.

(3) نفس المرجع 139/1.

(4) تقييد العلم – الخطيب البغدادي –58، 59.

(5) ينظر المرجع السابق –58، 59.

(6) جامع بيان العلم وفضله 141/1.

الإذن بالكتابة

النهي عن الكتابة في عهد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– الأول لم يكن خاصاً بالأحاديث، بل كان النهي عن كتابة بقية العلوم الأخرى أيضاً، ثم عند حصول الاطمئنان إلى تمييز الصحابة الكرام لأسلوب القرآن واختلافه عن أسلوب غيره، حصل الإذن من رسول الله بالكتابة في مختلف العلوم، ومن ذلك الحديث الشريف، يدل على ذلك ما رواه عبدالله بن عمرو –رضي الله عنهما– حيث قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أريد حفظه فنهتني قريش وقالوا: أتكتب كل شيء تسمعه ورسول الله –صلى الله عليه وسلم– بشر يتكلم في الغضب والرضا فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– فأومأ بأصبُعه إلى فيه فقال: ((أكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق))[1].

كما ثبت عنه –عليه الصلاة والسلام– أنه أذن بأن يكتب لأبي شاهٍ حين طلب ذلك، فقد ورد عن أبي هريرة –رضي الله عنه– أنه قال: لما فتح الله –عز وجل– على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– مكة قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنها لن تحل لأحد كان قبلي وإنها أحلت لي ساعة من نهار وإنها لن تحل لأحد بعدي فلا يُنْفَر صيدها ولا يختلى شوكها ولا تحل ساقطتها إلا لمنشد، ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين إما أن يفدي وإما أن يقتل" فقال ابن عباس: إلا الإذخر يا رسول الله فإنَّا نجعله في قبورنا وبيوتنا، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: "إلا الإذخر" فقال أبو شاه – وهو رجل من اليمن– اكتبوا لي يا رسول الله، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: "أكتبوا لأبي شاه"، قال الوليد: فقلت

(1) سنن أبي داوود 356/3– حديث رقم 3648.

للأوزاعي: ما قول –الأعرابي "أكتبوا لي يا رسول الله، قال: يقصد – هذه الخطبة التي سمعها من رسول الله –صلى الله عليه وسلم–[1].

كما يدل على أن الكتابة للعلوم محل إذن القرآن الكريم، ومن ذلك قول الله تعالى في شأن الدَّين: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ ثم في نفس الآية قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُوا﴾ [البقرة: 286] "فكما أمر الله تعالى بكتابة الدين حفظاً له واحتياطاً عليه وإشفاقاً من دخول الريب فيه كان العلم الذي حفظه أصعب من حفظ الدين أحرى أن تباح كتابته خوفاً من دخول الريب والشك فيه، بل كتابة العلم في هذا الزمان مع طول الإسناد واختلاف أسباب الرواية أحج من الحفظ"[2].

(1) صحيح مسلم –988/2– حديث رقم 1355، كما رواه البخاري بشيء من الاختلاف –857/2 حديث رقم 2302.

(2) تقييد العلم – البغدادي –71.

أهمية الكتابة

لكتابة العلوم أهمية كبيرة وفوائد جمّة، من بينها:

1- تحصيل للعلم بكتابته لمن يجهله وحصول التذكر لما ينسى بالرجوع إلى المكتوب، وقد قال في ذلك ابن المبارك: لولا الكتاب ما حفظنا[1].

كما قال (الربيع): خرج علينا الشافعي ذات يوم ونحن مجتمعون فقال لنا: اعلموا رحمكم الله أن هذا العلم يَنِدُّ كما تندُّ الإبل، مأجعلوا الكتب له حماةً والأقلام عليه رعاةً[2].

كما روي عن الخليل بن أحمد أنه قال: ما سمعت شيئاً إلا كتبته ولا كتبت شيئاً إلا حفظته ولا حفظت شيئاً إلا انتفعت به[3].

2- ومن أهمية الكتابة -أيضاً- حصول الاتقان للمعلومة عندما تؤخذ مكتوبةً ولذلك روي عن أحمد بن حنبل أنه قال: حدثنا قوم من حفظهم وقوم من كتبهم فكان الذين حدثونا من كتبهم أتقن[4].

3- انتقال العلوم من عصر إلى عصر، ومن قوم إلى قوم، إذ إنَّ الحفظة يموتون ويموت علمهم معهم إن لم يكتبوه.

4- ومن شأن كتابة العلم وتدوينه رفع الشك القوي، ودفع الريب العارض، وحصول الانتفاع الكامل بذلك، ولذلك قال أحد الحكماء: "قراءة الكتب أبلغ في إرشاد المسترشد من ملاقاة واضعيها إذا كان مع التلاقي يقوى التصنع ويكثر التظالم وتفرط النصرة وتشتد الحمية، وعند المواجهة يملك حبُّ الغلبة، وشهوة المباهاة والرئاسة مع الاستيحاء من الرجوع والأنقة من

---

(1) تقييد العلم – البغدادي -114.

(2) نفس المرجع – البغدادي-114.

(3) نفس المرجع – البغدادي -114، 115، جامع بيان العلم وفضله – ابن عبد البر-156/1.

(4) تقييد العلم – البغدادي -115.

الخضوع، وعن جميع ذلك يحدث التضاغن ويظهر التبـــاين، وإذا كانـــت القلوب على هذه الصفة امتنعت من المعرفة، وعميت عن الدلالة، وليســـت في الكتب علة تمنع من درك البغية وإصابة الحجة، لأن المتوحد بقراءتهـــا والمنفرد بعلم معانيها لا يباهي نفسه ولا يغالب عقله"[1].

(1) تقييد العلم – البغدادي –118.

المطلب الثاني: آفات العلم:

للعلم آفات عديدة، منها: النسيان والكذب فيه، ووضعه في غير أهله.

وحيث إن لكل من هذه الآفات جوانب تحتاج إلى شيء من التوضيح، أخص كل واحدة منها بشيء من التفصيل، فنقول:

1- النسيان:

قال في معناه لغة صاحب تاج العروس هو: "ضد الحفظ والذكر ومنهم من فسره بالترك"، وعرفه الراغب بأنه: ترك الإنسان ضبط ما استودع إما لضعف في قلبه وإمّا عن غفلة وإمّا عن قصد حتى ينحذف عن القلب ذكره"[1].

وللنسيان أسباب أشار إليها الراغب في تعريفه الذي ذكر قبل قليل من كونه يحصل بسبب ضعف القلب أو غفلته أو عن قصد، وقد يكون ذلك لكثرة المشاغل أو ممارسات الشخص لما يخالف شرع الله، ومنها تسلط الشيطان على الإنسان، يرشد إلى ذلك ما قصه الله علينا بخصوص ما نطق به سيدنا موسى -عليه السلام- في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف:63] وقول الله تعالى -أيضاً- مخاطباً نبيه -عليه أفضل الصلاة والسلام-: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [فصلت:36] وقوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[الأنعام:68] وقوله تعالى: ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾[المجادلة:19].

وقد ورد على ألسنة الكثير من السلف ذكر النسيان وما يتعلق به، ومن بين ذلك أن دغفل بن حنظلة قال لمعاوية في حديث ذكره: إن غائلة العلم النسيان[2]، وعن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- قال: تذاكروا هذا الحديث فإنكم إن لم تفعلوا يدرس[3].

---

(1) تاج العروس من جواهر القاموس – الزَّبيدي – دار الهداية -75/40.

(2) جامع بيان العلم وفضله – لابن عبدالبر -213/1.

(3) نفس المرجع 214/1.

وعن عبدالله بن المختار قال: نكر الحديث الكذب فيه، وآفته النسيان، وإضاعته أن تحدث به من ليس من أهله[1].

كما قال الحسن: لولا النسيان لكان العلم كثيراً[2].

وكما ورد عن رؤبة بن العجاج، قال: أتيت النسابة البكري قال: قال لي: من أنت؟ قلت: رؤبة بن العجاج، قال: قصّرت وعرّفت، فما جاء بك؟ قلت: طلب العلم، قال: لعلك من قوم أنا بين أظهرهم إن سكت لم يسألوني، وإن تكلمت لم يعوا عني.

قلت: أرجوا ألا أكون منهم، ثم قال: أتدري ما آفة المروءة؟ قلت لا. قال فأخبرني، قال: جيران السوء إن رأوا حسناً دفنوه وإن رأوا سيئاً أذاعوه. ثم قال: يا رؤبة إن للعلم آفة وهجنة ونكراً، فآفته نسيانه، وهجنته أن تضعه عند غير أهله ونكره الكذب فيه[3].

أما حكم الناسي: فقد قال الرازي في شأنه وهو يفسر قول الله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[البقرة:286]، "إنَّ النسيان منه ما يعذر فيه صاحبه، ومنه ما لا يعذر، ألا ترى أن من رأى في ثوبه دماً فأخر إزالته إلى أن نسي فصلى وهو على ثوبه عُدّ مقصراً، إذ كان يلزمه المبادرة إلى إزالته، وأما إذا لم يره في ثوبه فإنه يعذر فيه،.... وكذلك الإنسان إذا تغافل عن الدرس والتكرار حتى نسي القرآن يكون ملوماً، وأما إذا واظب على القراءة ولكنه مع ذلك نسي فههنا يكون معذوراً، فثبت أن النسيان على قسمين: منه ما يكون معذوراً ومنه ما لا يكون معذوراً، فثبت بما ذكرنا أن الناسي قد لا يكون معذوراً، وذلك ما إذا ترك

---

(1) نفس المرجع 1/214-215.

(2) نفس المرجع 1/215.

(3) نفس المرجع 1/216-217.

التحفظ وأعرض عن أسباب التذكر، وإذا كان كذلك صح طلب غفرانه بالدعاء"[1] والآية وهي قول الله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ تصدق على الثاني وهو المقصود الوارد في كلام الرازي، أما الحديث وهو قول النبي –صلى الله عليه وسلم– فيما صح عنه: ((إن الله قد تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه))[2] يصدق على الأول لأن نسيانه ليس عن تقصير فلا ذنب عليه حتى يطلب عدم المؤاخذة.

2–الكذب في العلم:

عرف الكذب بأنه: "نقيض الصدق"[3] وهو أيضاً قول غير الحق، وعرفه علماء الكلام بأنه: "الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو، عمداً كان أو سهواً"[4] وهو من أخطر الآفات على العلم أيّا كان نوع هذا العلم، وأخطر الكذب ما كان على الله وعلى رسوله –صلى الله عليه وسلم– فقد ورد التشنيع عليه باستفهام استنكاري في قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾[الأنعام:144]، [الأعراف:37] وقوله –أيضاً–: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ [الزمر:32] وذلك بأن يسند إلى الله ما لم يقله أو ما لم يشرعه، كأن يحل ما حرم الله أو يحرم ما أحل الله، وكذلك ما يحصل من نسبة شيء إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم– مما لم يثبت عنه؛ لما صح عنه –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: ((إن كذباً عليَّ ليس ككذب على أحد، فمن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار))[5]. ومعنى قوله: "فليتبوأ مقعده من النار" قال العلماء معناه فلينزل وقيل:

---

(1) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب – الرازي –دار الكتب العلمية /142هـ: 200م. 7/125–126.

(2) سنن ابن ماجه 3/199– حديث رقم 2043 – كتاب الطلاق – باب طلاق المكره.

(3) لسان العرب – لابن منظور – دار صادر – بيروت – 1/704.

(4) شرح النووي على صحيح مسلم –1/69.

(5) صحيح مسلم بشرح النووي 1/70– باب تغليظ الكذب على رسول الله.

فليتخذ منزله من النار"[1]، وهو بهذه الحالة سواء كان كذبه على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في الأحكام أو ما لا حكم فيه كالترغيب والترهيب والمواعظ، وينسب القول بالحكم بكفره إلى أبي محمد الجويني والد إمام الحرمين إذا كان كذبه على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عمداً، والصحيح خلافه، لكن يحكم بفسقه فلا تقبل روايته مستقبلاً ولو تاب، وهذا مما تُخالف فيه الرواية الشهادة حيث تقبل شهادته إن تاب[2].

والكاذب في العلم حاله سيء في أي مجال منه، وبأي صورة كان الكذب فيه، بأن غير حكماً من الأحكام الشرعية بالجواز إلى المنع أو العكس، أو نسب إلى أحدٍ نوعاً من المعرفة لم يصدر عنه، أو زيّف حقيقة علمية عمداً، أو حرّف قاعدة من القواعد الشرعية فإن الوعيد الشديد ينزل به، والعقاب الصارم لا يجد منه مفراً، لما في ذلك من التطاول على ثوابت صلاح البشرية وتقدمها، وتغيير الحقائق التي إذا حلّ بها الزيف والتحريف صارت مهددة بالضياع والانحطاط، ونحن نشاهد الآن في واقع حياتنا ما يحصل من التجرؤ على الفتيا بغير علم وما يجر ذلك على واقع حياتنا من خصام وجدال وتفرق كلمة، ونسبة كثير من الأحكام إلى من لم يقلها، وتحريف كثير منها عن عمد وعن جهل دون خوف من العواقب، وتجرؤ من لم يشم رائحة العلم فادعاه، وتطاول على من هم له أهل أملاً في شهرة وحرصاً على امتلاك منزلة.

ونلاحظ في هذا الزمان انتصاب من ليس أهلاً للدرس والوعظ والإرشاد، حيث يصدر منهم وهم يعظون أو يعلمون من الأخطاء الشيء الكثير، ومن الناس من يصدقهم فيما يقولون، وينتشر خطؤهم هذا بين الناس تصديقاً منهم لما سمعوه ممن يظنون أنهم على صدق فيدخل أولئك الوعاظ في الوعيد الذي ورد في سنن

---

(1) شرح النووي علي صحيح مسلم–68/1.

(2) ينظر شرح النووي على صحيح مسلم –68/1 وما بعدها.

أبي داوود عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من قوله: ((كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هولك به مصدق وأنت له به كاذب))[1] وقد روي أن (مسروقاً) قال: "كنا عند عبدالله جلوساً وهو مضطجع بيننا نراه فأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن إن قاصاً عند أبواب كنده يزعم أن آية الدخان تجيء فتأخذ بأنفاس الكفار وتأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام، فقال عبدالله –وجلس وهو غضبان– يا أيها الناس اتقوا الله فمن علم منكم شيئاً فليقل بما يعلم، ومن لا يعلم فليقل: الله أعلم، فإنه أعلم لأحدكم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم فإن الله تعالى قال لنبيه –عليه الصلاة والسلام–: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ المُتَكَلِّفِينَ﴾[ص:86][2].

3–وضعه في غير أهله:

من آفة العلم وضعه في غير أهله، وذلك أن العلوم متكاثرة مختلفة، وما يصح من العلوم لشخص قد لا يحصل لغيره، وما يحسن منه لشخص قد لا يحسن له سواه.

وعليه، فإنه لا يعطى علم لمن يتضح أنه ليس أهلاً له، وقد قيل: لا يعلّم عالمٌ العلم إلاّ أهله ولا يكتمه عن أهله فإنّ وَضْعَ العلمِ في غير أهله أضاعته، ومنعه عن أهله ظلم[3].

- وروى أن عيسى بن مريم كان يقول: لا تمنع الحكمة أهلها فتأثم، ولا تضعْها عند غير أهلها فتجهل، ولكنَّ طبيباً رفيقاً يضع دواءه حيث يعلم أنه ينفع[4]. ومعلوم أن من معاني الحكمة العلم.

---

(1) سنن أبي داوود –449/4– حديث رقم 4973– باب في المعارض. ونلاحظ أن هناك من ضعفه ولكن أوردناه في هذا المقام لصحة معناه.

(2) العلم – زهير بن حرب– ص.

(3) ينظر الفتاوي الهندية – في مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان – الشيخ نظَّام وجماعة من الهند 371/5.

(4) جامع بيان العلم وفضله – لابن عبد البر –216/1.

- وقال عكرمة: إن لهذا العلم ثمنا، قيل: وما ثمنه؟ قال: أن تضعه عند من يحفظه ولا يضيعه[1].

ومعلوم أن من ضياعه أحياناً تحريفه وعدم العمل به، أو تسخيره للشر، وقد سبق أن النسابة البكري قال لرؤبة بين العجاج: "إن للعلم آفة وهجنة ونكراً، فآفته نسيانه، وهجنته أن تضعه في غير أهله، ونكره الكذب فيه[2].

- وورد عن كثير بن مرة الحضرمي أنه قال: إن عليك في علمك حقاً كما أن عليك في مالك حقاً: لا تحدث العلم غير أهله فتجهل، ولا تمنع العلم أهله فتأثم، ولا تحدث بالحكمة عند السفهاء فيكذبوك، ولا تحدث بالباطل عند العلماء فيمقتوك[3].

وقد نطق الشعراء بمثل ما قال أهل النثر في ذلك، حيث قال صالح بن عبد القدوس:

وإذا حملت إلى السفينة حكمة فلقد حملت بضاعة لا تنفق[4]

كما نظم شاعر هذا المعنى بقوله:

من منع الحكمة أهلها أصبح في الناس لهم ظالماً
أو وضع الحكمة في غيرهم أصبح في الحكم لهم غاشماً
لا خير في المرء إذا ما غدا لا طالب العلم ولا عالما[5]

---

(1) نفس المرجع-216/1.

(2) نفس المرجع -217/1.

(3) جامع بيان العلم -218/1، كما ورد في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع – اخطيب البغدادي بشيء من الاختلاف -392/2 – حديث رقم 788.

(4) جامع بيان العلم وفضله -218/1.

(5) نفس المرجع -218/1.

قبض العلم

العلم نعمة جليلة من ناله نال الشرف العظيم وبخاصة علوم الشريعة الغراء؛ لأنه به يكون وارثاً للأنبياء، كما قال سيد الأنبياء –عليه أفضل صلاة والسلام– "العلماء ورثة الأنبياء"[1] فهم لم يتركوا لا ديناراً ولا درهماً وإنما تركوا علماً "فمن أخذ به أخذ بحظ وافر"، ونعم الميراث ذلك الميراث ألا وهو العلم الشرعي النافع المستمد من كتاب الله –عز وجل– وسنة نبيه –صلى الله عليه وسلم–.

ووجود العلماء وبخاصة علماء الشريعة رحمة بين الأمة؛ لأنهم يبقون علمهم فيسعد الناس به، ويعرفون به ما لهم وما عليهم.

ويظل الحال كذلك ما دام هذا العلم منشوراً، ووجوده موقوراً، ويحل محل ذلك الشقاوة والخسارة إذا رفع هذا العلم وانعدم التوراث فيه، ولكن هل يرتفع العلم بانتزاعه من الصدور ومحوه من السطور يا ترى؟ لا لن يكون بذلك، فقد روى عبد الله بن عمرو بن العاص –رضي الله عنهما– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: ((إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا و أضلوا))[2]، وفي رواية عن أبي موسى الأشعري –رضي الله عنه– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: ((إن بين يدي الساعة أياماً يرفع فيها العلم وينزل فيها الجهل ويكثر فيه الهرج، والهرج: القتل))[3].

---

(1) سنن أبو داوود –354/3 حديث رقم 3643 –باب الحث على طلب العلم، الجامع الصحيح سنن الترمذي 48/5– حديث رقم 2682 بابفصل الفقه على العبادة، سنن ابن ماجه 81/1 حديث رقم 223 باب فضل العلماء.

(2) صحيح البحاري يشرح فتح الباري –140/1– باب كيف يقبض العلم، صحيح مسلم 222/16– رفع العلم وقبضه سنن الترمذي 31/5 حديث رقم 2652– باب ما جاء في ذهاب العلم– واللفظ البخاري.

(3) صحيح مسلم بشرح النووي 222/16– كتاب العلم – باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل.

هذان الحديثان يدلان على قيمة العلم وأهميته، وأن العلماء مصابيح الـــدنيا ونورها، وإن فقدهم وذهابهم فقد للعلم، ووجود للظلمة.

وقد ورد في كتاب الزهد لابن المبارك عن عبدالله بن مسعود–رضـــي الله عنه– قال: لا يزال الناس بخير ما أتاهم العلم من قبل أصحاب محمد –صـــلى الله عليه وسلم– وأكابرهم، فإذا أتاهم العلم من قبل أصاغرهم فذلك حين هلكوا.

وعن ابن شهاب قال: بلغنا عن رجال من أهل العلم أنهم كـــانوا يقولـــون: الاعتصام بالسنن نجاة والعلم يقبض قبضاً سريعاً، فنعش العلم ثبات الدين والدنيا، وذهاب الدين كله في ذهاب العلم[1].

والأمة التي حافظت على العلم فنالته أمة باقيـــة لهـــا الســـيادة والريـــادة، وبضدها تتميز الأشياء، فالأمة التي زهدت فيه ولم تحرص عليه عاشت في جهل ونكد وسوء حالٍ.

(1) الزهد– عبدالله ابن المبارك –تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي – دار الكتب العلمية –281.

الفصل الثاني

في العلوم عند المسلمين

العلوم عند المسلمين

للمسلمين جهود ملموسة في الوصول إلى العلوم المختلفة إيجاداً وتعلماً، بما في ذلك علوم الدنيا والآخرة، ويمكنني في هذا السفر تتبع بعضها بحوصلة للتعريف بجهود المتقدمين في هذا المجال، ولإعطاء هذه الحوصلة توضيحا لما أردت التعرض له، تُبين شخصيته، وتشوق المطلع عليها.

للمزيد من الاطلاع والتمكن نحصر الكلام في ثلاثة مباحث،

وذلك على النحو التالي:

المبحث الأول: العلوم الشرعية

وأعني بها: علم العقيدة، وعلوم القرآن، وعلوم الحديث، وعلوم الفقه وأصوله، وتفصيل ذلك يتم من خلال أربعة مطالب:

المطلب الأول: علم العقيدة:

من العلوم التي اعتنى بها المسلمون وخصصوا لها من جهودهم ووقتهم ما تستحق من العناية: علم العقيدة، الذي يقوم على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره حلوه ومره، فقد ثبت في الحديث الصحيح عن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– قال: "بينما نحن عند رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم

رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً)) قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه قال فأخبرني عن الإيمان: قال: ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره)) قال: صدقت..."[1].

هذا الحديث يحمل أركان الإيمان، وهذا يستدعي شيئاً من التفصيل يتم من خلال الفروع الآتية:

الفرع الأول: الإيمان بالله:

يجب على كل إنسان أن يؤمن بوجود الله بقلبه وأن ينطق بلسانه أن الله واحد لا شريك له، لا شبيه له ولا نظير، ولا والد له ولا ولد، وليس له صاحبة، ليس لأوليته ابتداء، ولا لآخريته انتهاء، لا يبلغ حقيقة صفته الواصفون، يعتبر المتفكرون بآياته ولا يتفكرون في حقيقة ذاته ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ﴾ [البقرة الآية 255] هو الرحمن الرحيم، وهو ملك يوم الدين، وهو اللطيف الخبير، وهو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد، وهو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، على العرش استوى بذاته، وهو في كل مكان بعلمه، خلق الإنسان وجعله خليفته في أرضه، وكرمه على سائر خلقه، يعلم ما توسوس به نفسه وما يدور في خلده، وخلق كل شيء من أجله، وهو العالم بكل شيء فلا تسقط ورقة إلاّ يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مكنون عنده، له الأسماء الحسنى والصفات العلى، لا يشابهه فيها أحد، ولا يضارعه فيها أي كائن؛ تنزه عن الشبيه والمثيل، له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما

---

(1) صحيح مسلم – كتاب الإيمان – باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر –114/1– حديث رقم: 102، سنن أبي داوود– كتاب السنة – باب في القدر –426/13– حديث رقم 4697، واللفظ المسلم.

تحت الثرى، يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، كلم الله موسى بكلامه الذي هو صفة من صفاته قديمة بقدمه ليس خلقاً من خلقه[1].

وكل ما ذكرناه بإجمال تضمن بعض صفاته الواجبة والجائزة والمستحيلة، ويجب على كل مسلم أن يؤمن بأن الله يجب له كل كمال وينزه عن كل نقصان، كما يجب عليه أن يثبت لله صفاته دون تشبيه، وأن ينفي عنه النقصان دون تعطيل، فهو إيمان بلا تكييف ولا تمثيل، ونفي بلا تعطيل كما قال الشافعي –رحمه الله–: نحن مكلفون بإيمان تصديق وإثبات، لا إيمان تكييف وتمثيل[2].

الفرع الثاني: الإيمان بالملائكة:

عُرّف الملائكة بأنهم عالم من العوالم التي خلقها الله–عز وجل– فهم مخلوقون من نور، كما قال –عليه الصلاة والسلام– في الحديث: ((خُلقت الملائكة من نور...))[3] فهم لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون، معصومون مطهرون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، خلقهم الله ذوي أجنحة: مثنى وثلاث ورباع، يطيرون بأجنحتهم، فهم مستسلمون منقادون دائماً وأبداً، وقد وكلوا بأعمال كثيرة، فمنهم الموكل بالوحي، ومنهم الموكل بالقطر، ومنهم الموكل بالموت، ومنهم الموكل بالجنة والنار، ومنهم الموكل بالحفظ والكتابة، ومنهم الموكل بالجبال، ومنهم الموكل بالأرحام، ومنهم حملة العرش، ومنهم غير ما ذكرنا، فيجب التصديق بهم، وبما جاء في القرآن الكريم وثبت بالحديث عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– من أخبارهم، وهم خلق كثير لا يعلمهم إلا الذي خلقهم، وهو الله –سبحانه وتعالى–، ومما يدل على كثرتهم الحديث الصحيح الوارد في حق سعد بن معاذ–رضي الله عنه– عن ابن عمر –رضي الله عنهما – عن النبي –

---

(1) ينظر الرسالة – لابن أبي زيد القيرواني، (توفي 386هـ) – دار الفكر –5، 6.

(2) شرح الأربعين النووية – عطية بن محمد سالم –2/6 وما بعدها – المكتبة الشاملة.

(3) صحيح مسلم عن عائشة – كتاب الزهد والرقاق – باب في أحاديث متفرقة –2294/4– حديث رقم 2996.

صلى الله عليه وسلم- قال: ((هذا الذي تحرك له العرش وفتحت له أبواب السماء وشهده سبعون ألفاً من الملائكة لقد ضم ضمة ثم فرج عنه))[1]، وما يدل على ذلك أيضاً ما رواه أنس بن مالك -رضي الله عنه- من حديث الإسراء والمعراج أنه ورد فيه أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((....ثم رفع لي البيت المعمور فقلت يا جبريل: ما هذا، قال: هذا البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا فيه...))[2].

فالإيمان بهم من الإيمان بالغيب الذي لا يثبت إلا عن طريق الوحي، ولا مجال فيهم ولا في ما يثبت عنهم بالاجتهاد، والأصل فيهم أنهم لا يُشاهدون ولا يعاينون لأنهم أجسام لطيفة[3]، ولكن قد يتمثلون في صورة إنسان جميل كما بينته لنا رواية حديث عمر بن الخطاب-رضي الله عنه- الخاص بأركان الإسلام والإيمان، السابق الذكر- حيث تمثل جبريل في صورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواء الشعر، وكما جاء في قصة ضيف إبراهيم في قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ المُكْرَمِينَ۞ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات:24، 25] وفي مجيء جبريل إلى مريم بصورة بشر كما في قوله تعالى: ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِياًّ﴾ [مريم: 17].

وكل إنسان معه حفظة وكتبة من الملائكة، وقد قدم الرسول -صلى الله عليه وسلم- ذكرهم في الحديث الشريف عن بقية الأصول الستة لأنهم هم الذين يأتون بالوحي إلى الرسل، فهم الواسطة بين الله وبين رسله، ثم ذكر بعدهم الكتب لأنهم ينزلون بها، ثم ذكر الرسل لأنهم هم الذين تصل إليهم الكتب من الملائكة، فجاء الترتيب بذكر الإيمان بالملائكة؛ لأنهم الذين يأخذون عن الله، ثم الذي

---

(1) سنن النسائي – كتاب الجنائز – باب ضمة القبر وضغطته -100/4- حديث رقم 2055.

(2) صحيح مسلم – كتاب الإيمان – باب الإسراء برسل الله إلى السموات -103/1 حديث رقم 434.

(3) ينظر شرح سنن أبي داوود – عبد المحسن العباد -76/27- المكتبة الشاملة.

يأخذونه هو الكتب وينزلون بها، ثم الرسل الذي تنتهي الرسالة إليهم، حيث ينتهي الرسول الملكي إلى الرسول البشري، فيبلغه ما أنزل عليه[1].

الفرع الثالث: الإيمان بالكتب:

ورد لفظ الكتب في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف بهذه الصيغة عند ذكرها في مجال الإيمان بها، وهي صيغة كثرة، وتبدأ الكثرة في مصطلح علماء العربية بما يزيد على العشرة[2].

ومعنى هذا أن لله كتُبا كثيرة، ذكر بعض العلماء أن الله أنزل مائة كتاب ومائة وعشرين صحيفة على رسله[3].

والنص القرآني يدل على أن الله أنزل على كل رسول كتاباً، ورسل الله كثيرون قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد:25] ولم يصرح الباري في كتابه العزيز إلا بذكر أربعة هي: القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والزّبور، كما ذكر لنا أنه أنزل صحفاً من بينها ما تم التصريح به وهي صحف إبراهيم وموسى.

والإيمان بالكتب معناه: التصديق بما جاء في القرآن من كتب أنزلها الله، ما ذكر منها وما لم يذكر.

فكل كتاب أنزله الله على رسله فنحن نؤمن بوجوده، ولا نعمل إلا بخاتمها وهو القرآن الكريم؛ لما ثبت عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أنه قال لعمر بن الخطاب–رضي الله عنه– حينما جاء بصحيفة من التوراة يقرؤها –مستحسناً ما فيها، فغضب –صلى الله عليه وسلم– وقال: ((يا ابن الخطاب ألم آتكم بها بيضاء

---

(1) ينظر شرح سنن أبي داوود – عبد المحسن العباد –77/27– المكتبة الشاملة.

(2) التعاريف – المناوي – دار الفكر العاصر – لبنان –ط1–1410هـ–253.

(3) ينظر شرح الأربعين النووية – عطية بن محمد سالم –7/6– المكتبة الشاملة.

نقية، والله لو جاء موسى ما وسعه إلا اتباعي))[1] فيجب الإيمان بهذه الكتب لأنها من كلام الله، وكلام الله –عز وجل– لا ينحصر ولا ينتهي، قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ البَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾[الكهف: 109] كما قال جلت حكمته ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان:27].

هاتان الآيتان دالتان على أن كلام الله لا ينحصر، فالقرآن من كلام الله، والتوراة من كلام الله، والإنجيل من كلام الله، والزبور من كلام الله، وكل كتاب أنزله الله –عز وجل– فهو من كلامه، وكل هذه الكتب جاءت عن طريق ملك الوحي وهو جبريل –عليه السلام–، وقد سعد نبينا محمد –صلى الله عليه وسلم– وموسى –عليه السلام– بتكليم الله لهما مباشرة فكل منهما كليم الله، فسيكلم الله عباده المؤمنين عند دخولهم الجنة[2].

الفرع الرابع: الإيمان بالرسل:

المراد بهم: من اصطفاهم الله من خلقه لخلقه وهم بشر معصومون اصطفاهم الله لتبليغ شرعه لمن أرسلوا إليهم وأوجب عليهم الطاعة بما أنزل عليهم.

والرسول هو من أوحي إليه بشرع مؤيد بكتاب وأمر بتبليغه للناس، والنبي هو: من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه أو أمر بشرع غيره ليعمل به[3] فكل رسول نبي ولا عكس[4]، فسيدنا محمد –صلى الله عليه وسلم– نبي ورسول قال

---

(1) شرح الأربعين النووية – عطية بن محمد سالم –7/6– المكتبة الشاملة.

(2) ينظر شرح سنن أبي داوود – عبد المحسن العباد –78/27 – المكتبة الشاملة.

(3) ينظر قطف الجنى الداني شرح مقدمة رسالة القيرواني– عبد المحسن بن حَمَد العبَّاد–105/1–المكتبة الشاملة.

(4) ينظر مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح – الملَّا علي القارئ– 141/1– المكتبة الشاملة.

تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[المائدة: 67] وقال في حقه أيضاً: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ المُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:59] فخاطبه مرة بأنه رسول وأخرى بأنه نبيّ، فهناك من حصر الرسل في ثلاثمائة وخمسة عشر رسولاً منهم خمسة وعشرون فقط ورد ذكرهم في القرآن تصريحاً ولم يذكر فيه غيرهم.

جاء ثمانية عشر منهم في سورة الأنعام قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ۞ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ۞ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ۞ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى العَالَمِينَ﴾ [الأنعام:83-86] ويبقى بعدهم سبعة وهم: آدم وهود وشعيب وصالح ومحمد -صلى الله عليه وسلم- وذو الكفل وإدريس، كما قد جاء سبعة عشر منهم في سورة الأنبياء منهم من تكرر مع ما ورد في سورة الأنعام، فنحن نؤمن بهم -عليهم الصلاة والسلام- وبأسمائهم، وهم الذين قُصُّوا علينا ونؤمن بغيرهم ممن لم يقص علينا إجمالاً، قال تعالى: ﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[غافر من الآية 78].

وهناك من حصر عدد الأنبياء والرسل معاً في مائة وأربعة وعشرين ألفاً، فقد ورد عن أبي أمامه-رضي الله عنه- قال قلت يا رسول الله كم وفى عدة الأنبياء قال: "مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً"[1].

(1) مسند الإمام أحمد بن حنبل – عالم الكتب بيروت -265/5- حديث رقم 22948.

ويجب التصديق والإيمان برسل الله وأنبيائه جميعاً، وأنهم صادقون فيما أخبروا به عن الله[1]، وأنهم بلّغوا ما كلفوا به على التمام والكمال، فلا إيمان لمن آمن ببعضهم دون بعض، قال تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة:386]، وضل اليهود حين لم يؤمنوا برسالة محمد ولا برسالة عيسى –عليهما الصلاة والسلام–، كما ضَلّ النصارى أيضاً حين آمنوا بعيسى ولم يؤمنوا برسالة محمد ولا برسالة موسى عليهم أفضل الصلاة والسلام.

ولا يخفى على أحد أن نبينا محمداً –صلى الله عليه وسلم– كان خاتم الأنبياء والرسل، وكانت شريعته خاتمة لكل الشرائع وناسخة لها، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب 40]، ومع أننا مؤمنون بكل الرسل والأنبياء وبما جاءوا به، لكن ليس علينا اتباع أحد إلا خاتم الأنبياء والمرسلين، وسيكون الرسول عيسى –عليه السلام– متبعاً لرسالة سيدنا محمد عند نزوله في آخر الزمان[2].

الفرع الخامس: الإيمان باليوم الاخر:

اليوم الآخر يبدأ بفناء عالمنا هذا فيموت كل من فيه من الأحياء وتبدل الأرض والسماوات، ثم ينشئ الله النشأة الآخرة، فيبعث الله الناس جميعاً، ويرد إليهم الحياة مرةً أخرى[3].

وقيل اليوم الآخر يبدأ من خروج روح كل إنسان من جسده فتبدأ آخرته إلى أن ينزل الناس منازلهم يوم القيامة.

---

(1) تحفة الأخوذي – شرح سنن الترمذي – للمباركفوري – دار الكتب العلمية –289/7.

(2) شرح الأربعين النووية – عطية بن محمد سالم –8/6– المكتبة الشاملة.

(3) الإسلام إيمان وعمل – السيد سابق – الفتح للإعلام العربي – القاهرة– ص 194.

والحد الفاصل بين الدنيا والآخرة الموت، فكل من مات انتقل من الدنيا إلى الآخرة بناءً على هذا الرأي.

وسمي اليوم الآخر بذلك لأنه خلاف اليوم الأول، فاليوم الأول تعقبه أيام وليال، واليوم الآخر ممتد لا ليل فيه ولا نهاية له[1]، والمتتبع للقرآن الكريم يجد أن هذا اليوم ذكرت له أسماء متعددة، منها:

- أنه يوم البعث، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ البَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ البَعْثِ﴾ .[الروم من الآية 56].
- ويسمى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ القِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾.[الزمر من الآية 60].
- ويسمى الساعة، قال تعالى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ القَمَرُ﴾.[القمر 1]
- ويسمى اليوم الآخر، قال تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا۞ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.[الأعلى 17].
- ويسمى يوم الدين، قال تعالى: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.[الفاتحة 4].
- ويسمى يوم الحساب، قال تعالى: ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِسَابِ﴾.[غافر 27].
- ويسمى يوم الفتح، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لاَ يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾.[السجدة 29].
- ويسمى يوم التلاق، قال تعالى: ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ۞ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ﴾. [غافر 15، 16].
- ويسمى يوم الجمع والتغابن، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾. [التغابن من الآية 9].

---

(1) شرح سنن أبي داوود – عبدالمحسن العباد –27–181– شرح الأربعين النووية –عطية–3/7.

- ويسمى يوم الخلود، قال تعالى: ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الخُلُودِ﴾. [ق 34]
- ويسمى يوم الخروج، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الخُرُوجِ﴾.[ق 42].
- ويسمى يوم الحسرة، قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ﴾.[مريم39].
- ويسمى يوم التناد، قال تعالى: ﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾. [غافر 32].
- ويسمى الآزفة، قال تعالى: ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ ۞ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾.[النجم 57،58].
- ويسمى الطامّة، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الكُبْرَى ۞ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَى﴾.[النازعات 34، 35].
- ويسمى الصاخّة، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ۞ يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾. [عبس 33، 34].
- ويسمى الحاقة، قال تعالى: ﴿ الْحَاقَّةُ ۞ مَا الحَاقَّةُ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحَاقَّةُ﴾.[الحاقة 1–3].
- ويسمى الغاشية، قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغَاشِيَةِ﴾. [الغاشية 1].
- ويسمى الواقعة، قال تعالى: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ ۞ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۞ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾. [الواقعة 1–3].

والإيمان باليوم الآخر وبما يقع فيه أمر لا بد منه لثبوت حقيقة الإيمان؛ لأنه يجعل لحياتنا غاية سامية تحركنا لفعل الخيرات وترك المنكرات، والتحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل، التي من شأنها الإضرار بالأبدان وإطفاء شعلة الإيمان.

هذا من وجه، ومن وجه آخر نجد الباري جلت حكمته يربط الإيمان باليوم الآخر بالإيمان بالله، حيث يقول جلت حكمته: ﴿ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّـهِ وَالْيَـوْمِ الآخِرِ﴾ وكما يقول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُـمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة 62] [1]. فالذي يعلم أن هناك يوماً يسئل فيه كل إنسان عما قـدم وأخر وتكون سعادته أو شقاوته مرتبطة بنتيجة هذا السؤال يعلم أن لمراقبة هـذا اليوم آثاراً إيجابية على سلوكه في الدنيا، فحينئذ يراقب الله في كل ما يقدم ويؤخر وفي جميع ما يعلن ويبطن، كما يعلم أنه لا قيمة للتستر وراء الأوهـام، ولا أثـر للمظاهر والشكليات التي لا أساس لها في شرع الله.

واليوم الآخر مما استأثر الله بعلمه فلم يُطْلِع عليه أحداً من خلقـه لا نبيـاً مرسلاً ولا ملكاً مقرباً، يدل على ذلك حديث الإيمان الذي رواه عمر بن الخطـاب –رضي الله عنه– والذي يقول فيه جبريل –عليه السلام– للنبي –صلى الله عليـه وسلم–: "... متى الساعة قال: ((ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أشراطها إذا ولدت الأمة ربها فذاك من أشراطها، وإذا كانت العـراة الحفـاة رؤوس الناس فذاك من أشراطها، وإذا تطاول رعاة البُهم[2] في البنيات فذاك مـن أشراطها في خمس لا يعلمهن إلا الله" ثم تلا –صلى الله عليه وسـلم– ﴿ إِنَّ اللَّـهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِـبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[لقمان 34][3].

وحيث إن الإيمان باليوم الآخر يستدعي الإيمان بما يقع فيه، ومن بين ذلك عذاب القبر ونعيمه، وما يجري فيه من سؤال الملكين، وهذا أمر لا شك فيه، يدل على ذلك بخصوص سؤال الملكين ونتيجته ما رواه أنس بن مالـك–رضـي الله

---

(1) ينظر الإسلام إيمان وعمل – السيد سابق –194 ما بعدها.

(2) البهم هي كل ذات أربع قوائم ولو في الماء والبَهْمَة: أولاد الضأن والمعز والبقر– ترتيب القاموس – مادة (ب–هـ–م).

(3) صحيح مسلم – كتاب الإيمان – باب الإيمان ما هو وبيان خصاله –119/1– حديث رقم 106.

عنه– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: ((إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم، قال: يأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل، قال فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله قال: فيقال له أنظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة قال النبي –صلى الله عليه وسلم– فيراهما جميعاً))[1].

كما يدل على عذاب القبر ما رواه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم عن ابن عباس–رضي الله عنهما– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– مرّ على قبرين فقال: ((أما إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان – يمشي بالنّميمة، وأمّا الآخر فكان لا يستتر من بوله)) قال فدعا بِعَسيبٍ [2] رطبٍ فشقه باثنين، ثم غرس على هذا واحداً وعلى هذا واحداً ثم قال: ((لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا))[3].

ومما يحصل في اليوم الآخرة أيضاً ويجب الإيمان به: البعث والحساب والثواب والعقاب والجنة والنار.

فأما البعث فالمراد به خروج الناس من قبورهم أحياءً للحساب، وقد بين القرآن الكريم معاد النفس عند الموت ومعاد البدن عند القيامة الكبرى في كثير من الآيات، منها قول الله تعالى: ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف25]، كما قال عز وجل: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه 55].

---

(1) صحيح مسلم– كتاب الجنة – باب عرض مقعد الميت من الجنة والنار عليه –2200/4– حديث رقم 2870.

(2) العسيب: العسب ضراب الفحل أو ماؤه، والعسيب جريدة من النحل مستقيمة، دقيقة يكشط خوصها، والخوص ورق النخل، واحد خوصة والخوّاص بائعه – ترتيب القاموس– مادة (ع س ب) ومادة (خ و ص).

(3)صحيح البخاري – كتاب الأدب– باب النميمة من الكبائر –2250/5– حديث رقم 5703، صحيح مسلم – كتاب الطهارة – باب الدليل على نجاسة البول –347/2– حديث رقم 703.

كما يدل على البعث ما رواه أبو هريرة –رضي الله عنه – قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((ما بين النفختين أربعون ثم يُنزل الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل قال: وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عَجْب الذنب ومنه يركّب الخلق يوم القيامة))[1].

وأما الحساب فالمراد به: بعد أن يردّ الله الحياة إلى الناس من جديد يحشرهم إليه ويجمعهم لديه ليحاسب كل فرد منهم على ما عمل من خير وشر، فتشهد الأرض بما حدث عليها، قال تعالى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا۞ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا۞ وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا۞ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا۞ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا۞ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ۞ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ﴾ [سورة الزلزلة].

وعن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قرأ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: ((أتدرون ما اخبارها؟)) قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ((فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أَمة بما عمل على ظهرها أن تقول: عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا، قال: فهذه أخبارها))[2]، وكما تتحدث الأرض عن أخبارها تشهد الألسنة والأيدي والأرجل والجلود، وبهذا تتم حجة الله على العالم، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور 24]، وكما قال: ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت 20].

والحساب إنما يكون للإنسان بما قدم في الدنيا من خالص الأعمال أو سيئها وتم حصره وجمعه عن طريق الملائكة المكلفين بذلك، فيأتون بالكتب التي جمعوا فيها كل الأعمال، قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي

---

(1) صحيح مسلم – كتاب الفتن وأشراط الساعة – باب بين النفختين –987/18– حديث رقم 7603.

(2) سنن الترمذي – كتاب صفة القيامة والرقائق والورع – باب منه – 4 / 619 – حديث رقم 2429.

عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً۞ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ [الإسراء 13، 14]، ثم إن الكتب التي حوت كل الأعمال يتم تناولها باليمين إن كان أصحابها من أهل الخير، أو بالشمال ومن وراء الظهر إذا كانوا من المسيئين، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ۞ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً۞ وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً۞ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ۞ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً۞ وَيَصْلَى سَعِيراً۞ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً۞ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ۞ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً﴾ [الانشقاق 6-15].

وبعد الحساب يتم وزن الأعمال ليأخذ كل واحد جزاء ما عمل من خير أو شر؛ وليتحقق العدل بذلك على أكمل صورة، فالراجح منها يبين نتيجة صاحبها، قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء 47]، فيتوجه الناس بعد ذلك نحو المصير الذي آلت إليه موازين أعمالهم ويكون ذلك عن طريق المرور على الصراط، قال تعالى: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ۞ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون 102، 103].

ثم بعد ذلك يتوجه الناس إلى الصراط[1] فيعبرونه خفافاً وثقالاً، فمنهم من يشبه في مروره البرق، ومنهم من يتعثر، ومنهم بين ذلك، فيهوي في النار من كان من أهلها، وينتهي السعداء إلى قنطرة فيقفون فيها كما ورد ذلك فيما رواه أبو سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتصّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونُقّوا أُذن لهم في

(1) الصراط: أصلها السراط وهو: السبيل الواضح والمراد به هنا الجسر الذي يمر على جهنم.

دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا"[1].

والحديث على الجنة والنار طويل والآيات القرآنية تعرضت لهما ولما يجري فيهما بشكل لا لبس فيه ولا خفاء، ومن ذلك ما ورد في شأن النار من قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً۞ لِلطَّاغِينَ مَآباً۞ لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً۞ لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً۞ إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً ۞ جَزَاءً وِفَاقاً ﴾ إلى قوله: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً﴾ [النبأ 21-30] وقال تعالى أيضاً: ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحَمِيمُ۞ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ۞ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ۞ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ﴾ [الحج 20-22]، إلى غير ذلك من الآيات التي تبين مصير الأخسرين أعمالاً، الذين ظلموا أنفسهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

أما الجنة فإن ما ورد في القرآن الكريم بشأنها يضيق عن ذكره المقام، ولكن نقتصر منها على قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ المُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ۞ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ۞ يَلْبَسُونَ مِن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ۞ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ۞ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ۞ لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا المَوْتَ إِلاَّ المَوْتَةَ الأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الجَحِيمِ۞ فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ [الدخان 51-57].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً۞ حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً۞ وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً۞ وَكَأْساً دِهَاقاً۞ لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ كِذَّاباً۞ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً﴾ [النبأ 31-36].

وقد ورد في شأن الجنة والنار أيضاً من الأحاديث ما يصعب حصره، ومن ذلك ما روي عن السيدة عائشة –رضي الله عنها– قالت: دُعي النبي –صلى الله

(1) صحيح البخاري – كتاب الرقاق – باب القصاص يوم القيامة – 2394/5– حديث رقم 6170.

عليه وسلم- إلى جنازة صبي من الأنصار فقلت: يا رسول الله طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه قال: ((أو غير ذلك يا عائشة إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها، وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلها خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم))[1].

وورد في وصف الجنة والنار عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة فقال أنظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها قال: فجاءها ونظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها قال: فرجع إليه قال: فوعزتك لا يسمع بها أحد إلاّ دخلها، فأمر بها فحفت بالمكاره فقال: ارجع إليها فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها قال: فرجع إليها فإذا هي قد حفت بالمكاره فرجع إليه فقال: وعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد، قال اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فإذا هي يركب بعضها بعضاً فرجع إليه فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها، فأمر بها فحفت بالشهوات فقال: ارجع إليها فرجع إليها فقال: وعزتك لقد خشيت ألا ينجو منها أحد إلا دخلها)) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح[2]

وعن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – يرفعه قال: "إذا كان يوم القيامة أتي بالموت كالكبش الأملح، فيوقف بين الجنة والنار فيذبح وهم ينظرون، فلو أن أحداً مات فرحاً لمات أهل الجنة، ولو أن احداً مات حزناً لمات أهل النار" قال أبو عيسى: هذا حديث حسن[3].

---

(1) صحيح مسلم – كتاب القدر- باب معنى كل مولود يولد على القطرة -200/17 – حديث رقم 6939.

(2) سنن الترمذي – كتاب صفة الجنة – باب حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات- 5/10- حديث رقم 2758.

(3) سنن الترمذي – كتاب صفة الجنة – باب في خلود أهل الجنة والنار – 2/10- حديث رقم 2756.

الفرع السادس: الإيمان بالقضاء والقدر:

مما يجب الإيمان به على كل مكلف: القضاء والقدر، فما المراد بهما؟

والجواب يتضح فيما يلي:

القضاء له معنىً في اللغة وله معنىً في الاصطلاح، وكذلك القدر.

فأما معنى القضاء لغة: فهو الحكم، ومنه قول الله تعالى: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾[الإسراء: 23] أي: حكم بذلك، وقد يرد بمعنى الفراغ من الشيء، تقول: قضيت حاجتي: إذا فرغت منها، كما يأتي بمعنى الأداء والإنهاء، تقول مثالاً: قضيت ديني، ومن هذا القبيل قول الله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ﴾ [الحجر:66] أي أنهيناه[1]. وقضاء الشيء إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه فيكون بمعنى الخلق[2].

أما معنى القضاء اصطلاحاً فقد عرفه الجرجاني بأنه:"عبارة عن الحكم الكلي الإلهي في أعيان الموجودات على ما هي عليه من الأحوال الجارية في الأزل إلى الأبد"[3].

أما القدر فمعناه في اللغة: مبلغ الشيء، قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي ما عظموه حق تعظيمه، والقدَر والقدْر ما يقدره الله –عز وجل– من القضاء[4].

وبعبارة أخرى هو ما قضاه الله وحكم به من الأمور، وهو مصدر قدر يقدر قدراً، ومنه ذكر ليلة القدر وهي الليلة التي تقدر فيها الأرزاق وتقضى[5].

---

(1) الصحاح – تاج العروس– الجوهري – مادة (ق ض ي).

(2) النهاية في غريب الحديث والأثر – ابن الأثير – تحقيق الطاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي– المكتبة العلمية بيروت– لبنان – 1349هـ – 125/4.

(3) التعريفات – الجرجاني – دار الكتاب العرب – ص225.

(4) الصحاح – الجوهري – مادة (ق د ر).

(5) النهاية في غريب الحديث– ابن الأثير – 41/4.

أما معنى القدر اصطلاحاً: فهو تعلق الإرادة الذاتية بالأشياء في أوقاتها الخاصة – وعليه– فتعليق كل حال من أحوال الأعيان بزمان معين وسبب معين هو القدر[1].

وقد ذكر السفاريني[2] في عقيدته أنه: ما سبق به العلم وجرى به القلم مما هو كائن إلى الأبد، وأنه –عز وجل– قدّر مقادير الخلائق، وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده تعالى، وعلى صفات مخصوصة فهي على حسب ما قدرها[3].

وقد قال ابن عباس –رضي الله عنهما–: القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وآمن بالقدر تم توحيده، ومن وحد الله وكذب القدر نقض تكذيبه توحيده[4].

وقد سُئل الإمام أحمد عن القدر فقال: "القدر قدرة الله"[5].

وكثيراً ما يحصل الجدل في أمر القدر قديماً وحديثاً، ومن ذلك ما ثبت عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: خرج علينا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ونحن نتنازع في القدر فغضب حتى أحمّر وجهه حتى كأنما فُقئ في وجنتيه حب الرمان، فقال: ((أبهذا أمرتكم أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه))[6].

والعلماء مختلفون في التفرقة بين القضاء والقدر على رأيين: **الرأي الأول** يقرر أن: القضاء هو العلم السابق الذي حكم الله به في الأزل، والقدر وقوع الخلق

---

(1) ينظر التعريفات – الجرجاني – ص220.

(2) هو محمد بن أحمد بن سالم السفاريني، شمس الدين أبو العون، عالم بالحديث والأصول والأدب، محقق، ولد في سفارين من قرى نابلس سنة 1114هـ، ورحل إلى دمشق فأخذ عن علمائها، وعاد إلى نابلس فدرس وأفتى وتوفي فيها سنة 1188هـ . الأعلام للزركلي – 14/6.

(3) القضاء والقدر – عمر بن سليمان الأشقر – المكتبة الشاملة –ص8.

(4) المرجع السابق –ص3.

(5) المرجع السابق– ص2.

(6) سنن الترمذي – كتاب القدر – باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر –264/8، حديث رقم 2280.

على وزن الأمر المقضي السابق، قال ابن حجر – رحمه الله–: "قال العلماء: القضاء هو الحكم الكلي الإجمالي في الأزل، والقدر جزئيات ذلك الحكم وتفاصيله[1]. وقال في موضع آخر: "القضاء: الحكم بالكليات على سبيل الإجمال في الأزل، والقدر الحكم بوقوع الجزئيات التي لتلك الكليات على سبيل التفصيل"[2].

الرأي الثاني: يقرر أن: القدر هو الحكم السابق، والقضاء هو الخلق، قال ابن بطال[3]: القضاء هو المقضي[4]. والمراد بالمقضي: المخلوق.

وقال الخطابي[5]: "القدر اسم لما صار مقدرا عن فعل القادر كالهدم والنشر والقبض، أسماء لما صدر من فعل الهادم والناشر والقابض[6].

والقضاء في هذا معناه الخلق، قال تعالى: ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾[فصلت: 12] أي خلقهن[7].

وبناءً على هذا الرأي يكون القضاء من الله تعالى أخصّ من القدر؛ لأنه الفصل بين التقديرين، فالقدر هو التقدير، والقضاء: هو الفصل والقطع[8]، ويدل على صحة هذا الرأي نصوص كثيرة من كتاب الله، قال –عز وجل–: ﴿ وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِياً﴾[مريم:21] وقال: ﴿ كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِياً﴾[مريم: 71] وقال: ﴿ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[البقرة: 117].

---

(1) فتح الباري – ابن حجر العسقلاني – دار المعرفة –بيروت – لبنان– 1379هـ–477/11.

(2) المرجع السابق–149/11.

(3) هو علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال أبو الحسن، عالم بالحديث من أهل قرطبة، شَرَحَ البخاري، توفي سنة 449هـ. الأعلام للزركلي –285/4.

(4) فتح الباري – ابن حجر –149/11.

(5) هو حمد بن محمد بن إبراهيم البستي، أبو سليمان، فقيه محدث من أهل بست، من نسل زيد بن الخطاب أخ عمر بن الخطاب، له كتب كثير منها ما ذكر في الصلب، (319–388هـ). الإعلام للزركلي – 273/2.

(6) معالم السنن– شرح سنن أبي داود – الخطابي –322/4.

(7) المرجع السابق –322/4.

(8) القضاء والقدر – الأشقر – ص10.

فالقضاء والقدر بناءً على هذا الرأي أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه[1].

وقد ذكر بعض العلماء أن القضاء والقدر إذا اجتمعا في الذكر افترقا في المعنى فأصبح لكل منهما معنى يخُصه – وهو معلوم مما سبق – وإذا افترقا في الذكر دخل أحدهما في معنى الآخر[2].

والتصديق بالقضاء والقدر ركن من أركان الإيمان، لا إيمان لأحد بدونهما، يدل على ذلك القرآن والسنة وإجماع الأمة: فمن القرآن قول الله تعالى:﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: 49] وقوله﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً﴾ [الأحزاب:38] وقوله: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾[الفرقان:2].

وأمّا من السنة فما أوردناه سابقاً من حديث جبريل وسؤاله للنبي –صلى الله عليه وسلم – عن أركان الإيمان، فذكر منها: ((الإيمان بالقدر خيره وشره))، وكذلك ما ثبت عن عبد الله بن عمرو بن العاص –رضي الله عنهما– قال سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: ((كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء))[3] ، وقد ورد عن عمران بن حصين–رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: ((.... كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السماوات والأرض))[4].

---

(1) النهاية في غريب الحديث –ابن الأثير –613/3.

(2) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة – نخبة من العلماء – وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف – المملكة العربية السعودية –ص322.

(3) صحيح مسلم – كتاب القدر – باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام–176/17، حديث رقم: 6919.

(4) صحيح البخاري – كتاب بدء الخلق – باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ –1166/3، حديث رقم 3019.

وقد أجمع من يعتد بإجماعهم من سلف هذه الأمة وخلفها على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر من غير تعليل، فقد ورد عن الإمام أحمد بن حنبل –رحمه الله– أنه قال: "من السنة اللازمة الإيمان بالقدر خيره وشره والتصديق بالأحاديث فيه والإيمان بها، لا يقال: لم؟ ولا كيف؟[1].

وكثير من الناس في هذا الزمان عندما يحصل المكروه يعلقونه بقضاء الله وقدره؛ التماساً لعذر وخلقاً لمبرر لا ينفع، وما دروا أن قضاء الله منه المبرم وهو الذي لم يعلق بسبب، فقد روى ثوبان –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: ((إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة وأن لا يسلط عليهم عدوّاً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإنّ ربي قال يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة وألا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم مَنْ بأقطارها – أو قال مَنْ بين أقطارها – حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً))[2].

فهذا قضاء لا يرد وحكم لا ينقض، وإليه أشار صاحب الجوهرة بقوله:

وكل أمر بالقضاء والقدر وكل مقدور فما عنه مفرّ

هذا هو القضاء المبرم، أما القضاء غير المبرم وهو ما يسمى بالقضاء المعلق بسبب فمعناه: أن الله قدّر السبب والمسبب، والسبب يدخل في اختيار الفاعل ومشيئته وقدرته، فمثلاً جعل الله الصدقة تدفع البلاء، والبر وصلة الرحم تزيدان

---

(1) القضاء والقدر – الأشقر– ص25.

(2) سنن الترمذي – كتاب الفتن – باب ما جاء في سؤال النبي ثلاثاً في أمته، 348/8 حديث رقم 2331، والمراد بالكنزين الأحمر والأبيض: الذهب والفضة، أو خزائن كسرى وقيصر، وذلك أن الغالب على نقود ممالك كسرى الدنانير والغالب على نقود ممالك قيصر الدراهم، والبيضة: مجتمعهم وموضع سلطانهم، والجدب: القحط.

في العمر، والدعاء يرد القضاء[1]، فقد ورد عن سلمان –رضي الله عنه– قال: قال، رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر))[2]، وروي عن ابن عباس –رضي الله عنهما– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: ((إنّ صدقة السر تطفئ غضب الرب، وإن صلة الرحم تزيد في العمر، وإن صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وإن قول "لا إله إلا الله" تدفع عن قائلها تسعة وتسعين باباً من البلاء أدناها الهم))[3].

ومعنى ذلك: أن لإرادة الإنسان واختياره دوراً فيما يصدر عنه، فإذا تهور في قيادة السيارة فقد يجلب لنفسه الحوادث القاتلة، وإذا جالس بطانة السوء فقد يطاله الكثير من شر جنايتها، وإذا جدّ في طلب العلم حصل له التوفيق فيما سعى إليه، وإذا أخذ أي إنسان طفله إلى مدارج الكمال في التربية سينال الجزاء بتوفيق ولده إلى صالح الأعمال، وهذه هي العقيدة الصحيحة التي يجب على المسلم أن يراعيها وأن يعيش عليها.

وعقيدة أهل السنة: أن الخير والشر والحلو والمر والنفع والضر والنجاح والرسوب كلها من عند الله سبحانه وتعالى وبقضائه وقدره، قال تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [يونس: 107] كما قال جلت حكمته ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَراًّ إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾[الأعراف: 188]، ومع مراعاة ما تقدم ذكره فإنه لا يضاف إلى الله على الانفراد ما يتوهم منه نقص، فلا يقال: يا خالق الشر، ويا خالق القردة والخنازير.

---

(1) ينظر المختار في أصول السنة لابن البنا– شرح عبدالعزيز الراجحي– ص489.

(2) سنن الترمذي– كتاب القدر – باب ما جاء لا يرد القضاء إلا الدعاء– 278/8. حديث رقم 2289.

(3) الجامع الصغير – السيوطي 193/1.

وخلاصة ما تقدم أن الخير والشر كليهما مخلوقان مقدران لله تعالى، ولكن لا يضاف الشر إليه منفرداً لما فيه من إبهام وصفه بالنقص والعيب تنزه عن ذلك سبحانه وتعالى[1].

وعقيدة أهل السنة تقابلها عقيدة أهل الاعتزال الذين ينسبون إلى واصل بن عطاء[2] وهو الذي زعم أن الشر لا تجوز إضافته إلى الله؛ لأن الله حكيم، وقال في مقالته: إن العبد هو الفاعل للخير والشر والإيمان والكفر والطاعة والمعصية، وهو المجازى على فعله وقد أقدره الله على ذلك كله، وذهب النظام[3] من المعتزلة أيضاً إلى أن الله لا يوصف بالقدرة على الشرور والمعاصي، وليست هي مقدورة لله.

والقائلون بهذا القول هم الذين وصفوا بالقدرية؛ لأنهم أثبتوا للعبد قدرة توجد الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى، ونفوا أن تكون الأشياء بقدر الله وقضائه[4].

وقد ثبت عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه وصف المكذبين بالقدر بأنهم مجوس هذه الأمة، حيث قال: ((القدرية مجوس هذه الأمة إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم))[5].

وأدلة علماء السنة من القرآن والحديث الشريف ترد عليهم.

---

(1) ينظر اعتقاد أهل السنة– شرح أصحاب الحديث – محمد بن عبد الرحمن الخميس، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف – المملكة العربية السعودية – ص48.

(2) هو واصل بن عطاء الغزال، أبو حذيفة، من موالي بني مخزوم، ومن أئمة البلغاء والمتكلمين، ولد سنة 80هـ، سمي أصحابه بالمعتزلة، لاعتزاله حلقة درس الحسن البصري – توفى سنة 131هـ. الأعلام – الزركلي –109/8.

(3) هو إبراهيم بن سيار بن هانئ البصري، أبو اسحاق النظام، من أئمة المعتزلة توفى سنة 231هـ. وقد ألفت كتب خاصة في الرد على النظام وفيها تكفير له وتضليل. الأعلام – الزركلي –43/1.

(4) ينظر القضاء والقدر – الأشقر – ص5، 6.

(5) سنن أبي داود – كتاب السنة – باب في القدر –357/4، حديث رقم: 9693، عن ابن عمر –رضي الله عنهما– وهو حديث حسن.

المطلب الثاني: علوم القرآن:

القرآن في اللغة: مصدر بمعنى القراءة، وقد ورد بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ۞ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ۞ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: 16-19] فقرآنه في هذه الآيات بمعنى قراءته، ثم غلب إطلاقه في العرف العام على كلام الله المقروء بألسنة الناس فهو من إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول.

أما في اصطلاح علماء الشريعة: فالمراد به كلام الله المنزل على سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- للإعجاز المتعبد بتلاوته، المنقول إلينا بالتواتر كتابة ومشافهة جيلاً بعد جيل[1].

وترتبط بالقرآن الكريم علوم كثيرة، منها: النسخ في القرآن - المحكم والمتشابه - أسباب النزول - القراءات - التفسير - المكي- والمدني، وسنتعرض لهذه الأمور بشيء من الإيجاز في الفروع الآتية:

الفرع الأول: النسخ في القرآن:

النسخ معناه لغة يأتي لمعان متعددة، وهي:

الإزالة: ومنه قوله تعالى: ﴿ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾، [الحج: 52]، **والتبديل**، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً﴾ [النحل: 101] **والتحويل** كتناسخ المواريث- يعني تحويل الميراث من واحد إلى واحد، **والنقل من موضع إلى موضع**، ومنه "نسخت الكتاب" إذا نقلت ما فيه حاكياً للفظ وخطه، ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: 29][2].

---

(1) الوسيط في أصول الفقه الإسلامي - للمؤلف - ص41.

(2) البرهان في علوم القرآن - الزركشي - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم -30/29/2.

هذا هو معنى النسخ لغة.

أما معناه اصطلاحاً: فقد خاض العلماء كثيراً في تعريفه اصطلاحاً وطال جدالهم فيه، فمنهم من عرفه بما يدل على أنه رفع للحكم وإزالة له، ومنهم من عرفه بما يدل على أنه الكشف عن ذلك الرفع وبيان انتهاء أمد الحكم، وما من تعريف إلا وأوردت عليه عدة اعتراضات، لذا أكتفي بذكر تعريف أبي إسحاق الإسفراييني الذي يدل على أنه بيان لانتهاء الحكم وليس الانتهاء نفسه، وقد مشى عليه الرازي واختاره البيضاوي؛ لأنه في نظري أقرب التعاريف إلى السلامة.

قال –رحمه الله–: النسخ هو بيان انتهاء حكم شرعي بطريق شرعي متراخٍ عنه، ومعناه في الجملة: أن الحكم الأول له غاية في علم الله ينتهي عندها لذاته، وبيان ذلك الانتهاء لنا هو النسخ لما كنا نظن استمراره[1].

وقد اختص الله به أمة الإسلام لِحِكَم من التيسير، والصحيح جواز النسخ ووقوعه سمعاً وعقلاً[2].

وذلك بعد أن بلغ العالم أوان رشده جاءت الشريعة الإسلامية ناسخة لكل الشرائع في الجملة، خاتمة لكل الأديان؛ لأنها جامعة لعناصر الكمال، وافية لا نقص فيها، فقد بينت عوامل الروح والجسد، وآخت بين العلم والدين، ووثّقت العلائق بين الإنسان وربه، وبينه وبين بقية الكائنات كلها، فهي ليست روحانية صرفة، ولا مادية بحتة، وإنما هي جامعة بينهما بقدر ما يحقق للإنسانية سعادتها، وينفي احتياجها لغيرها، وقد قال الله في حقها: ﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾ [المائدة: 3] وقال أيضاً: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ ديناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: 85]، وذلك لأن ما يصلح لأمة في أول تكوينها من النظم والقوانين البسيطة لا يمكن أن

(1) الوسيط في أصول الفقه – المؤلف– ص42

(2) ينظر البرهان – الزركشي – 30/2.

يفي بحاجاتها وقد بلغت من النضج والكمال والتقدم درجة كبيرة، فهي تحتاج حينئذ إلى نظم وقوانين تواكب تطورها وتلائم ظروفها وتسد احتياجاتها[1].

ولأهمية معرفة الناسخ والمنسوخ من الأحكام الشرعية فقد "قال الأئمة: لا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ، وقد قال علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– لقاصٍّ: أتعرف الناسخ والمنسوخ؟ قال: الله أعلم، قال: هلكت وأهلكت"[2]، ثم إن النسخ من حيث الجواز والوقوع محل خلاف بين جمهور العلماء على جوازه عقلاً ووقوعه سمعاً، ونظراً لطول هذا الخلاف نحيل من أراد معرفته إلى كتابنا "الوسيط في أصول الفقه" ففيه غاية ما يفيد راغب الاطلاع.

والأمثلة على وقوع النسخ في القرآن الكريم والسنة النبوية ستأتي عند الحديث على ناسخ الحديث ومنسوخه.

الفرع الثاني: المحكم والمتشابه:

يوجد في القرآن المحكم والمتشابه بلا ريب؛ لقول الله تعالى: ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران:7] وقد اختلف العلماء في المراد من هذين اللفظين فمنهم من قال: المحكم هو ما ظهر معناه وانكشف كشفاً يزيل الإشكال، ويرفع الاحتمال، والمتشابه هو ما تعارض فيه الاحتمال، إما على جهة التساوي كالألفاظ المجملة أو ليس على جهة التساوي كالأسماء المجازية.

وقيل إن المحكم ما انتظم وترتب على وجه يفيد إما من غير تأويل أو مع التأويل من غير تناقض واختلاف فيه، والمتشابه ما فسد نظمه واختل لفظه، ويقال فاسد لا متشابه وهو بهذا المعنى غير متصور في كلام الله[3].

---

(1) الوسيط في أصول الفقه– للمؤلف – ص285، 286.

(2) البرهان – الزركشي– 29/2.

(3) الإحكام في أصول الأحكام – للآمدي –237/2، 238، إرشاد الفحول – الشوكاني – ص 32.

وقيل المحكم ما عرف المراد منه إما بالظهور وإما بالتأويل، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه، وقيل المحكم مالا يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً، والمتشابه القصص والأمثال، وقيل: المحكم: الناسخ، والمتشابه: المنسوخ[1].

والمحكم يجب العمل به بدون خلاف، والمتشابه يمتنع العمل به ما دام متشابها، ليس لعلة كونه لا معنى له بل لعلة قصور أفهام البشر عن العلم به والاطلاع على مراد الله منه.

وذلك كالحروف التي في أول السور فإن أفهامنا لا تصل إلى معانيها ولذلك لا داعي إلى الخوض فيها.

الفرع الثالث: أسباب النزول

أسباب النزول هي: الظروف والأحوال والمناسبات التي استدعت نزول شيءٍ من القرآن، وقد أعتنى علماء الشريعة بها، ومنهم من كتب فيها كتاباً مستقلاً، ومنهم من اكتفى بإيرادها ضمن مباحث القرآن الكريم.

وقد أخطأ من قال بعدم فائدة معرفتها لجريانها مجرى التاريخ إذ لمعرفتها فوائد عظيمة، من بينها:

1- أنها تعين على فهم المعنى ورسوخه في الذهن.

2- أنها تساعد على الحفظ وهو أمر ملموس لدى من مارسه بعد فهم سبب النزول.

3- أن موضع سبب النزول لا يجوز إخراجه إذا ورد على اللفظ تخصيصه حيث كان عاماً.

4- أنها تساعد على إدراك الحكمة الباعثة على تشريع الحكم.

5- أنها تزيل اللبس عن المعنى المراد في بعض المواضع التي قد يرد عليها لبس، وقد حصل لبعض الصحابة توقف عند بعض الآيات ووقعوا في حيرة

---

(1) إرشاد الفحول – الشوكاني – ص 32.

من أمرها حتى عرفوا أسباب النزول فذهبت عنهم الحيرة وانتهى التوقف وأدركوا المعنى المراد.

ومن أمثلة ذلك قول الله تعالى: ﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ العَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 188]، سمع مروان بن الحكم هذه الآية فجزع جزعاً شديداً لتبادر ظاهرها إلى ذهنه ولم يعرف أن لها سبباً خاصاً، وفي يوم من الأيام وهو أمير على المدينة جاءه أبو سعيد الخدري وزيد بن ثابت ورافع بن خديج فقال مروان: يا أبا سعيد: أرأيت قوله تعالى: ﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا...﴾ والله إنا لنفرح بما أتينا ونُحب أن نحمد بما لم نفعل. فقال أبو سعيد ليس هذا في هذا، إنّما كان رجال في زمن النبي –صلى الله عليه وسلم– يتخلفون عنه وعن أصحابه في المغازي فإذا كانت فيهم النكبة وما يُكره فرحوا بتخلفهم، وإذا كان فيهم ما يحبون حلفوا لهم وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا[1].

ومعروف أن بفهم السبب تزول الحيرة والعجب، كما يقولون.

الفرع الرابع: القراءات:

كل العارفين للإسلام والقارئين للقرآن عندما يسمعون أو يقرءون لفظ القراءات يسارع إلى أذهانهم قراءات القرآن التي عرفت نسبتها إلى القراء السبعة أو العشرة، وهم:

1- **نافع المدني:** وهو ابن عبد الرحمن بن أبي نعيم، أبو رُوَيمْ الليثي بالولاء "70-169هـ". وروى عنه: قالون[2] وورش[3].

---

(1) أسباب النزول – للنيسابوري – ص91 – البرهان للزركشي –27/1. مع شيء من الاختلاف.

(2) هو أبو موسى عيسى بن مينا الزرقي مولى بني زهرة "120-220هـ" لقب بقالون وهو بمعنى جيد في الرومية وذلك لجودة قراءته. التيسير في القراءات السبع – أبو عمرو الداني – دار الكتاب العربي – بيروت لبنان– 1404هـ – 1984 م – ص 3.

(3) هو عثمان بن سعيد القبطي المصري مولى قريش "110-197هـ". سمي بورش نسبة إلى طائر يسمى بالورشان كان معروفا عندهم. المرجع السابق.

2-**ابن كثير المكي:** وهو عبدالله، أبو معبد العطار الداري الفارسي الأصل إمام أهل مكة في القراءة "45-120هـ" وروى عنه: البزي[1] وقنبل[2].

3-**أبو عمرو بن العلاء:** وهو زبان بن العلاء التميمي المازني البصري "68-154هـ" وروى عنه: الدوري[3] والسوسي[4].

4-**ابن عامر الدمشقي:** هو عبد الله أبو عمران اليَحْصَبِى "8-119هـ" وروى عنه: هشام بن عامر[5] وابن ذكوان[6].

5-**عاصم بن أبي النُّجود الكوفي:** هو أبو بكر بن بهدلة الحناط مولى بني أسد "توفى 127هـ" وروى عنه: شعبة[7] وحفص بن سليمان[8].

6-**حمزة بن حبيب الزيات:** وهو أبو عمارة الكوفي التميمي بالولاء "80-156هـ" وروى عنه: خلف بن هشام[9]، وخلاد[10].

---

(1) هو أحمد بن محمد بن عبد الله أبو الحسن البزي كان إماما في القراءة متقنا ضابطا انتهت إليه مشيخة الإقراء في مكة ومؤذن المسجد الحرام "170-250هـ".النشر في القراءات العشر- ابن الجزري – دار الكتب العلمية ص 121.

(2) هو محمد بن عبدالرحمن المخزومي بالولاء، أبو عمر المكي الملقب بقنبل "195-291هـ".التيسير في القراءات السبع – الداني- ص 3.

(3) هو أبو عمر هو حفص ابن عمر بن عبد العزيز، بن صهبان الأزدي البغدادي النحوي الضرير توفى "246هـ". المرجع السابق.

(4) هو صالح بن زياد، أبو شعيب السوسي الرقي "توفي 261هـ". المرجع السابق.

(5) هو أبو الوليد السلمي الدمشقي "153-245هـ" وكان إمام أهل دمشق ومقرئهم. النشر في القراءات العشر- ابن الجزري ص 144.

(6) هو أبو عمرو عبد الله بن أحمد الفهري الدمشقي "173-242هـ" وكان شيخ الإقراء بالشام. المرجع السابق.

(7) هو أبو بكر بن عباس الأسدي النهشلي الكوفي الحناط "95-193هـ" وكَانَ إِمَامًا عَالِمًا عَامِلًا حُجَّةً مِنْ كِبَارِ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ. المرجع السابق ص 156.

(8) هو أبو عمر الأسدي الكوفي البزاز "90-180هـ". المرجع السابق.

(9) هو أبو محمد الأسدي البزاز البغدادي "150-229هـ". التيسير في القراءات السبع – ص 5

(10) هو أبو عيسى بن خالد الشيباني بالولاء الصيرفي الكوفي توفي "220هـ".المرجع السابق.

7-**الكاسائي:** هو أبو الحسن علي بن حمزة، فارسي الأصل، أسدي الولاء "119-189هـ" وروى عنه: أبو الحارث[1] والدوري[2].

8-**أبو جعفر يزيد بن القعقاع المخزومي المدني القاري** "توفى 130هـ" وروى عنه: عيسى بن وردان[3] وابن جماز[4].

9-**يعقوب الحضرمي:** وهو ابن اسحاق بن زيد بن عبد الله بن أبي إسحاق، أبو محمد مولى الحضرميين "117-205هـ" وروى عنه: رويس[5] وروح بن عبد المؤمن[6].

10- **خلف بن هشام البزار:** تقدمت ترجمته حيث إنه أحد راويي حمزة بن حبيب الزيات وروى عنه إسحاق الوراق[7] وإدريس الحداد[8][9].

ثم إن القراءات السبع أو العشر هي التي أريدت من قول الرسول -صلى الله عليه وسلم- فيما رواه البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- حيث قال: "سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يقرئنيها

---

(1) هو اللبث بن خالد البغدادي "توفي 240هـ". المرجع السابق.

(2) سبق تخريجه في ص107.

(3) هو أبو الحارث المدني الحذاء كان مقرئا ضابطا من قدماء أصحاب نافع "توفي 160هـ".النشر في القراءات العشر – ص 179.

(4) هو سليمان بن مسلم بن جماز، أبو الربيع الزهري بالولاء المدني "توفي 170هـ". المرجع السابق.

(5) هو محمد بن المتوكل أبو عبد الله اللؤلؤي البصري "توفي 238هـ"وكان مقرئا. المرجع السابق ص 186.

(6) هو أبو الحسن البصري النحوي الهذلي بالولاء "توفي 234هـ". روى عنه الإمام البخاري في صحيحه. المرجع السابق.

(7) هو أبو يعقوب المروزي البغدادي "توفي 286هـ". المرجع السابق ص 192.

(8) هو أبو الحسن بن عبد الكريم البغدادي "189- 292هـ". المرجع السابق.

(9) إضافة إلى ما تقدم من المصادر ينظر حجة القراءات – أبي زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة- تحقيق: سعيد الأفغاني – ص 51 وما بعدها.

رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فكدت أساوره في الصلاة، فانتظرته حتى سلم، ثم لببته بردائه –أو بردائي– فقلت من أقرأك هذه السورة؟ قال أقرأنيها رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قلت له: كذبت، فوالله إن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرؤها، فانطلقت أقوده إلى رسول الله، فقلت: يا رسول الله إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها وأنت أقرأتني سورة الفرقان، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: أرسله يا عمر، اقرأ يا هشام فقرأ هذه القراءة التي سمعته يقرؤها، قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه))[1].

وقد اختلف العلماء في المراد من الأحرف السبعة، ذكر ابن حجر أنها بلغت خمسة وثلاثين قولاً، ثم أسند إلى المنذري القول بأن أكثرها غير مختار[2].

ذكر منها الزركشي أربعة عشر، نقتصر منها على ما يأتي:

1–أنه من المشكل الذي لا يُدْرَى معناه؛ لأن العرب تسمي الكلمة المنظومة حرفا وتسمي القصيدة بأسرها كلمة.

2–أن المراد سبع قراءات، وحكي عن الخليل بن أحمد قوله: والحرف ها هنا القراءة.

3–سبعة أنواع كل نوع منها جزء من أجزاء القرآن بخلاف غيره، فبعضها أمر ونهي، ووعد ووعيد، وقصص، وحلال وحرام، ومحكم ومتشابه، وأمثال، وغيرها.

4–أن المراد سبع لغات لسبع قبائل من العرب وهي: قريش، وهذيل، وتميم، وأزد، وربيعة، وهوازن، وسعد بن بكر.

---

(1) صحيح البخاري شرح فتح الباري – كتاب فضائل القرآن– باب أنزل القرآن على سبعة أحرف –20/9، 21.

(2) فتح الباري شرح صحيح البخاري – 21/9.

5-المراد سبعة أوجه من المعاني المتفقة بالألفاظ المختلفة، نحو: أقبل، وهلم، وتعال، وعجل، وأسرع، وانظر، وأخّر، وأمهل، ونحوها.

6-إن ذلك راجع إلى بعض الآيات، مثل قوله: ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء: 67] فهذا على سبعة أوجه بالنصب والجر والرفع؛ وكل وجه: التنوين وغيره، وسابعها الجزم.

7-هي ما ظهرت واستفاضت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وضبطها عنه الأئمة، وأثبتها عثمان والصحابة في المصحف وأخبروا بصحتها وحذفوا منها ما لم يثبت متواتراً، وأن هذه الأحرف تختلف معانيها تارة وألفاظها أخرى، وليست متضادة ولا متنافية[1].

وعندما أرسلت مصاحف عثمان إلى الأمصار الإسلامية التفّ حولها قراء تلك الأمصار المشهورون بالثقة والأمانة عن النقل وحسن الدراية وكمال العلم، أفنوا عمرهم في القراءة والإقراء، فنسبت القراءات إلى أمهرهم وأضبطهم في كل مصر أرسلت إليها مصحف، وكانت وجوه قراءتهم ينظمها ضابط صاغه علماء القراءات في شروط ثلاثة:

1-صحة السند بالقراءة إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- متواتراً من أول السند إلى آخره.

2-موافقة القراءة رسم المصحف العثماني المرسلة إليهم.

3-موافقتها وجهاً من وجوه العربية مجمعاً عليه أو مختلفاً فيه اختلافا لا يضر مثله[2].

ويمكننا أن نشير إلى أن تعدد القراءات واختلافها كان فيه إكثار للمعاني وتوسعة ورحمة بالأمة، فالمراد بهذه الأحرف السبعة -والله أعلم- الأوجه السبعة

---

(1) ينظر البرهان – للزركشي -213/1 وما بعدها.

(2) ينظر حجة القرآن – لابن زنجلة -11، 12.

التي وسع الله بها على الأمة، فبأي وجهٍ قرأ القارئ أصاب، ولقد كان النبي – صلى الله عليه وسلم– يصرح بهذا كل التصريح[1] حين قال: ((أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستعيده حتى انتهى إلى سبعة أحرف))[2].

الفرع الخامس: التفسير:

لا يوجد في الدنيا منذ بدايتها وإلى أن تنتهي –في اعتقادي– كتاب إلهي أو بشري حظي بالدراسة والشرح والتحليل وحفظه في الصدور كما حظي القرآن الكريم بذلك، فمنذ نزوله وإلى الآن تعلق العلماء المسلمون وغير المسلمين بدراسة القرآن على اختلاف قدراتهم وميلوهم، يتعرضون له بالشرح بين مطيل ومقتصد في جوانب قدراتهم العلمية وميولهم النفسي، ومكتبات العالم زاخرة بالمجلدات الضخمة التي تكشف عن مكنون القرآن وما يدل عليه لفظه الرفيع من أحكام شرعية وتوجيهات أخلاقية وأحداث تاريخية، وأسرار ربانية، وما من تفسير إلا ويجد فيه القارئ الكثير مما يجهله، أو يذكره معنى قد نسيه، أو يصحح ما قد انحرف عن الفهم الصحيح.

وقد أسهم التطور العلمي في كشف كثير من الأسرار الربانية التي أودعت في القرآن الكريم وخفيت عن العلماء فيما مضى، وفي اعتقادي أن هذا التجديد في الكشف عن أسرار القرآن سيظل ميداناً لتسابق من هيأهم الله للغرف من ينابيع القرآن الكريم التي لا تنحصر ولا تنتهي، وهذا نوع من أنواع الإعجاز القرآني الذي يقصر عن بلوغه أو القرب منه كلام البشر مهما أوتوا من سحر البيان وجمال التعبير.

وحيث إن تفسير القرآن بحر لا ساحل له فإنني لن أخوض فيه ونكتفي بما ذكرته بالخصوص، وهو من أحب العلوم لدي وفي اعتقادي لدى كل مسلم.

---

(1) ينظر مباحث في علوم القرآن – صبحي الصالح – ص 108.

(2) صحيح البخاري مع فتح الباري –كتاب القرآن – باب نزل القرآن على سبعة أحرف –19/9.

غير أنني أوصي نفسي وكل مسلم بأن يكون له في بيته كتاب تفسير واحد على الأقل يرجع إليه بين الحين والآخر؛ ليكشف بالرجوع إليه عن معنى غامض من الآيات الكريمة، إذ بجلاء معنى الآية الكريمة يعظم أجر القارئ لهـا ويـزداد تعلقه بتلاوتها والتأثر بها، وبدون شك يعتبر ذلك مكسباً عظيما يحظى به من هيأه الله لنيل رضاه.

الفرع السادس: مكي القرآن ومدنيه:

يذكر العلماء أن الكتب السماوية غير القرآن كانت تنزل دفعة واحدة، بينما القرآن الكريم نزل مفرقاً في بحر عشرين سنة، ونزل بعضه فـي مكـة أو فـي الطريق إليها بعد الهجرة، وبعضه نزل في المدينة أو الخروج منها أو القدوم إليها، وبعضه نزل في بيت المقدس ليلة الإسراء، أو بين السماء والأرض عند معـراج النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى السموات العلا.

وقد اعتنى العلماء بمعرفة ذلك عنايةً كبيرةً واستدعى ذلك خلافهم في تحديد المكي والمدني، فمنهم من قال: إن المكي ما نزل بمكة أو فـي الطريـق إليهـا، والمدني ما نزل بالمدينة أو في الطريق إليها وما يقرب من إحداهما نسب إليها.

وفي قول ثانٍ: إن المكي ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعد الهجرة وإن كان بمكة، وفي قول ثالث: إن المكي ما نزل خطاباً لأهل مكة، والمدني مـا وقع خطاباً لأهل المدينة.

- **ويتميز المكي بما يلي:**

1-ما كان مُصدّراً بقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾.

2-ما اشتمل على لفظ ﴿ كَلَّا﴾.

3-ما كان مشتملاً على حروف المعجم مثل "ألر، وحم"، عدا سورتي البقـرة وآل عمران، وفي سورة الرعد خلاف.

4-كل سورة فيها قصة آدم وإبليس سوى سورة البقرة.

5-ما ذكر فيه أحوال القرون السابقة والأمم الغابرة.

6-كل ما نزل بمكة أو في الطريق إلى المدينة قبل بلوغه -صلى الله عليه وسلم- إليها.

وكل ما نزل من القرآن ليس فيه هذه العلامة فهو مدني ومن بين ذلك:

1-ما صدّر بقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

2-كل ما ذكر فيه حكم الحدود والقصاص.

3-كل ما ذكر فيه قصص المنافقين.

4-كل ما نزل على النبي -صلى الله عليه وسلم- في أسفاره بعد ما قدم المدينة[1].

(1) ينظر البرهان في علوم القرآن – الزركشي – ص 187 وما بعدها.

المطلب الثالث: علوم الحديث:

الحديث لغة: نقيض القديم، وهو: الجديد من الأشياء، تقول: لبست ثوباً حديثا أي: جديداً، وسكنت بيتاً حديثاً، أي: جديداً، ويأتي بمعنى الكلام، ومن هذا قول الله تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً﴾ [الزمر: 23]، أي أنزل أحسن الكلام، كما يأتي بمعنى الخبر والنبأ، ومنه قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [النازعات: 15] أي خبره ونبؤه[1].

وقد اختلف العلماء في تعريفه اصطلاحاً حيث عرفه الجمهور من علماء الحديث بأنه: أقوال النبي –صلى الله عليه وسلم– وأفعاله وتقريراته وصفاته الخِلقية والخُلقية ومفازيه وسيره حتى ما كان منه قبل البعثة، وأقوال الصحابة والتابعين وأفعالهم[2].

ومن العلماء من يجعل تعريف الحديث بما يوافق تعريف السنة عند علماء الأصول وهي: أقوال الرسول –صلى الله عليه وسلم– وأفعاله وتقريراته[3]...

وبالإضافة إلى السنة فإن الحديث يلتقي معه الخبر والأثر أيضاً – فالسنة معناها في اللغة: جريان الشيء واطراده في سهولة، كما تطلق على السيرة ومنه سيرة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أي سنته، ومنها قول خالد بن زهير الهذلي:

فلا تجْزعن من سنة أنت سرتها فأول راضٍ سنةً من يسيرها

كما تطلق أيضاً على السيرة والطبيعة، والسنة من الله حكمه وأمره ونهيه[4].

---

(1) النفيس من كنوز القواميس للتليسي – مادة "ح د ت".

(2) تدْريب الراوي في شرح تقريب النواوي – ص 26، الحديث والمحدثون – محمد أبو زهو – 10.

(3) الوسيط في أصول الفقه – للمؤلف– ص 79.

(4) معجم مقاييس اللغة – لابن فارس – مادة "سن"، ترتيب القاموس– الطاهر الزاوي – مادة "سنن".

وهي عند علماء الحديث: قيل إنها ترادف الحديث.

وعند الفقهاء: ما يثاب على فعله ولا يعاقب على تركه.

أما الخبر فمعناه لُغة: النبأ، يقال: أخبره إذا أنبأه، والخبير العالم بالخبر[1].

أما عند علماء الحديث: فمنهم من يراه مرادفاً للحديث نفسه.

فتعريفهما حينئذ واحد، فما التحديث إلا الإخبارُ، وما حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم– إلا الخبر المرفوع إليه، ومنهم من يرى أن بينهما عموماً وخصوصاً مطلقاً، فكل حديث خبر ولا عكس[2].

- أما الأثر: فمن العلماء من يرى أنه مرادف للحديث والخبر، يقال: أثرت الحديث بمعنى رويته، ويسمى المحدث أثرياً نسبة إلى الأثر، ومنهم من يرى أن الأثر هو الحديث الموقوف، والخبر: الحديث المرفوع[3].
- وترتبط بالحديث الشريف علوم كثيرة: منها ما يرجع إلى المتن باعتباره قولاً أو فعلاً أو تقريراً، وباعتباره ناسخاً أو منسوخاً.
- ومنها ما يرجع إلى السند من جهة العمل بما يأتي به وما لا يأتي به العمل وهو الصحيح والحسن والضعيف، ومن جهة مراتب نقلة الحديث من الصحابة والتابعين وتفاوتهم في ذلك وتميزهم فيه واحداً واحداً، وهو ما يتعلق بالجرح والتعديل، وتفصيل ذلك ينحصر في الفروع الآتية:

الفرع الأول: ما يرجع إلى المتن باعتباره قولاً أو فعلاً أو تقريراً

ما يرجع إلى المتن يستوجب علينا أن نذكر أمثلة تبين تفرعه إلى أقوال النبي –صلى الله عليه وسلم– وأفعاله وتقريراته.

أولاً: من الأقوال –وهي أوضح في الدلالة من أفعاله وتقريراته – ما يكون أمراً أو نهياً أو خبراً، فمثال الأمر: ما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال:

---

(1) ترتيب القاموس – الطاهر الزاوي – مادة "خير".

(2) ينظر تدريب الراوي – السيوطي –29.

(3) ينظر تدريب الراوي – السيوطي –29.

قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين وفرقوا بينهم في المضاجع))[1].

ومثال النهي: ما رواه أنس –رضي الله عنه– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: ((لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث))[2].

ومثال الخبر: ما رواه أبو هريرة–رضي الله عنه– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: ((من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، ومن هم بحسنة فعملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة ضعف، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب، وإن عملها كتبت))[3].

ثانيا: فعل النبي –صلى الله عليه وسلم– فالأمثلة له كثيرة، حيث ثبت معظم الأحكام العملية عن طريقه، مثل: الصلاة وما يتعلق بها من طهارة وآداب، والزكاة وما تتفرع إليه، والصوم وأركانه وشروطه وأنواعه، والحج والعمرة، وتأكيداً لذلك قال، عليه أفضل الصلاة والسلام: ((صلوا كما رأيتموني أصلي، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم وليؤمكم أكبركم))[4]، وكقوله فيما رواه جابر– رضي الله عنه– قال: سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يرمي على راحلته يوم النحر ويقول: ((لتأخذوا مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه))[5].

---

(1) السنن لأبي داوود – كتاب الصلاة – باب متى يؤمر الغلام بالصلاة – دار الكتاب العربي 185/1– حديث رقم 495.

(2) صحيح مسلم – كتاب البر والصلة والآداب – باب النهي عن التحاسد والتباغض– 400/16– حديث 6690.

(3) صحيح مسلم – كتاب الإيمان – باب إذا هم العبد بحسنة – 426/1 حديث رقم 354.

(4) السنن الكبرى – للبيهقي – كتاب الصلاة – باب من سهى فترك ركناً أعاد – 345/2– حديث 4022.

(5) صحيح مسلم – كتاب الحج – باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم التحرر ركنا– 70/4 حديث 3197.

ومن السنة العملية – أيضاً– ما ورد عنه في شؤون البيع والسلف، وزيارة ذوي الأرحام والمرضى، وقتال الكفار، والمراسلات الدعوية، إلى غير ذلك مما يضيق عن ذكره المقام.

ثالثا: السنة التقريرية، وهي: ترك الإنكار من النبي –صلى الله عليه وسلم– على ما علم به من الصحابة من قول أو فعل، سواء ظهر منه استبشار عند رؤيته لفعله أو عند سماعه به أم لم يظهر منه ذلك، ومثال الأول: قصة أسامة ووالده حين سمع النبي –صلى الله عليه وسلم– القائف يقول عند مشاهدته لقدميهما وهما نائمان في المسجد: "هذه الأقدام بعضها من بعض" حيث سر النبي –صلى الله عليه وسلم– بهذه الشهادة سروراً عظيماً ظهرت آثاره على أسارير جبهته، الأمر الذي جعل العلماء يقولون بصحة الاستدلال بالقافة[1].

ومثال الثاني: إقراره –صلى الله عليه وسلم– للصحابة الذين صلوا العصر بعد غروب الشمس حيث وصلوا بني قريضة في ذلك الوقت، وإقراره لمن صلوها قبل الغروب وقبل أن يصلوا إلى بني قريضة خوفاً على الصلاة من خروج وقتها لو أخروها حتى وصلوا بني قريضة، حيث اجتهدوا جميعاً في الوصول إلى حقيقة قوله –صلى الله عليه وسلم–: ((لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريضة))[2] على الرغم من خروج الوقت، وفهم الآخرون أن مقصود الإسراع في التوجه إلى بني قريضة فقط، ولذلك حيث ظنوا أن الوقت سيخرج قبل وصولهم إلى بني قريضة صلوا قبل أن يصلوا بالرغم من مخالفتهم في الظاهر لقول الرسول –صلى الله عليه وسلم: ((لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريضة)).

هذا باختصار ما يرجع إلى المتن باعتباره قولاً أو فعلاً أو تقريراً.

---

(1) تيسير الوصول إلى قواعد الأصول ومعاقد الوصول – عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي الحنبلي – 81/1.

(2) صحيح البخاري مع فتح الباري– كتاب الجمعة – باب صلاة الطالب والمطلوب راكبا وإيماءً – 436/2.

الفرع الثاني: ما يرجع إلى المتن باعتباره ناسخاً أو منسوخاً.

أما ما يرجع إلى المتن باعتباره ناسخاً أو منسوخاً، فما هو مقرر في هـذا الباب أن القرآن ينسخ القرآن والحديث ينسخ الحديث وينسخه القرآن باتفاق جميع العلماء، وجرى الخلاف في نسخ القرآن بالحديث. ويمكننا أن نـذكر أمثلـة مـن القرآن والحديث في موضع الوفاق وذلك على النحو الآتي:

أولا: نسخ القرآن بالقرآن:

كان من الممكن ذكر الأمثلة على ذلك عند الحديث على النسخ في القرآن، ولكن حرصنا على تأخيره إلى هنا لتكون الأمثلة على الوقوع متكاملة في موضع واحد، استكمالا لفائدة الباحث عند إرادته التعرف علـى أقسـام النسـخ وأمثلتـه مجتمعةً.

والمتتبع لما ذكره العلماء في حديثهم على نسخ القرآن بالقرآن يجد أمثلـة كثيرة على ذلك، رحمة بالأمة وتطوراً مع مراحل التشريع، ومـن أمثلـة ذلـك إجمالاً:

1- قال الله تعالى: ﴿ انفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً﴾ [براءة: 41] يعني أصحاء ومرضى، وقد نسخت بقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [الفتح: 17].

2- قال تعالى: ﴿ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: 42]، وقد نسخت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّـهُ وَلاَ تَتَّبِـعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة: 49] والمتحدث عنهم في الآيتين المذكورتين هم اليهود.

3- قال تعالى: ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُـوهُ يُحَاسِـبْكُم بِـهِ اللَّـهُ﴾ [البقرة:285]، وقد نسخت بقوله: ﴿ لاَ يُكَلِّـفُ اللَّـهُ نَفْسـاً إِلاَّ وُسْـعَهَا﴾ [البقرة:286].

4- قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: 102] وقد نسخت بقوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: 16].

5- قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِم مَّتَاعاً إِلَى الحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾[البقرة: 240] هذه الآية تبين عدة المتوفى عنها زوجها، فقد أوجبت على المتوفى عنها زوجها ألا تخرج من بيتها الذي توفي عنها فيه إلا في تمام الحول، وبه تخرج من العدة، ثم نسخ حكم هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾ [البقرة:234]، فحل الاعتداد بأربعة أشهر وعشر محل الاعتداد بالحول في حال الوفاة.

6- قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة:12] حيث أوجبت تقديم صدقة لمن يستحقها على من يريد مناجاة الرسول –صلى الله عليه وسلم– ثم نسخ هذا الوجوب بقوله جلت حكمته ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [المجادلة: 13][1].

ثانيا: نسخ الحديث بالحديث:

وقع نسخ الحديث بالحديث، ومن أمثلة ذلك:

1–عن جابر بن عبد الله –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: ((إن من شرب الخمر فاجلدوه فإن عاد في الرابعة فاقتلوه)) قال ثم أتي النبي –صلى الله عليه وسلم– بعد ذلك برجل قد شرب الخمر في الرابعة فضربه ولم يقتله، وكذلك روى الزهري عن قبيصة بن ذويب– رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– نحو هذا. قال: فرفع

(1) الوسيط في أصول الفقه – للمؤلف– 392 وما بعدها.

القتل وكانت رخصة والعمل على هذا الحديث عند عامة أهل العلم لا نعلم بينهم اختلافاً في ذلك في القديم والحديث[1].

2- كما ثبت عن الرسول –صلى الله عليه وسلم– أنه نهى عن زيارة القبور؛ حفظاً لجانب التوحيد، وسدّاً لذريعة الشرك، وقطعاً للتعلق بالأموات كي لا تتخذ قبورهم مساجد، وعندما تمكّن التوحيد من القلوب وزال عامل التخوف من الشرك أذن في زيارتها، لأن الزيارة حينئذ من شأنها أن تزيد الإيمان قوة، وأن تعلق الإنسان بدار البقاء، حيث ورد عن سليمان بن بردة عن أبيه قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((قد كنت نهيتكم عن زيارة القبور فقد أذن لمحمد في زيارة قبر أمه فزوروها فإنها تذكّر الآخرة))[2]

قال أبو عيسى: حديث بريدة حديث حسن صحيح والعمل على هذا عند أهل العلم، لا يرون بزيارة القبور بأساً، وهو قول ابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق.

وواضح أن الإذن بعد الحظر نسخ لما كان محظوراً.

3- يدل على النسخ أيضاً ما رواه الربيع بن سبره الجهني أن أباه حدثه أنه كان مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقال –عليه الصلاة والسلام–: ((يا أيها الناس إني قد كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة فمن كان عنده منهن شيء فليخلِّ سبيله ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً))[3].

في هذا الحديث التصريح بالمنسوخ والناسخ في حديث واحد من كلام رسول الله –صلى الله عليه وسلم–.

---

(1) سنن الترمذي – كتاب الحدود – باب ما جاء في من شرب الخمر فاجلدوه –18/6– حديث رقم 1515.

(2) سنن الترمذي – كتاب الجنائز – باب ما جاء في الرخصة في زيارة القبور –370/3 حديث رقم 1054.

(3) صحيح سلم – كتاب النكاح – باب نكاح المتعة وبيان أنه أبيح ثم نسخ –230/2 حديث رقم –1406.

ثالثاً: نسخ الحديث بالقرآن:

من أمثلة نسخ الحديث بالقرآن ما يلي:

1- نسخ التوجه إلى بيت المقدس الثابت بالسنة العملية بالتوجه إلى بيت الله الحرام الثابت بقوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ﴾ [البقرة: 144].

2- كانت مباشرة الرجل لزوجته في ليالي رمضان محرمة بالسنة النبوية ثم نسخت الحرمة بقوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: 187].

3- التزم الرسول -صلى الله عليه وسلم- بمقتضى صلح الحديبية بأن يُرجع إلى المشركين من يأتيه من مكة مسلماً، وتنفيذاً لذلك رجّع أبا جندل وجماعة آخرين من الرجال، لكنه أمر بأن لا يلتزم بذلك عندما التحقت به امرأة مؤمنة، ونسخ ذلك الحكم بقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الكُفَّارِ﴾ [الممتحنة: 10].

4- تأخير الصلاة إلى انجلاء المعارك كان جائزاً بالسنة المطهرة لكنه نسخ بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: 102] فصار أداء الصلاة واجباً في وقتها، أيّا كانت الظروف، ولا يجوز تأخيرها عن وقتها ولو كانت المعركة محتدمة بين المسلمين والكفار، وعلى قائد الجيش أن يقسم جنوده على الشكل الذي أوضحته هذه الآية، وهذه الصلاة هي المسماة بصلاة الخوف.

هذه الأمثلة تبين نسخ القرآن للحديث وهو ما يراه جمهور العلماء، وفي أحد قولين عن الشافعي ما يدل على مخالفته للجمهور فيما ذهبوا إليه، وهو محجوج بما ذكرنا وبخاصة المثال الأول من الأمثلة المذكورة[1].

رابعاً: نسخ القرآن بالحديث:

يرى جمهور العلماء ومنهم مالك بن أنس وأحمد بن حنبل في إحدى الروايتين عنه وأصحاب أبي حنيفة وجمهور المتكلمين أشاعرة ومعتزلة جواز وقوع نسخ القرآن بالحديث المتواتر.

- أما الجواز فقد استدلوا عليه بدليل عقلي مجملهُ:

- أن النبي –صلى الله عليه وسلم– لا ينطق عن الهوى كما يصرح بذلك القرآن الكريم، وهو مأمور بتبيين ما أنزل من الذكر، والنسخ لا يخرج عن كونه بياناً، فهو كما يكون بالقرآن يمكن أن يكون بالحديث الموحى به، والذي ثبت بالتواتر.

- كما استدلوا على الوقوع بما يأتي:

1- إن الوصية للوالدين والأقربين الثابتة بالقرآن نسخت بقول الرسول –صلى الله عليه وسلم–: ((إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث))[2].

2- إن جلد الزاني الثابت بقوله تعالى: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: 2] نسخ في حق المحصن بالرجم الثابت بالسنة العملية.

3- قال تعالى: ﴿ وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي البُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ المَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ

---

(1) ينظر الوسيط في أصول الفقه – للمؤلف –413 وما بعدها.

(2) سنن ابن ماجه – كتاب الوصايا – باب لا وصية لوارث –905/2– حديث رقم 2713.

لَهُنَّ سَبِيلاً﴾ [النساء: 15] فقد نسخت بقوله –صلى الله عليه وسلم–: ((خذوا عني خذو عني قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة والثيب بالثيب جلد مائة والرجم))[1] فقد أصبحت عقوبة الزاني والزانية بمقتضى نص الحديث الشريف الجلد والتغريب أو الجلد والرجم، ونسخ الامساك في البيوت حتى الموت للإناث، والأذى بالقول للرجال، وهو ما كان ثابتاً بالآية الكريمة.

وخالف الإمام الشافعي وأكثر أصحابه وأكثر علماء المذهب الظاهري وأحمد في إحدى الروايتين عنه فقالوا بعدم جواز نسخ القرآن بالحديث المتواتر، واستدلوا على ذلك بأدلة، نذكر منها:

أ- أن قوله تعالى: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: 106] يُعتبر دليلاً على أن الناسخ لابد أن يكون خيراً أو مماثلاً على الأقل للمنسوخ، والحديث لا يكون كذلك، فلزم أن لا يكون ناسخاً، بالإضافة إلى قوله "نأت" فيه ما يدل على أن الناسخ لا يكون إلا منه سبحانه وتعالى.

وقد أجيب عن ذلك: بأن الخيرية والمثلية يراد بهما ما يحصل من الأجر والمثوبة والنفع أو اليسر والسهولة ودفع المشقة، إذ لو أريد بهما غير ذلك لما صح أيضاً النسخ بالقرآن، لأن بعضه ليس خيراً من بعضه الآخر من الحيثية التي يعنيها أصحاب الدليل.

كذلك اسناد الإتيان إليه في قوله ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ لا يدل على أن الحديث لا يكون ناسخاً لأنه أيضاً من عند الله مثل القرآن، بدليل قوله تعالى في شأن نبيه –صلى الله عليه وسلم–: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى۞ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: 3–4] وقوله: ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾[الأحقاف: 9].

---

(1) صحيح مسلم – كتاب الحدود – باب حد الزنى – 1316/3– حديث رقم 1690.

ب- استدلوا أيضاً بقوله تعالى عن نبيه -عليه الصلاة والسلام-: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾[يونس: 15] حيث نفى أن يحصل منه -صلى الله عليه وسلم- تبديل، وبما أن النسخ تبديل فإن حصوله منه يكون منْفيا هو الآخر بصريح الآية المذكورة.

وقد رد عليهم: بأن المنفي حصول التبديل من تلقاء النفس، والنسخ بالحديث تبديل من عند الله لأنه وحي وليس تبديلاً من تلقاء النفس كما فهم المستدلون[1].

والذي يظهر لي بكل وضوح أن القول بجواز نسخ القرآن بالحديث المتواتر هو الذي ينبغي التعويل عليه؛ لأنه لا يترتب عليه أي محذور.

أما نسخ القرآن بحديث الآحاد فلم يقل به إلا داوود الظاهري وبعض أتباعه؛ لأن القرآن قطعي الثبوت وحديث الآحاد ظني، والظني لا يقوى على القطعي، ومن قال بجواز ذلك لهم أدلتهم فيمكن الرجوع إليها في كتاب الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم.

الفرع الثالث: ما يرجع إلى السند:

ما تقدم ذكره بإيجاز هو ما يرجع على المتن:

أما ما يرجع إلى السند فنوجز فيه القول على الوجه الآتي:

وذلك أن من السند ما يستوجب العمل بما يأتي به وهو المسمى بالحديث الصحيح والحديث الحسن، ومنه ما لم يكن كذلك وهو ما يسمى بالحديث الضعيف.

وتفصيل ذلك يتّضح مما يلي:

أولاً: الحديث الصحيح: وهو" الحديث المسند الذي يتصل إسناده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط إلى منتهاه ولا يكون شاذاً ولا معللاً"[2].

---

(1) ينظر الوسيط في أصول الفقه – للمؤلف – ص 415 وما بعدها.

(2) مقدمة ابن الصلاح وشرحها المسمى التقييد والإيضاح – ص 7.

والمراد بالشاذ: ما كان فيه مخالفة لما نقله الجماعة[1].

أما المعلل: فهو الذي اكتشفت فيه علّة خفية تقدح في صحته، وإن كان يبدو في الظاهر سليماً من العلل[2].

ومن خلال هذا التعريف يتم الاحتراز عما لا يكون كذلك مما ذكره علماء هذا الفن من المرسل والمنقطع والمعضل والشاذ وما فيه علّة قادحة، وما في روايته نوع جرح.

والعمل بالحديث الصحيح محل اتفاق بين العلماء، وهو يمثل أعلى درجات الحديث.

ومتى وصف الحديث بالصحة فمعناه أن سنده متصل وتحققت فيه جميع الأوصاف التي ذُكِرت في تعريفه.

والحديث الصحيح ينقسم إلى صحيحٍ لذاته وصحيحٍ لغيره، فالصحيح لذاته ما توفرت فيه جميع الشروط التي تضمنها التعريف، والصحيح لغيره ما لم يشتمل على أعلى الشروط المذكورة لكنه صحيح لأمر أجنبي عنه، ويمكن أن يقال – أيضاً– هو: ما اتصل سنده برواية عدل قلّ ضبطه ولمّ ولم يعلّ، وهو ما يسمى بالحسن لذاته.

ثم إن الصحيح يمكن أن يوصف بأنه متواتر أو آحاد أو مشهور أو غريب.

فالمتواتر هو ما رواه عدد من تابعي التابعين عن التابعين عن الصحابة عن النبي –صلى الله عليه وسلم– يستحيل اتفاقهم على الكذب لكثرتهم وعدالتهم[3].

والآحاد: هو ما انخرم فيه التواتر في إحدى طبقاته غير طبقة الصحابة[4].

---

(1) ينظر مقدمة ابن الصلاح – ص 7.

(2) علوم الحديث – صبحي الصالح – ص 146.

(3) ينظر البواقيت والدرر في شرح نخبة ابن حجر – عبدالرؤوف المناوي –(952–1013). مكتبة الرشد – الرياض–1999م–237/1 وما بعدها، الوسيط في أصول للفقه – للمؤلف– ص 82.

(4) الوسيط في أصول الفقه – للمؤلف– ص 83.

والمشهور هو ما فُقد فيه عنصر التواتر في طبقة الصحابة فقط، وبعبارة أخرى: ما اشترك في روايته جماعة عن شيخٍ ثقة[1].

والغريب هو: ما تفرد بروايته واحد ثقة في إحدى طبقاته[2].

ثانياً: الحديث الحسن: هو ما اتصل سنده بنقل عدْل خفيف الضبط وسلم من الشذوذ والعلة[3].

وينقسم إلى حسن لذاته وحسن لغيره:

فإذا ذكر الحسن من غير قيد فالمراد به الحسن لذاته، وهو ما تقدم تعريفه.

أما الحسن لغيره: فهو ما كان في إسناده مستور الحال لم تتحقق أهليته غير مغفل ولا كثير الخطأ في روايته، ولا متهم بتعمد الكذب، واعتضد بمتابع أو شاهد[4].

والحديث الحسن أكثر تواجداً على أرض الواقع من الصحيح، قال ابن الصلاح في مقدمته عنه: "وهو الذي يقبله أكثر العلماء ويستعمله عامة الفقهاء"[5].

ومما هو معروف لدى علماء هذا الفن أن الصحيح والحسن يشتركان في ألقاب تعني القبول والرضا، وهي: الجيد، والمُجوّد، والقوي، والثابت، والمحفوظ، والمعروف، والصالح، والمستحسن، والحكم بالصحة والحسن على أحد الأسانيد لا يلزم منه الحكم بذلك على المتن فقد يكون شاذاً أو معللاً[6].

ثالثاً: الحديث الضعيف: أُثر عن السابقين وهم يعرفون الأمور فيذكرون تعاريف لأمور معينة، ثمّ يقولون لما يقابلها أو لقسيمها في تعريفه: وبضدها تتميز الأشياء،

---

(1) ينظر- علوم الحديث- صبحي الصالح- ص 140 وما بعدها.

(2) ينظر علوم الحديث – صبحي الصالح – ص 147 ما بعدها.

(3) ينظر ألفية السيوطي في علم الحديث – السيوطي-6.

(4) توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار – الأمير الصنعاني (182هـ) -دار الكتب العلمية -170/1.

(5) مقدمة ابن الصلاح -31.

(6) علوم الحديث – صبحي الصالح -ص 164.

فكذلك هنا بعد ما عرفنا الصحيح والحسن نقول بضدهما يتميز الضعيف، وهو الحديث الذي أختل فيه شرط من شروط الصحيح والحسن.

وقد ذكر ابن الصلاح أن أبا حاتم بن حيان أطنب في تقسيمه فبلغ به خمسين إلا واحداً[1].

وهو يتنوع إلى:

مرسل، ومنقطع، ومعضل، ومدلس، ومعلل، ومضطرب، ومقلوب، وشاذ، ومنكر، ومتروك.

- فالمرسل هو: ما سقط من رواته الصحابي كأن يقول التابعي: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–.
- والمنقطع هو: ما اختل منه رجل قبل التابعي محذوفا كان أو مبْهما.
- والمعضل: هو ما سقط من إسناده راويان فأكثر، ويسمى منقطعاً أيضاً.
- والمدلس: هو ما روى فيه الراوي عمن عاصره ما لم يسمع منه موهماً سماعه، ويقال أيضاً: لمن يسمي شيخه أو يكنيه أو ينسبه أو يصفه بما لا يُعْرَف.
- والمعلل: هو ما كانت فيه علة خفية قادحة مع أن الظاهر السلامة منها.
- والمضطرب: هو ما يروى على أوجه مختلفة متقاربة، فإن رجحت رواية على غيرها صار غير مضطرب، وقُضي للرواية الراجحة بما روت.

وقد يكون سبب الاضطراب في السند وقد يكون في المتن أو يكون فيهما.

- والمقلوب: هو أن يكون الحديث مشهوراً براوٍ فيسقط ويجعل مكانه راوٍ آخر من طبقته، أو يؤخذ اسناد حديث فيجعل لحديث آخر.
- الشاذ: سبق تعريفه.

---

(1) مقدمة ابن الصلاح –48.

- والمنكر هو الحديث الذي ينفرد به الرجل ولا يعرف متنه من غير روايته لا من الوجه الذي رواه منه ولا من وجه آخر.

وقيل في تعريفه أيضاً: هو الحديث الذي يرويه الضعيف مخالفاً رواية الثقة[1].

- والمتروك: هو ما كان راويه معروفاً بالكذب أو الفسق أو الغفلة أو الوهم الكثير[2].

الفرع الرابع: الجرح والتعديل.

تفرد المسلمين بعلم الجرح والتعديل

- ما قدمناه هو ما يتعلق بالصحيح والحسن والضعيف، أما الآن فيأتي الكلام من جهة مراتب نقلة الحديث من الصحابة والتابعين، وتفاوتهم في ذلك وتميزهم فيه واحداً واحداً، وهو ما يسمى بعلم الجرح والتعديل.

فنقول:

المتتبع لتاريخ عظماء الأمم من أنبياء وغيرهم لا يجد أحداً منهم حظي ما صدر عنه من أقوال وأفعال بقدر ما حظيت به أقوال وأفعال نبينا محمد –صلى الله عليه وسلم– من الرعاية والعناية، حيث هيأ الله لها علماء أجلاء كرسوا جهودهم في الحفاظ عليها وتتبع ما صح منها وما لم يصح، وتصوير الحال التي كان عليها الرسول –صلى الله عليه وسلم– من كونه قائماً أو قاعداً، مبتسما أو غير مبتسم، في بيته أو في المسجد أو خارجهما، في السلم أو الحرب، كما

---

(1) ينظر في تعريف هذه الأقسام:المقدمة – لابن الصلاح وشرحها المعروف بالتقييد والإيضاح– لزين الدين عبد الرحيم بن الحسن العراقي – ص 55 وما بعدها، تدريب الراوي – للسيوطي – ص 219 وما بعدها، علوم الحديث – صبحي الصالح –ص 203 وما بعدها.

(2) ينظر: ألفية السيوطي في علم الحديث –13.

حرصوا على صيغة القول الذي صدر عنه –صلى الله عليه وسلم– فتتبعوا دقة العبارة لفظاً ومعنى؛ لأنهم يعلمون أن كل ما يصدر عنه هو تشريع لهم، مبلَّغ عن الله، لابد من التثبت فيه والحفاظ عليه، كما صدر عن صاحبه المعصوم.

وقد وصل حرص هؤلاء العلماء على حديث الرسول –صلى الله عليه وسلم– الذي يعدّ المصدر الثاني من مصادر التشريع – بأن تتبعوا سلسلة رواته باهتمام عظيم ودقة متناهية، حيث أمعنوا النظر في كل ما يتعلق بالراوي، من ذلك اهتمامهم بمعرفة اسمه ونسبه وسيرته وتاريخ ميلاده ووفاته، واهتموا على وجه الخصوص ببيان درجة إيمانه وخُلقه وصدقه ومروءته، فبينوا الثِقات من غيرهم، وحددوا الضعفاء ممن سواهم من متروكين ومدلسين ووضاعين[1].

ونذكر أمثلة لكل ذلك فنبدأ بذكر مجموعة من الثقات من الصحابة والتابعين وتابعيهم.

فمن الصحابة:

1–عائشة بنت أبي بكر الصديق –رضي الله عنها– زوجة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وأم المؤمنين، الصديقة بنت الصديق، كنيتها أم عبدالله (توفيت سنة 57هـ)[2].

2–عبدالله بن عمر بن الخطاب، كنيته أبو عبدالرحمن، (توفي سنة 73هـ)[3].

3–عبد الله بن عمرو بن العاص وكنيته أبو محمد وقيل أبو نصر، كان بينه وبين أبيه ثلاث عشرة سنة (توفي سنة 72هـ)[4].

---

(1) الحديث والمحدثون – للشيخ محمد أبو زهو –ط1 – ص 454.

(2) الثقات – لابن حبان 323/3، معرفة الثقات – أحمد بن عبد الله بن صالح أبو الحسن العجلي الكوفي – مكتبة الدار – المدينة –1405هـ–1985م –435/2.

(3) الثقات– لابن حبان –209/3.

(4) نفس المصدر –211/3.

4-عبد الله بن مسعود بن الحارث، هذلي سكن الكوفة، وهو أفقه الصحابة وأقرؤهم للقرآن، بعثه عمر إلي الكوفة (توفي سنة 32هـ)[1].

5-أبو هريرة: صاحب جِرابَىْ العلم في الظاهر والباطن وهو من المكثرين في رواية الحديث، وروى عنه سعيد بن المسبب وأبو سلمة بن عبد الرحمن[2].

ومن التابعين:

1-نافع مولى عبد الله بن عمر: كنيته أبو عبد الله (توفي سنة 117هـ).

2-سعيد بن جبير بن هشام مولى بني والبة بن الحارث، يروي عن ابن عمر وابن عباس، كنيته أبو عبد الله، قتله الحجاج سنة 95هـ وعمره 49 سنة.

3-سعيد بن المسبب المخزومي القرشي، كنيته أبو محمد، ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر، وكان سيد التابعين في زمانه وأفقه أهل الحجاز (توفي سنة 94هـ).

4-مالك بن دينار، مولى لبني ناجية بن أسامة القرشي، كنيته أبو يحي من أهل البصرة، يروي عن أنس بن مالك، وكان من زهاد التابعين والأخيار، (توفي سنة 130هـ).

5-إبراهيم بن سعيد بن أبي وقاص الزهري المدني يروي عن أبيه وعن أسامة بن زيد[3].

ومن تابعي التابعين:

1-مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن ذي أصبح، كنيته أبو عبد الله من أهل المدينة، كان يروي الحديث عن الزهري ونافع وعبد الله بن دينار (94-179هـ) وروى عنه الثوري والأوزاعي والليث بن سعد والحمدان

---

(1) الثقات لابن حبان -208/3- معرفة الثقات - العجلي -59/2.

(2) معرفة الثقات - العجلي -933/2.

(3) ينظر الثقات - لابن حبان -5/4، 273،275، 383،467/5.

وابن عيينة، وكان أول من كتب كتاباً متكاملاً في الحديث وهو كتابه الموطأ.

2-إبراهيم بن نافع المكي، كنيته أبو إسحاق المخزومي، يروي عن عطاء بن رباح، روى عنه ابن عيينة.

3-الربيع بن مالك بن أبي عامر الأصبحي، عم مالك بن أنس، كنيته أبو مالك يروي عن المدنيين (توفي سنة 160هـ).

4-عبد الله بن سعيد بن جبير، مولى والبة الأسدي، يروي عن أبيه، روى عنه أيوب السختياني.

5-عبدالله بن المبارك، مولى بني حنظلة، من أهل مرو، كنيته أبو عبد الرحمن يروي عن إسماعيل بن أبي خالد، وحميد الطويل، وعاصم الأحول، روى عنه أهل العراق وخرسان، (118-181هـ)[1].

- **أما المدلسون** فهم من يقومون بالتدليس الذي عُرّف بأنه: ما كان قائماً على إخفاء العيب، ثم إن المدلسين منهم المكثر ومنهم المقل ومنهم من هو وسط بين ذلك ومنهم من لم يدلس إلا نادراً.

- **ونكتفي بذكر بعضٍ منهم:**

1-الحسين بن واقد المروزي أحد الثقات من أتباع التابعين، وصفه الدار قطني وأبو يعلى الخليلي بالتدليس.

2-حفص بن غياث الكوفي القاضي، أحد الثقات من أتباع التابعين وصفه أحمد بن حنبل والدار قطني بالتدليس.

3-شباك الضبي صاحب إبراهيم النخعي مشهور من أهل الكوفة وصفه بالتدليس الدار قطني والحاكم.

---

(1) الثقات لابن حبان، 5/6، 297، 7/4، 459.

4-بشير بن المهاجر الغنوي، كوفي، من صغار التابعين، قال ابن حبان في الثقات: كان يدلس.

5-الحكم بن عتيبة، تابعي صغير من فقهاء الكوفة مشهور، وصفه النسائي بالتدليس وحكاه السلمي عن الدار قطني.

6-محمد بن حازم الكوفي أبو معاوية الضرير مشهور بكنيته، معروف بسعة حفظه، وصفه الدار قطني بالتدليس.

وغير هؤلاء كثير، وبذلك ننتهي مما رأينا ذكرهم من الثقات والمدلسين.

ونردف على ذلك الكلام على مراتب التعديل والتجريح فنقول:

لألفاظ الجرح والتعديل مراتب شتى:

- **فأما ألفاظ مراتب التعديل فهي:**

1-إذا قيل عن الشخص إنه ثقة أو متقن ثَبْت فهو ممن يحتج بحديثه.

2-إذا قيل إنه صدوق أو محله الصدق أو لا بأس به، فهو ممكن يكتب حديثه وينظر فيه، وهي المرتبة الثانية.

3-إذا قيل شيخ فهو بالمنزلة الثالثة، يكتب حديثه وينظر فيه، إلا أنه دون الثانية.

4-إذا قيل صالح الحديث فإنه يكتب حديثه للاعتبار.

هذه مراتب التعديل:

- **أما ألفاظ مراتب الجرح فهي:**

1-إذا وصف المحدث بأنه ليّن الحديث فهو ممن يكتب حديثه وينظر فيه اعتباراً.

2-إذا قالوا ليس بقوي فهو بمنزلة الأوّل في كتب حديثه إلا أنه دونه.

3-إذا قالوا ضعيف الحديث فهو دون الثاني لا يطرح حديثه بل يعتبر به.

4-إذا قالوا متروك الحديث أو ذاهب الحديث أو كذاب، فهو ساقط الحـــديث لا يكتب حديثه، وهي المنزلة الرابعة[1].

وبذلك صار هذا العلم متكاملاً وتبوأ منزلة رفيعة ضمن العلـــوم الشـــرعية ويسمى بعلم الجرح والتعديل، كما سمي بعلم ميزان الرجال[2].

وهو العلم الذي اختصت به الحضارة الإســـلامية دون ســـواها، والمـــراد بالجرح والتعديل: هو العلم الذي يبحث عن الرواة من حيث ما ورد في شأنهم مما يزكيهم أو يشينهم بألفاظ مخصوصة[3].

فيقال مثلاً فلان صدوق أو فلان لا بأس به، كما يقال فلان متروك الحديث لأنه عرف بالكذب أو بالتدليس.

وبالرغم من أن قواعد هذا العلم عُرفت من عهد الصحابة، حيث تكلم فيـــه كثير منهم، ومن بينهم ابن عباس (ت68هـــ)، وأنس بن مالك (ت93هـــ) وعبادة بن الصامت (ت34هـــ) -رضي الله عنهم-، ومن التابعين ســـعيد بـــن المســـيب (ت93هـــ)، وعامر الشعبي (ت104هـــ)، وابن سيرين (ت110هـــ)، ومما يليهم مالك بن أنس (179هـــ)، وسفيان بن عينية (ت197هـــ)، وأحمـــد بـــن حنبـــل (ت241هـــ)، وغيرهم كثير فلم تعرف له تسمية إلا بظهور التأليف فيه.

حيث ألفت كتب كثيرة في هذا العلم مـــن بينهـــا الطبقـــات لابـــن ســـعد (ت235هـــ) في 15 مجلداً، وكتاب التواريخ الثلاثة للبخاري، وكتاب في أوهـــام أصحاب التواريخ لابن حبان، وقد خص بعض العلماء التأليف في رجال محـــددين تعديلا وتجريحاً وتوثيقاً وتضعيفاً، فقد ألف في الثقات العُجَلي (ت36هـــ)، وزيـــن

---

(1) ينظر أجوبة الحافظ أبو محمد عبد العظيم المنذري عن أسئلة في الجرح والتعديل- أبو محمد عبد العظيم المنذري المصري، مكتب المطبوعات الإسلامية- حلب- ط أولى -1411هـــ - تحقيق عبد الفتاح أبـــو غدة- ص 53.

(2) الحديث والمحدثون - محمد أبو زهو- ص 454.

(3) علوم الحديث ومصطلحه- صبحي الصالح- ص109.

الدين قاسم (ت879هـ)، وممن ألف في الضعفاء والمتروكين البخاري (256هـ)، وأبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي (ت597هـ)، وقد ألف في التدليس الحسين بن علي الكرابيسي [1].

(1) الحديث ومصطلحه- ص 109-110- الحديث والمحدثون- ص461-462.

المطلب الرابع: علوم الفقه وأصوله.

يتم الحديث في هذا المطلب بشيء من الإيجاز عن علوم: الأصول والفقه والميراث والحساب، وذلك من خلال الفروع الآتية:

الفرع الأول: علم أصول الفقه:

يعتبر علم أصول الفقه علماً مستحدثاً كما قال ابن خلدون –رحمه الله–: "وأعلم أن هذا الفن من الفنون المستحدثة في الملة، وكان السلف في غنية عنه، بما أن استفادة المعاني من الألفاظ لا يحتاج فيها إلى أزيد مما عندهم من الملكة اللسانية"[1] فلما طرأ على الملكة ما يضعفها وصعب الحفاظ على السند الذي كانوا يعتمدون عليه في نقل ما عند السلف احتاجوا إلى ضبط وتحصيل قواعد هذا الفن وقوانينه لاستفادة الأحكام من الأدلة، فكتبوها فناً قائماً برأسه سمَّوه أصول الفقه[2].

ويرى بعض العلماء أن الأمام أبا حنيفة وتلميذيه أبا يوسف ومحمد ابن الحسن الشيباني هم أول من كتبوا فيه، ولكن جمهور العلماء يقولون: إن أول من جمع شوارد وقواعد وجزئيات هذا العلم في سفر واحد سماه علم أصول الفقه هو الإمام محمد بن إدريس الشافعي، بناءً على طلب شيخ المحدثين عبد الرحمن بن مهدي، فاستجاب محمد بن إدريس الشافعي لهذا الطلب، وكتب إليه ما أراد في سفر ضخم سماه الرسالة، وقد ضمّنه بيان الأحكام الشرعية وكيف يكون؟ كما تكلم عن القرآن الكريم من عدة أوجه والأوامر والنواهي والبيان والخبر، وأبان الناسخ والمنسوخ والفرائض التي أنزلها الله نصّاً، وعلل الأحاديث النبوية وخبر الآحاد

(1) مقدمة ابن خلدون – دار الشعب– 420.

(2) ينظر مقدمة بن خلدون – 420.

والإجماع والقياس والاستحسان والاجتهاد واختلاف العلماء، كما كتب جماع العلم، وإبطال الاستحسان، ومناقشة من ينكر الحديث[1].

وقد عرف بأنه: "القواعد التي يتوصل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية من الأدلة التفصيلية"[2].

فمهمته إذاً الوصول إلى الأحكام الشرعية لكل ما يجدُّ من الأحداث ولم يكن له حكمٌ شرعي مقرر، وهو علم عظيمُ الفائدة، رفيع المكانة؛ لأنه أصل للفقه الذي عرّف بأنه: الأحكام الشرعية العملية المكتسبة من الأدلة التفصيلية، والذي قال فيه الرسول –صلى الله عليه وسلم– فيما رواه معاوية بن أبي سفيان–رضي الله عنه: ((من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين....))[3].

وهو يقوم على قواعد وضوابط اصطلح العلماء على تسميتها بمصادر التشريع تارة وبأصول الأدلة الشرعية[4] تارة أخرى، ومن هذه المصادر ما هو محل اتفاق وهو ما يرجع إلى الوحي المتلوّ المنحصر في القرآن الكريم، وفي الوحي غير المتلوّ وهو السنة النبوية المطهرة، وكذلك ما أجمع عليه علماء الأمة الإسلامية، وهذه المصادر الثلاثة مصادر نقلية، فبالنسبة للقرآن الكريم جميع آياته وكلماته وحروفه وصلت إلينا بالنقل المتواتر الذي لا يداخله شك ولا يرد إليه ريب، وقد تحدى جميع العرب أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله فعجزوا عن ذلك، فكان معجزة قاطعة، أما السنة النبوية فمنها المتواتر وحكمه في ثبوت القطع بصحته وصحة نقله كالقرآن الكريم يكفر من أنكر شيئاً من ذلك متعمداً غير متأول، ومن السنة ما لم يرقَ في نقله إلى درجة التواتر، وهو أحاديث الآحاد فما

---

(1) المصدر السابق –420، الوسيط في أصول الفقه– للمؤلف –22، 23.

(2) الوسيط في أصول الفقه – للمؤلف –15.

(3) صحيح البخاري – كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة –2267/6– حديث رقم 6882، صحيح مسلم– كتاب الزكاة – باب النهي عن المسألة –296/6– حديث رقم 2439.

(4) مقدمة ابن خلدون –418.

صح منها وجب العمل به، اعتماداً على ما كان عليه العمل في حياته – صلوات الله وسلامه عليه– من انفاذ الكتب والرسل الآحاد إلى النواحي بالأحكام والشرائع آمراً وناهياً[1].

وما توجه إليه منها نقد كان محل خلاف في العمل به حسب النقد الذي وجه إليه، وما أجمعت عليه الأمة من الأحكام الشرعية إجماعاً صريحاً كان واجب العمل به –أيضاً–؛ لأنهم لا يجمعون على باطل؛ لثبوت عصمتهم فيما أجمعوا عليه.

واختلف في الاعتداد بالإجماع غير الصريح وتفريع الأحكام عليه، فمن العلماء من اعتد به وأثبت به الأحكام، ومنهم من رد ذلك.

ومن المصادر التي نالت اتفاق علماء الأمة أيضاً: القياس الذي يستجمع أركانه وشروطه، فالجمهور على الاعتداد به وخالف في ذلك شذوذ من مثل الخوارج والظاهرية والنظَّام وهم محجوجون لا يلتفت إلى قولهم، فإن الأدلة على اعتبار حجية القياس ثابتة بالقرآن الكريم وبالسنة النبوية العملية والقولية، وبإجماع من يعتد بإجماعهم، وللمخالفين في حجية القياس واعتباره مصدراً تشريعياً شبه لا تقف أمام حجج وأدلة القائلين بحجيته.

وقد جرى خلاف بين علماء الأمة في عدد من المصادر التي سميت عند بعضهم بالمصادر التبعية أو المصادر المختلف فيها، ومنها: إجماع أهل المدينة المنورة، وقول الصحابي، وشرع من قبلنا، والاستحسان، والمصالح المرسلة، وسد الذرائع.

فمنهم من اعتد بها أو ببعضها، ومنهم من ردها، ولكل أدلته، وهي في الواقع عند التدقيق لا يصعب إرجاعها إلى المصادر الأربعة المتفق عليها صراحةً أو ضمناً.

---

(1) ينظر مقدمة ابن خلدون –419.

ولمعرفة دلالات الألفاظ دور مهم في الوصول إلى الأحكام الشرعية، فإن دلالة العام غير دلالة الخاص، ودلالة المطلق غير دلالة المقيد، ودلالة الأمر غير دلالة النهي، ودلالة المشترك غير دلالة المفرد، فتنزيل هذه الألفاظ منازلها عند إعطاء الحوادث والمناسبات ما تستدعيه من أحكام يحتاج إلى تطبيق دلالات الألفاظ تطبيقاً سليماً، فإذا كان للعام ما يخصصه لابد من اعتبار ذلك فلا يحمل على عمومه، وإن كان للمطلق ما يقيده فلا بد من الاعتداد بذلك، والأمر يحمل على الوجوب متى انعدمت القرينة الصارفة عنه، وهل يحمل على الفور أو التراخي؟ خلاف، والنهي يدل على وجوب ترك المنهي عنه وحرمة الإتيان به، وهل يقتضي الفساد أو الصحة؟ خلاف، ثمّ إن المشترك لا يجوز حملهُ على معنييه أو معانيه في آن واحد، والعطف بالواو يقتضي مجرد المشاركة بين المعطوف والمعطوف عليه، فهو لا يقتضي ترتيباً ولا تعقيباً، بخلاف العطف بثم وبالفاء، وللعلة دور مهم في هذا العلم وفيما تؤديه وهل تثبت قياساً أو لا تثبت؟

وبالرغم من أن دلالات الألفاظ بجميع جزئياتها هي من علوم اللغة لكن يحتاج إليها في علم الأصول، وعالم الأصول لا يكون أصولياً إلا بحذْق جزئياتها ومعرفة استعمالاتها، وبقدر الإحاطة بها يكون دوره في أداء مهمته في علم الأصول.

ومعرفة أركان القياس واستعمالاته وإدراك علة الحكم ووجودها فيما يشبه ما وجدت فيه أصلا دور مهم في إلحاق الشبيه بالشبيه وإعطائه حكم ما يشبهه.

ولمقاصد الشرع من تشريعه للأحكام دورٌ مهمٌّ في الاعتداد بها وتفريع الأحكام عليها، وبخاصة ما فرضته الحضارة الحديثة والظروف الاجتماعية الحالية وما وصلت إليه البشرية من تقدم في كثيرة من جوانب الحياة، التي لم تعرف قبل تفجر ينابيع المدّ الحضاري والتكنولوجي.

وبفضل المجامع العلمية الفقهية الحالية أمكن أن يصل علماء الأمة الإسلامية إلى تحقيق قول الله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل من الآية 89] وإلى قول نبينا –عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام– ((تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة نبيه))[1].

الفرع الثاني: علم الفقه:

عُرّف الفقه في اللغة بأنه: الفهم، وقد وورد في القرآن الكريم بهذا المعنى، قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿ فَمَالِ هَؤُلاءِ القَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾ [النساء78].

وهو في مصطلح أصحابه: "العلم بالأحكام الشرعية الفرعية عن أدلتها التفصيلية بالاستدلال"[2]، وعُرّف أيضاً بأنه: "معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهة والإباحة"[3].

وهذه الأحكام تؤخذ بالاجتهاد من القرآن والسنة وبقية المصادر المعتمدة عند أصحاب هذا العلم، فما أُخذ من المصادر المذكورة استنباطاً يسمى فقهاً، وحيث إن من المصادر ما يرجع إلى اللفظ واللفظ حمال أوجه من المعاني فيقع فيه الاختلاف، لأنه ورد بلغة العرب، وللغة العرب معانٍ متعددة، واللفظ القرآني والنبوي هو طريق الفهم الذي يطبق على أفعال العباد فلا بدّ أن يقع فيه الاختلاف، ثم إن درجة قبول السنة النبوية واختلاف تَمَكُنِ الناظرين من معانيها وتطبيقها على أفعال العباد هو أيضاً مدعاةٌ للاختلاف.

وكان الصحابة–رضوان الله عليهم– هم المعاصرون لنزول القرآن الكريم والناقلون للسنة النبوية والفاهمون للغتهما، ولكنهم لم يكونوا كلهم فقهاء ولا مفتين،

---

(1) الموطأ للإمام مالك– كتاب القدر –باب النهي عن القول بالقدر – 899/2– حديث رقم 1594.
(2) رفع الحاجب عن مختصر بن الحاجب – السبكي (ت–646هـ) عالم الكتب–1419هـ–244/1.
(3) مقدمة ابن خلدون –410.

وإنما اختصّ بالفقه والفُتيا من حفظ القرآن وعَرَفَ ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه وعامّه وخاصة وواضحه وخفيه ومطلقه ومقيده بما تلقوه من النبي –صلوات الله وسلامه عليه–، أو ممن سمعه منهم من عليائهم، وظل الفقه والفهم للأحكام الشرعية محصوراً في ما ذكرنا حتى انتشر تعلم الكتابة في الأمصار التي ازدهرت بتواجد المسلمين فيها، فذهبت الأمية وتسابق الناس إلى التعلق بدراسة القرآن وعلومه والسنة النبوية وشرائط الاعتماد عليها والاعتداد بها، فصار عندها علم الفقه صناعة يقوم العلماء بنشره ويتعلق الدارسون حول العلماء ينهلون من فقههم، فكان فهم الأحكام الشرعية ونقلها إلى طالبيها يقوم على طريقتين:

الطريقة الأولى: طريقة أهل العراق وهي تعتمد بدرجة كبيرة على الاجتهاد واستعمال الرأي، فسميت طريقة أهل الرأي والقياس، وكان مبدعها الأول وحامل لوائها الإمام أبو حنيفة النعمان عالم بغداد في زمانه، وتبعه على ذلك تلاميذه من أمثال: أبي يوسف بن يعقوب، ومحمد بن الحسن الشيباني وزفر بن الهُذَيل والحسن بن زياد، وتلاهم في ذلك خلق كثير من العراق وغيرها.

ولعل مرجع اعتمادهم على الرأي والاجتهاد يعود إلى قلة تواجد السنة النبوية لديهم وإلى قلة نقلتها، وبالجملة فإن أهل العراق كانوا معروفين بالفكر وتحكيم العقل بدرجة كبيرة، فكان يغلب على فقههم الاجتهاد، وكان لهم أيضاً سبق إلى استحداث أحكام شرعية لأمور متخيلة في زمانهم قد تقع وقد لا تقع.

أما الطريقة الثانية: فهي طريقة أهل الحجاز، وأول من حمل لواءها الإمام مالك بن أنس عالم المدينة المنورة، وكانت تعتمد على الحديث الشريف حيث كان لمدرسة أهل الحديث فيها أثر في انتشار الحديث وكثرة نقلته وعارفيه بدرجة تغطي حاجة الناس إلى الأحكام في زمانهم، وكانوا في غنية عن الاجتهاد واستعمال العقل.

كما أن للإمام الشافعي الذي تتلمذ على الإمام مالك دوراً مهمّا في ازدهار هذه الطريقة، غير أنه عندما ذهب إلى العراق وأخذ عن علماء أهل الرأي من أصحاب أبي حنيفة وتلقى عنهم شيئاً من الفقه، ومزج طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق خالف الإمام مالكا في بعض من الأحكام واختص بمذهب، ويعتبر الإمام أحمد بن حنبل الذي تتلمذ على الإمام الشافعي من علماء مدرسة أهل الحديث، فكان من عظماء المحدثين، وكان له تلاميذ درسوا في العراق، وكان لهم زاد كبير من الأحاديث، فأنشأوا لهم مذهباً فقهياً مستقلاً.

ويذكر التاريخ والواقع وجود المذهب الإباضي وانتشاره في مناطق من الوطن العربي، ومؤسس هذا المذهب هو جابر بن زيد الأزدي العماني التابعي الذي ولد عام 22هـ وتوفى سنة 93هـ، وهو محدث وفقيه ولم يشتهر المذهب باسمه، وإنما اشتهر باسم تلميذه عبد الله بن أباض الذي دافع عن هذا المذهب حتى اشتهر باسمه، وله علماؤه وكتبه التي تحمل فقهه.

وللشيعة أيضاً مذاهبهم وفقههم الذي مال بعضهم به عن الحق، وأقاموه على نعت بعض الصحابة الأطهار بما لا يجوز، ووصفوا أئمتهم بالعصمة، ولم يجيزوا أخذ الأحكام عن غيرهم، واعتبروا إجماعهم هو الإجماع المعصوم دون إجماع سواهم، وهم بهذا صاروا منحرفين عن جادة الصواب، ندعوا الله أن يهديهم سواء السبيل[1].

كما تذكر كتب التاريخ والفقه – أيضاً– وجود مذهب يسمى المذهب الظاهري مؤسسه داوود بن علي بن خلف البغدادي الظاهري المعروف بالأصبهاني مولى الخليفة العباسي المهدي ولد سنة 200هـ، كان والده حنفي المذهب، ولهذا المذهب فقهه الذي خالف في بعض فروعه جمهور أئمة المذاهب،

(1) سير أعلام النبلاء – المذهبي (ت:749هـ)– مؤسسة الرسالة –1405هـ – 101/13.

ومن أهم أقطابه ابن حزم وهو: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي القرطبي، كان على دراية بعلوم جمة فأجاد النقل، ومهر في الأدب و الأخبار والشعر، تفقّه أوّل حياته على المذهب الشافعي، ثم أداه اجتهاده إلى نفي القياس والأخذ بظاهر النص وعموم الكتاب والحديث، والقول بالبراءة الأصلية، وصنف كتباً كثيرة في ذلك، وبسط لسانه وقلمه ولم يتأدب مع علماء الأمة في الخطاب، فكان جزاؤه أن أعرض عن تصانيفه جماعة من الأئمة وهجروها ونفروا منها وأحرقت في وقت[1]، ولم يبق للمذهب الظاهري وجود إلا في الكتب وعلى الورق، ويرى بعض الفقهاء جواز الاستفادة من فقههم، ويرى آخرون عدم جواز ذلك.

فيصبح المذهب الظاهري في ذمة التاريخ ككثير من المذاهب المندثرة مثل مذهب الأوزاعي أشتهر مدة ثم تلاشى وتفانى، وانقطع مذهب أبي ثور بعد الثلاثمائة، ومذهب ابن جرير بعد الأربعمائة، وكذلك مذهب سفيان الثوري[2].

وظلت المذاهب السنية الأربعة هي المتواجدة في المعمورة، غير أن وجودها قلة وكثرة مختلف، فقد تتواجد كلها في بلد وقد لا يوجد منها في بلد آخر إلا واحد، وقد يكون عند التواجد أتباع قلة لواحد وكثرة لآخر.

فمثلاً المذهب الحنفي يوجد أتباعه بكثرة في العراق وتركيا والهند والصين وغيرها من البلاد الناطقة بغير العربية، ويتناقص في مثل الشام ومصر، وينعدم أو يكاد في شمال إفريقيا كلها.

أما المذهب المالكي فيكاد ينفرد في ليبيا والجزائر وتونس والمغرب وموريتانيا والسودان وجنوب مصر والبلاد غير العربية في إفريقيا، وله وجود

---

(1) ينظر سير أعلام النبلاء- الذهبي -187/18.

(2) ينظر نفس المصدر.

واضحٌ في الإمارات العربية، كما أنّ له وجوداً أيضاً في السعودية وبعض مناطق الشام.

وأما المذهب الشافعي فيتواجد بكثرة في مصر وفي الشام ويكاد ينعدم في شمال إفريقيا.

وأما المذهب الحنبلي فأكثر أتباعه في الشام والسعودية والعراق، كما تكثر فتاوى علمائه بتأييد الحاكم وأعوانه لها، ولهم أتباع في كثير من البلدان التي يتواجد فيها الإسلام، ولهذه المذاهب كلها كتب تفصل الفروع الفقهية وتتوسع في بعضها أو تقتصد حسب رغبة واطلاع من يقومون بتأليفها، كما أن لكل منها أقطابا عبر تاريخ تواجدها يقومون بالذَّبّ عليها والدفاع عن ما يتعرض لنقد ما يتواجد فيها، ولها مدارسها وجامعاتها ومؤسساتها المختلفة تقوم بأداء الرسالة التي تواجدت هذه المذاهب الفقهية لأدائها.

وفي عالم القنوات ووسائل الإعلام المتعددة في هذا الزمان صارت المذاهب الفقهية كلها ميداناً مطروقاً دون حواجز ودون تقيُّد ودون ملاحظة لحق أصحاب أي مذهب، وصارت العبادة خلال هذا التشابك وتزاحم الفتاوى عرضة للخصام والنزاع والحكم بالإبطال، وهذا أمر خطير من شأنه أن يفرق الجمع، وأن يسيء أكثر مما يحسن، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ويقسم علماء الفقه هذا العلم إلى: عبادات ومعاملات، ويُعْنُون بالعبادات ما كان المقصود منه التعبد بالدرجة الأولى، المنحصرة في الصلاة والصيام والزكاة والحج، ويعنون بأحكام المعاملات ما كانت متعلقة بأفعال العباد مما يجري بينهم من شؤون الدنيا، من مثل: البيع والشراء والمساقاة والمغارسة وما يشبهها، وهم على خلاف في إلحاق أحكام الأسرة بأي القسمين المذكورين تلحق، أو هي قسم مستقل بذاته، وقد كتبت الأسفار الضخمة في أبواب هذه الفروع الفقهية المتعددة، واستطاع العلماء أن يبرزوا فيها اتساع الفقه واستيعابه لكل ما وجد قديما وما جد

حديثا، بل توسعوا حتى اجتهدوا لحوادث متخيَّلة، فكان لمدونات الفقه مكانة عظيمة ليس عند فقهاء الشريعة فحسب بل لدى كثير من فقهاء القانون وعلماء الاجتماع وغيرهم.

الفرع الثالث: علم الميراث:

علم الميراث ويسمى علم الفرائض، والفرائض جمع فريضة بمعنى مفروضة أي مقدرة، لما فيها من السهام المقدرة.

وعرفه علماؤه بأنه: فقه المواريث وعلم الحساب الموصل لمعرفة ما يخص كل ذي حق حقه من التركة.

كما عرف بأنه: العلم بالأحكام الشرعية العملية المختص تعلقها بالمال بعد موت مالكه تحقيقاً أو تقديراً[1].

وأركان الإرث ثلاثة:

1-وارث.

2-مُوِّرت.

3-حق مورث.

وشروطه ثلاثة، وهي:

1-تحقق موت المورث حقيقة أو حكماً.

2-تحقق حياة الوارث حياة مستقرة بعد موت المورث أو إلحاقه بالأحياء حكماً كالحمل.

3-العلم بالجهة التي بها الإرث وهي البنوة والأبوة والأخوة والعمومة، وأيضاً العلم بالدرجة التي اجتمعا فيها[2].

---

(1) حاشية العلامة البقرى على شرح الرحبية - لبسط المارديني - دار القلم - ط8- 1419هـ -1998م - ص12.

(2) المصدر السابق- ص 12، 13.

وله أسباب أربعة، وهي:

السبب الأول: النكاح، والمراد به: عقد يقتضي إباحة وطءٍ بلفظ النكـــاح أو التزويج ويقع به التوارث بين الزوجين ما لم يمنع مانع ككون الزوجة رقيقـــة أو كتابية، ولا يشترط لتوارث الزوجين الدخول بالزوجة، بل لو مات أحدهما بمجرد العقد يقع التورات بينهما.

والطلاق الرجعي لا يمنع إرث الزوجين باتفاق، والبائن يمنع منه مطلقاً إذا حصل في حال صحة الزوج، أما إن حصل منه في مرضه ومات فيـــه فالعلمـــاء مختلفون في أمره، فالشافعية يعتبرونه مانعاً من الإرث، والحنفية ترث عنـــدهم إذا مات وهي في العدة، والحنابلة ترث عندهم ولو خرجت من العدة ما لم تتـــزوج، والمالكية ترث عندهم ولو تزوجت وولدت الأولاد، لأنهم يعتبرون طلاق الـــزوج في مرضه الذي مات فيه تهرباً من الإرث فيعامل بنقيض مقصوده، وعند المالكية -أيضاً-: لو تزوج المريض في مرض موته امرأةً فالعقد باطل فلا ترثـــه، ولـــو تزوجت المريضة في مرض الموت رجلاً لم يرثها[1].

السبب الثاني: الولاء، ومعناه لغةً: القرابة، وفي اصطلاح علماء الميراث: هو صفة تثبت للمعتِق ولعصبته بمجرد حصول العتق، وهي لحمة كلحمة النسب، لا يُباع ولا يُوهب ولا يورث، والإرث بالولاء لا يكون إلا من جانب واحد وهـــو جانب المعتِق، ولا يكون الإرث به إلا تعصيباً[2].

السبب الثالث: النسب، والمراد به: القرابة، وهي: المتمثلة في الأبوين ومن أدلي بهما من إخوة وأعمام، والأولاد ومن أدلى بهم[3].

---

(1) المصدر السابق – ص 32.

(2) المصدر السابق – ص 32.

(3) الفواكه الدواني علي رسالة أبي زيد القيرواني- النفراوي المالكي – 249/2، حاشـــية البقـــري- لســـبط المارديني – ص 32، 33.

السبب الرابع: بيت المال إن كان منتظماً، وقد أضاف هذا السبب علماء المالكية[1].

وللميراث موانع ثلاثة:

المانع الأول: الرق، فلا يرث الرقيق شيئاً سواء كان قِنّاً أي كامل الرق، أو مدبّراً(وهو من علقت حريته على موت سيده أو غيره)، أو مبعّضاً أو مكاتباً، أو معلقاً عتقه بصفة، أو موصى بعتقه، لأن موجب الإرث: الحرية الكاملة، وهو فاقدها، وكذلك لا يورث لأنه لا مال له[2]. يقال: العبد وما ملكت يداه لسيده ومولاه.

المانع الثاني: القتل، فلا يرث القاتل مقتوله إن كان القتل عمداً عدواناً سواء كان بالمباشرة أو بالتسبب، وسواء كان بآلة حادة من شأنها القتل أم لا، عند المالكية، وعند الحنفية[3].

القتل يمنع من الميراث إن كان بغير حق، وهو الذي يستوجب القصاص أو الدية مع الكفارة، فيشمل القتل العمد وشبه العمد، والقتل الخطأ وما جرى مجرى الخطأ، وعند الشافعية[4] يُمنع أي قاتل من الميراث لا فرق عندهم بين أن يكون عمداً أو غير عمدٍ، بالمباشرة أو التسبب أو غير ذلك ولو من غير مكلف.

وعند الحنابلة[5] أن القتل المانع من الإرث هو القتل بغير حق، وهو المضمون بقودٍ أو دية أو كفارة، كالعمد وشبه العمد والخطإ وما جرى مجْرى

---

(1) حاشية على كفاية الطالب الرباني لرسالة ابن أبي زيد القيرواني – العدوي – مصطفى البابي الحلبي 1357هـ–1938م – 298/2.

(2) شرح سبط المارديني على الرحبية وحاشية العلامة البقري– ص 36.

(3) حاشية ابن عابدين – 767/6.

(4) حاشية البيجوري – 74/2.

(5) المغني لابن قدامة – 338/6.

الخطإ كالقتل بالتسبب وقتل الصبي والمجنون، أما ما ليس مضمونا بشيء فلا يمنع من الإرث كالقتل قصاصاً أو حداً أو دفاعاً عن النفس.

وموجب المنع من الإرث ما روي عن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– أنه قال: سمعت النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: ((ليس لقاتل ميراث))[1].

المانع الثالث: اختلاف الدين، والمراد به أن يكون المورث على غير دين الوارث، كأن يكون أحدهما مسلماً والآخر غير مسلم، بأن يكون كتابياً كاليهودي والنصراني، أو غير كتابي كالمجوسي والمشرك.

والعبرة باختلاف الدين وقت وفاة المورِّث فمن أسلم بعد ذلك ولو قبل قسمة التركة، فإنه لا يرث من تركة الميت عند الأئمة الثلاثة، أبي حنيفة ومالك والشافعي؛ لقيام المانع به وقت استحقاق الإرث وهو الكفر، ويرى الحنابلة التوارث إذا أسلم القريب قبل قسمة التركة؛ لأن المانع قد زال، ولأن الترغيب في الإسلام مقصد من مقاصد الشريعة الغراء[2].

وموجب المنع من الإرث ما رواه جابر بن عبد الله –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: ((لا يتوارث أهل ملتين))[3].

موضوعه: موضوع هذا العلم هو التركات، حيث يبحث عن عوارضها الذاتية، كحق الميت المتعلق بالتركة من مؤن التجهيز وقضاء ديونه، وحق الوارث والموصى له، وغير ذلك[4].

---

(1) سنن ابن ماجه – كتاب الديات – باب القاتل لا يرث – 884/2– حديث رقم2646.

(2) الخلاصة الوفية في أحكام الميراث والوصية – للمؤلف وآخر – دار شموع الثقافة – ط 2 – 2010 م – ص 47، 48.

(3) سنن الترمذي– كتاب الفرائض – باب لا يتوارث أهل ملتين – 424/4 – حديث رقم 21008.

(4) الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني – النفراوي المالكي– 334/2.

أهميته وحكم تعلمه:

يعتبر علم الميراث من أشرف العلوم وأعظمها أجراً وأعلاها قدراً؛ لأنّ به يعرف من يرث ومن لا يرث ونصيب كل وارث، ويكفيه شرفا أنه فُصل في القرآن الكريم وفي السنة النبوية بشكل يفوق غيره من بقية العلوم، حيث ذكر الباري–عز وجل– في سورة النساء والانفال والأحزاب من يرث ومن لا يرث ونصيب كل وارث بشكل لا مجال فيه للاجتهاد.

ولذا فإن تعلمه فرض على الكفاية، إذا قام بتعلمه البعض سقط الطلب عن باقيهم.

وقد وردت أحاديث كثيرة تحث على تعلم هذا العلم وتبين فضله، ومن ذلك ما رواه عبدالله بن مسعود –رضي الله عنه– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: ((تعلموا القرآن وعلموه الناس وتعلموا الفرائض وعلموها الناس، وتعلموا العلم وعلموه الناس فإني مقبوض وإن العلم سينقص، وتظهر الفتن حتى يختلف الاثنان في فريضة لا يجدان من يفصل بينهما))[1].

الوارثون:

حصر علماء هذا الفن الإرث في خمسة عشر وارثاً من الرجال، وعشرة من النساء، فأما الوارثون من الرجال فهم:

الأبن، وابنه مهما نزل، والأب والجد وإن علا، والأخ الشقيق، والأخ لأب، والأخ لأم، وابن الأخ الشقيق وابن الأخ لأب، والعم الشقيق والعم لأب، وابن العم الشقيق وابن العم لأب، والزوج، والمعتق.

أما الوارثات من النساء فهن: البنت وبنت الابن وإن نزلت، والأم، والجدة لأم والجدة لأب إن لم يفصل بينها وبين الميت ذكر، والأخت الشقيقة، والأخت لأب والأخت لأم، والزوجة، والمعتقة.

---

(1) سنن النسائي – كتاب الفرائض– باب الأمر بتعليم الفرائض –63/4– حديث رقم 6306.

ويكون الإرث بالفرض تارة، وبالتعصيب تارة، وبهما معاً.

فالنساء جميعاً يرثن بالفرض ما عدا المعتقة، ولكن الأخوات الشقيقات أو لأب قد يرثن بالتعصب.

والرجال يرثون بالتعصيب ما عدا الزوج والأخ لأم فهما يرثان بالفرض، وقد يرث الزوج بالتعصيب إن كان من أقارب الزوجة الوارثين كابن عم لها.

كما قد يرث الأب والجد بالفرض زيادة على الإرث بالتعصيب.

فإذا فضل شيء من التركة بعد أخذ أصحاب الفروض فروضهم ولا يوجد عاصب فمن العلماء من يقول بالرد على الوارثين على تفصيل عندهم لا يتسع المقام لذكره.

وإذا انعدم الورثة بحيث لا يوجد وارث لا بالفرض ولا بالتعصب، وللمتوفى أقارب من ذوي الأرحام، فمن العلماء من يرى توزيع التركة عليهم على تفصيل عند من قالوا بذلك، والمقام لا يتسع لتفصيل ذلك.

فروض الوارثين:

الفروض المقدرة في كتاب الله العزيز ستة وهي: النصف والربع والثمن والثلثان والثلث والسدس، ويمكن الرمز إليها بأن يقال: النصف ونصفه ونصف نصفه، والثلثان ونصفهما ونصف نصفهما.

وقد ورد ذكرها صراحة في صورة النساء في قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ

وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: 11، 12].

أما الحجب: فيحجب الأبعد بالأقرب والأضعف بالأقوى إما حجب حرمان أو حجب نقصان.

فأما حجب الحرمان فالمراد به أن لا يرث القريب من قريبه شيئاً لوجود من هو أولى منه بالميراث ويلحق الوارثين بالفرض والتعصيب على حد سواء، وتفصيل ذلك ما يلي:

الجد يحجب بالأب، وابن الابن وبنت الابن والأخوة وأبناؤهم والأعمام وأبناؤهم أيّا كانوا يحجبون بالأبن، والجدة تحجب بالأم، والأخ لأب وابنه يحجب بالأخ الشقيق، وابن الأخ الشقيق يحجب بالأخ لأب، وابن الأخ لأب يحجب بابن الأخ الشقيق، والأعمام وأبناؤهم أيا كانوا يحجبون بالأخ الشقيق وابنه وبالأخ لأب وابنه، والعم لأب وابنه يحجب بالعم الشقيق، وابن العم لأب يحجب بابن العم الشقيق أيضاً ويحجب الأخ لأم أو الأخوة لأخ ذكر أو أنثى بالأصل المذكر والفرع الوارث مطلقاً.

وحجب الحرمان هذا لا يلحق ستة وهم: الابن والبنت والأب والأم والزوج والزوجة.

أما حجب النقصان فإنه يكون لأصحاب الفروض المتعددة، ويتحقق في خمسة أشخاص وهم:

1-الزوج: ويحجب من النصف إلى الربع بالفرع الوارث للزوجة.

2-الزوجة: تحجب من الربع إلى الثمن بالفرع الوارث للزوج منهـا أو مـن غيرها.

3-الأم: وتحجب من الثلث إلى السدس وذلك بالفرع الوارث مطلقـاً وبـإخوة الميت إن تعددوا.

4-بنت الأبن: وتحجب من النصف إلى السدس بالبنت الصلبية أو بنت الابن الأقرب منها للميت.

5-الأخت لاب: وتحجب من النصف إلى السدس بالأخت الشقيقة المنفردة[1].

الفرع الرابع: علم الحساب:

اعتنى العرب منذ القدم بعلم الحساب، وجرت عادتهم -ومازالوا على ذلك- أن يبدءوا به في تعليمهم لأولادهم الصغار، لأنه من المعارف الجلية التي يتقبلهـا العقل مهما صغر، ويعظم عنده إذا صار متجهاً له، وهو قد يكون ضماً لما تفـرق فيسمى جمعاً، أو تضعيفاً له فيسمى ضرباً، وقد يكون تفريقاً بإزالة عدد من عـدد لمعرفة الباقي فيسمى طرحاً، أو تفصيل عدد بأجزاء متساوية فيسمى قسمة، وهـو علم يربي العقول ويصقلها حتى قيل فيه: من أخذ نفسه بتعليم الحساب أول مـرة يغلب عليه الصدق؛ لما فيه من صحة البراهين الوثيقة المباني ومناقشـة الـنفس، فيصير ذلك له خلقاً ويتعود الصدق ويلازمه مذهباً[2].

وعلم الحساب يحتاج إليه كل إنسان في حياته كلها، ولا يكاد يستغني عنـه كل يوم، وبخاصة رجال الأعمال ومن لهم مسئوليات تجاريـة أو تعليميـة، وقـد تتوقف معرفة الحقوق والواجبات عليه مهما صغرت أو عظمت، ويتضح ذلـك -مثلاً- في علم الميراث وتوزيع التركات على أصحابها، فيحتاج إلى العدد كـاملاً

(1) الخلاصة الوفية في الميراث والوصية - للمؤلف وآخر - ص 70، 71.

(2) ينظر: المقدمة لابن خلدون - ص 456-457.

وأحياناً إلى أجزائه كالربع والثمن والثلث والسدس، حيث يقتضي الوصول إلى الحق كاملاً عن طريقها، كما أن المسلمين يحتاجون إليه بما يرتبط بالزكاة من حيث معرفة مقاديرها وتوزيعها على المستحقين لها، ومثل ذلك أيضا الحاجة إلى معرفة أوقات الصلوات وشؤون الحج وغيرها.

وأشار ابن خلدون إلى من برز من المسلمين في التأليف فيه قديماً ومدحهم لأنهم أبرزوا هذا العلم وبينوا قيمته وما اشتمل عليه من لطائف وبراهين.

وينبغي أن نعرف قدر هذا العلم الذي نحتاج إليه في شئون الدنيا والدين، والذي عن طريقه سنُجازى على أعمالنا في الدنيا بمحاسبة الله لنا عما قدمنا أو أخرنا من أعمال دون ظلم أو حيف، بل برحمة الله وكرمه.

وعلم الجبر صنوٌ لعلم الحساب؛ لأنه مثله من العلوم العددية، حيث إنه يوصّلنا إلى معرفة المجاهيل، وقد اعتنى به العرب كثيراً، ولعل أول من كتب فيه منهم: أبو عبد الله الخوارزمي وبعده أبو كامل شجاع بن أسلم، وتتابع من بعدهما كثير ممن أسهموا في نشره والنبوغ فيه"[1].

(1) ينظر المقدمة لابن خلدون – ص 455–457.

المبحث الثاني: العلوم اللغوية.

تمهيد: المتتبع لتاريخ اللغة العربية يجدها تشتمل على لهجات كثيرة، ولكن أرقاها وأعلاها سناماً ما عرف من لغة قريش، وما نزل به القرآن الكريم الذي صار قاموساً محيطاً للغة العربية في أعلى مراتبها، فهي وإن اختلفت على ألسنة بعض سكان المناطق المتباعدة ممن ينتمون إلى العربية نجدهم يصلون إلى المفاهيم فيما بينهم بسهولة ويسر، لما يلاحظ على هذه اللغة من انسجام، وقد استطاعت أن تسع سكان كل البلدان التي دخلها العرب فاتحين، وحلت محل اللغات التي كانت سائدة فيها مثل: السريانية واليونانية والقبطية والبربرية وغيرها، فصارت الكتابة بها ونظمت الأشعار وفق قوانينها، بل أمكن أن تنفذ إلى أعماق الغالبين على الأمة العربية مثل الترك، حيث مضت فترة على تركيا لا تجد فيها إنساناً على شيء من التعليم لا يستطيع أن يفهم لغة القرآن بسهولة، وقد لوحظ تأثر بعض البلدان الأوروبية –مثلاً– باللغة العربية حتى بعد انحسار سلطان العرب، كما هو معروف في ولايتي أوفرن وليموزان الفرنسيتين اللتين حُشيت لهجتهما بكلمات عربية، وأن أسماء الأعلام فيها ذات مسحة عربية[1].

ونجد في أعماق التاريخ أن فرنسا وإيطاليا اقتبستا اصطلاحاتهما البحرية من العرب منذ القرن الثامن للميلاد مثل: Amiral[2].

وإن للعرب أيضاً وجوداً عند أوروبا في التعابير الإدارية وفي ألقاب الضباط وتعابير بعض شؤون الحرب واستعمال بارود المدافع والحراقات والقذائف، وفي بعض مصطلحات الصيد[3].

---

(1) حضارة العرب– غوستاف لوبون– ص441.

(2) المصدر السابق.

(3) المصدر السابق.

وقد قال ابن خلدون: "اعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم من مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئة عن القصد لإفادة الكلام، فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان، وهي في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم، وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني، مثل: الحركات التي تغير الفاعل من المفعول المنصوب، والمضاف من المضاف إليه المجرور، ومثل الحروف التي تفضي بالأفعال إلى الذَّوات من غير تكليف ألفاظ أخرى، وليس يوجد ذلك إلا في لغة العرب، أما غيرها من اللغات فكل معنى أو حال لابد له من ألفاظ تخصه بالدلالة، ولذلك نجد كلام العجم في مخاطباتهم أطول مما نقدره بكلام العرب"[1]. وهذا هو معنى قوله –صلى الله عليه وسلم–: ((أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً))[2].

ولما كانت علوم اللسان متعددة، وكل علم له خواصه وضوابطه وفروعه ومهمته، وجب أن نفرد كلاً منها بما يستوجب إبراز شخصيته بشكل إجمالي وذلك من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: علم النحو:

يتم التعرض لعلم النحو من خلال الفروع الآتية:

الفرع الأول: التعريف به.

النحو معناه في اللغة: القصد إلى الشيء، تقول نَحَوْتُكَ أي قصدتك، ونحوت بصري إليه أي صرفته، وأنحيت بصري عنه أي عدلته[3]، وعرفه علماء النحو

---

(1) مقدمة ابن خلدون – ص 514، 515.

(2) شعب الإيمان – البيهقي – 133/2– حديث رقم 9528، وفي رواية: "أوتيت جوامع الكلم وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً...." مسند أحمد 440/15– حديث رقم 9705.

(3) الصحاح – للجوهري – مادة "ن ح ا ".

بأنه: "علم بقوانين يعرف بها أحوال التراكيب العربية من الإعراب والبناء وغيرهما، وقيل: علم بأصول يعرف بها صحة الكلام وفساده"[1].

وموضوعه: الكلمات العربية من حيث الإعراب والبناء.

واضعه وسبب وضعه:

جرت على اللسان العربي انحرافات في النطق منذ عهد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وصحابته الكرام والتابعين لهم بإحسان، وتكررت وتتابعت عن طريق دخول غير العرب إلى الإسلام وانتشار الإسلام في بلدان غير عربية، فخيف على القرآن الكريم والسنة النبوية من أن يقع فيهما التحريف فينشأ عن ذلك انحراف عن الجادة في الفهم، فدعت الحاجة وضع هذا العلم، وقد قيل: إن سيدنا علياً –كرم الله وجهه ورضى عنه– أمر أبا الأسود الدؤلي[2] – حيث كان أعلم عصره بكلام العرب– أن يضع الضوابط والقواعد التي تضبط اللسان العربي عن الانحراف، فامتثل، وكان ما فعله نواةً لهذا العلم الذي يحتاج إليه كل ناطق باللسان العربي، فكان أول من دون فيه، وأول من ضبط المصحف بالشكل[3].

فضله:

لهذا العلم فضل كبير على أمة الإسلام، حيث حُفظ القرآن والسنة النبوية والشريعة الغراء ولغتها عن طريقه من الانحراف الذي لو انتشر لدبّ الخلل إلى شرع الله، وهو محال أن يقع لأن الله تكفّل بحفظه، فكان وضع علم النحو من بين وسائل الحفظ للذكر؛ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر،9].

---

(1) التعريفات للجرجاني – دار الكتاب العربي –بيروت – ط1 –1405هـ – ص 308.

(2) هو ظالم بن عمرو من الدئل: بطن من كنانة، كان من سادات التابعين ورد البصرة عهد عمر بن الخطاب ولبث فيها حتى توفي بها في عام الطاعون سنة 69هـ. نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة – الشيخ الطنطاوي –ص 7.

(3) نفس المصدر – ص 7.

نسبته إلى غيره من العلوم: إنه أحد علوم اللسان العربي، وخـــادم لعلـــوم الشريعة الغراء ومباين لغيرها من بقية العلوم الأخرى.

حكم دراسته: إن دراسة علم النحو فرض على الكفاية، فإذا قام بمعرفتـــه وحذقه بعض من أمة الإسلام سقط الطلب الجازم عن بقيتهم وبقي الطلـــب غيـــر الجازم، إذ إن طلب دراسته على سبيل الندب لا يسقط عن أي مسلم مكلف.

ولما كان علم النحو هو عبارة عن قوانين يعرف بهـــا أحـــوال التراكيـــب العربية من الأعراب و(البناء)، ولما كانت التراكيب عبارة عن الكلمات لـــزم أن نعرف ما تتألف منه الكلمات وما يعتريها من إعراب وبناء وهو الكلام، فنقـــول: الكلام هو اللفظ المفيد فائدةً يحسن السكوت عليها، مثل أن تقول: المؤمنون إخوة، ونجح المجدُّ، واقرأ كتابك، ويفوز المصلون، فإن كل جملة من الجمل المـــذكورة مفيدة فائدة يحسن السكوت عليها ولا تحتاج في إيصالها المعنى المراد لسامعها أو قارئها إلى مزيد.

الفرع الثاني: أقســامـــــه.

ينقسم الكلام إلى اسم وفعل وحرف.

أولاً: الاسم: وهو "ما دل على معنى في نفسه ولم يقترن بأحد الأزمة الثلاثـــة"[1]، مثل: محمد وشجرة وسماء وأرضٌ، وله علامات يعرف بها، وهي قبول الكلمـــة للجر، وقبولها للتنوين، وقبولها للتعريف بـــ"أل"، وقبولها للنداء، وبالإسناد إليها.

فمثال قبولها للجر أن تقول: في مسجد القرية صليت، فإن كلمـــة مســـجد، مجرورة والجر علامة اسميتها، ومثال التنوين أن نقول: محمدٌ "رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فإن التنوين في لفظ محمد علامة على أسميته، ومثال التعريف بأل نقول: العلم مفيد، فإن أل في لفظ "العلم" دليل على اسمية مدخولها، ومثل النداء أن

---

(1) التعريفات – للجرجاني – ص 40.

نقول يا رب اشرح صدري فإن لفظ "رب" اسم ودل على ذلك ياء النداء الداخلة عليه، ومثال الإسناد إلى الكلمة أن نقول بلادنا مستقرة، فإن إسناد الاستقرار إلى كلمة (بلادنا) باعتبارها مبتدأ على أنها اسم؛ لأنها دلت على الذات، والدال على الذات لا يكون إلا اسماً، قال ابن مالك في ألفيته:

بالجر والتنوين والندا وأل ومسندٍ للاسم تمييز حصل

وينقسم الاسم إلى معرب ومبنى:

فالمعرب: هو ما يتغير آخره بسبب ما يدخل عليه من العوامل[1]، ويقبل التنوين مثل: جاء محمدٌ، وإن محمداً مجتهد، ونظرت إلى محمدٍ- فإن محمداً تغير من الضم إلى الفتح إلى الكسر بسبب ما دخل عليه من قولنا جاء، وإنّ، والباء.

والمبني: هو الذي يلزم حالة واحدةً، ولا يتغير آخره بسبب ما يدخل عليه من عوامل[2].

ويكون مكسوراً ومفتوحاً ومضموماً وساكناً.

فمثل بنائه على الكسر: هؤلاءِ، فإنها تلازم الكسر مهما تغيرت العوامل الداخلة عليها.

ومثل المبنى على الفتح: لفظ أحدَ عشر وأخواتها – ومنها ثلاثةَ عشر وأربعة عشر وخمسةَ عشر إلى تسعةَ عشرَ- فإنها تلازم الفتح في جميع أحوالها، تقول: جاءني أحدَ عشرَ رجلاً، وأكرمت أحدَ عشرَ رجلاً ونظرت إلى أحدَ عشرَ رجلاً، فإنها في المثال الأول مبنية على الفتح في محل رفع؛ لأنها فاعل، والفاعل يكون مرفوعاً، وهي في المثال الثاني مبنية على الفتح في محل نصب؛ لأنها مفعول، والمفعول حكمه النصب، وفي المثال الثالث مبنية على الفتح في محل كسر؛ لدخول حرف الجر عليها.

---

(1) شرح قطر الندى – ابن هشام الأنصاري – ط11- 1383هـ تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد- ص13.

(2) ينظر المصدر السابق – ص 13.

ومثال المبني على الضم: قبلُ وبعدُ وأوّلُ ودونُ. في حال انقطاعها عن الإضافة لفظاً مع نية الإضافة معناً.

كقراءة السبعة في قول الله تعالى: ﴿ لله الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم، 4] بالبناء على الضم.

ومثال البناء على السكون: مَنْ وكَمْ، تقول جاءني منْ أحب، وأكرمت منْ أحب ونظرت إلى منْ أحب، فتجد لفظ منْ ملازماً للسكون، فهي في المثال الأول فاعل مبنى على السكون في محل رفع، وفي المثال الثاني مفعول وهي مبنية على السكون في محل نصب، وفي المثال الثالث هي مبنية على السكون في محل جر.

قال ابن مالك:

والاسم منه معرب ومبني لشبه من الحروف مدني

ثانياً: الفعل، وهو: ما دل على معنى في نفسه مقترن بأحد الأزمة الثلاثة[1].

وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام: ماضٍ ومضارع وأمر.

1- **الفعل الماضي**: وهو ما دل على زمن مضى وقبل تاء التأنيث الساكنة، كقرأتْ فاطمة وكتبتْ دروسهاا، وأصله البناء على الفتح إذا لم يتصل به ما يحول دون ذلك، فإن اتصل به واو الجماعة بني على الضم مثل: المجدون فازوا، وإن اتصلت به نون النسوة أو تاء الفاعل بني على السكون مثل: الفتيات نَجَحْنَ، وقرأتُ ونجحتُ.

ثم إن علماء العربية اختلفوا في بعض الكلمات، مثل: نعم وبئس وعسى وليس، فالفراء وجماعة من الكوفيين اعتبروا أن نعم وبئس اسمان، والفارسي وأبو بكر بن شقير اعتبرا (ليس) حرفاً، ويرى الكوفيون وابن السراج أن عسى حرف ترجٍّ وبمنزلة لعلّ، وجمهور علماء العربية على أن هذه الكلمات الأربع أفعال،

(1) التعريفات – للجرجاني – ص 215.

بدليل قبولها لتاء التأنيث الساكنة[1]، فتقول: نعمت المرأة المسلمة، وبئستْ حمالة الحطب، وليستْ الكافرات على حق، وعستْ هند أن تزورنا.

2- **الفعل الأمر:** وهو ما دل على الطلب وقبل ياء المؤنثة المخاطبة، مثل: قم وقومي واقعد واقعدي، والأصل فيه أن يبنى على السكون مثل: اقرأْ واكتبْ، وقد يبنى على حذف آخره وذلك إذا كان معتلاً مثل: ارم، واخش، وقد يبنى على حذف النون وذلك إذا كان مسندا لألف الإثنين نحو: قُوما، أو واو الجمع نحو: قُوموا، أو ياء المخاطبة نحو: قُومِي.

وقد اختلف علماء العربية في ثلاث كلمات وهي: هلم، وهاتِ، وتعال.

فأما هلم: فهي عند علماء الحجاز اسم فعل أمر، وتلزم حالة واحدة على البناء، فلا تلاحقها ألف الاثنين ولا واو الجماعة ولا ياء المؤنثة المخاطبة، واستدلوا على ذلك بالقرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ والقائلين لإخوانهم هلم إلينا﴾ [الأحزاب،من الآية 18] وقوله تعالى: ﴿ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ﴾ [الأنعام، من الآية 150] فإنها لزمت حالة واحدة ولم تلحقها ياء المؤنثة المخاطبة، ولكنها دلت على الطلب، فكانت اسم فعل أمر وليست فعل أمر، لكن بنو تميم قالوا: هي فعل أمر لدلالتها على الطلب وقبولها ياء المؤنثة المخاطبة فتقول: "هلم وهلمي وهلما وهلموا وهَلُمّن"[2].

ولعل ورودها في التنزيل دون دخول علامة الجمع عليها في قوله: ﴿ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ ﴾ حيث لم يقل هلموا شهداءكم – يرجح ما يراه علماء الحجاز فيها من أنها اسم فعل أمرٍ وليست فعلاً.

---

(1) ينظر شرح قطر الندى – ابن هشام – ص 28.

(2) ينظر شرح قطر الندى – ابن هشام – ص 31.

وأما هات وتعال: فقد اعتبرهما بعض علماء النحو اسمي فعل أمر، والصحيح أنهما فعلا أمر بدليل أنهما دالّان على الطلب وتلحقهما ياء المؤنثة المخاطبة تقول: هاتي وتعالَي.

غير أن تاء هاتِ تكون مكسورة دائماً إلا إذا لحقها واو الجماعة، فإنها تضم تقول: هاتِ يا زيد وهاتي يا هند وهاتيا يا زيدان أو يا هندان واهتين يا هندات بكسر التاء في الجميع، لكنك عند جماعة الذكور تقول: يا شباب هاتُوا متاعكم بضم التاء، قال تعالى: ﴿ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 111].

وأما لام تعال فإنه يكون مفتوحاً دائماً فتقول تعالَ يا أحمد وتعالَيْ يا هند، وتعالَيَا يا زيدان أو يا فتاتان، وتعالَوْا يا رجال وتعالَين يا فتيات[1]. فآخر الكلمة مفتوح أبداً، قال تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ﴾ [الأنعام:151].

وخطّأ علماء العربية الشاعر الذي قال:

أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا تعالَي أقاسمك الهموم تعالِي[2]

3- الفعل المضارع: وهو ما دل على الحال والاستقبال، وكان في أوله حرف من حروف أنيت، ويقبل دخول لم عليه، مثل: نقرأ وأقرأ ويقرأ وتقرأ فتقول: لم نقرأ ولم أقر ولم يقرأ ولم تقرأ، فإذا بدأ الفعل بواحد من هذه الحروف الأربعة التي تسمى حروف المضارعة ولم يقبل دخول لم عليه فلا يكون فعلاً مضارعاً، مثل: أَكرمتُ عليّاً ونرجست الدواء وتعلمت العلم ويرنأت[3] الشيب.

---

(1) ينظر شرح قطر الندى –لابن هشام – ص 32.

(2) هذا البيت من قصيدة لأبي فراس الحمداني مطلعها: أقول وقد ناحت بقربي حمامة.ديوان أبي فراس الحمداني – المكتبة الشاملة – ص301.

(3) تقول يرنأت الشيب إذا خضبته بالحناء.

فإن هذه الكلمات لا تقبل دخول لم عليها بالرّغم من أن حروف المضارعة موجودة في أولها، ولذا فليست أفعال مضارعة، بل هي أفعال ماضية.

والفعل المضارع يلزم أوله الضَّم إن كان الماضي رباعياً، سواء كانت حروفه كلها أصلية مثل: دحرج وجعجع فتقول: يُدحرج ويُجعجع بضم أوله، أو كان بعضها ليس أصلياً، مثل أنعم وأشرف تقول: يُنعمُ ويُشرفُ بضم أوله، أما إذا كان ماضيه أقل من أربعة أحرف أو أكثر منها، فإن أول حرف المضارعة يكون مفتوحاً وهو الفعل الثلاثي والخماسي والسداسي مثل: حَسُن يَحْسُن، وشَرُف يَشْرُف، وانطلق ينطلقُ، وانفتح ينفتحُ، واستخرج يستخرجُ، واستفهم يستفهمُ.

ثم إن الفعل المضارع بالنسبة لآخره يكون معرباً بالحركات الظاهرة أو المقدرة إن لم تتصل به في آخره لا نون النسوة ولا نون التوكيد بقسميها الثقيلة والخفيفة، تقول في حالة الرفع: يقومُ عليٌّ، وفي حالة الجزم لم ينجحْ عدونا، وفي حالة النصب تقول: لن يفورَ الكسول.

وإذا كان الفعل المضارع معتلاً آخره بالياء أو الواو مثل: يصلي المسلم ويدعو، فإنه يرفع بضمة مقدرة على الياء والواو، منع من ظهورها الثقل، وعلى الألف مثل: يخشى ويسعى، منع من ظهورها التعذر، وينصب بفتحة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر، تقول: لن يسعى ولن يخشى المنافق، وتظهر الفتحة على الواو والياء إن كان معتلاً بأحدهما مثل: لن يدعوَ المنافق، ولن يرميَ.

ويجزم بالسكون الظاهر إن سلم آخره من حروف العلة مثل: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص، 2] ويجزم بحذفها إن وجد في آخره حرف منها، مثل: لم يقضِ القاضي، ولم يخش المنافق، ولم يَدْعُ الجاهل، هذا هو حكم آخر الفعل المضارع حيث كان معرباً لسلامته من نون النسوة والتوكيد سواء كانت نون التوكيد خفيفة أو ثقيلة.

أما إذا دخلت عليه نون النسوة فإن آخره يبنى على السكون في جميع أحواله سواء كان مرفوعا أو منصوباً أو مجزوماً، تقول: النسوة يقرأْن، فإن لم يكتبْنَ لن يَنْجَحْن، فإن الفعل المضارع في المثال الأول مبني على السكون في محل رفع، وفي المثال للثاني مبنى على السكون في محل جزم، وفي المثال الثالث مبني على السكون في محل نصب.

أما إن اتصلت به وباشرته إحدى نوني التوكيد سواء كانت ثقيلة مثل قوله تعالى: ﴿ لَيُسْجَنَنَّ﴾ [يوسف، من الآية 32] أو خفيفة مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَيَكُونَاً مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يوسف، من الآية 32] فإن الفعل المضارع يبنى على الفتح في محل الرفع إن كان محله الرفع بأن لم يتقدمه لا ناصب ولا جازم، وفي محل النصب إن تقدمه ناصب، وفي محل الجزم إن تقدمه جازم.

ثالثاً: الحرف، وهو القسم الثالث من أقسام الكلام ويعرف بأنه: "ما دل على معنًى في غيره"[1] ولم يقبل علامات الفعل، ولا علامات الاسم، ويقال: إن ترك العلامة له علامة.

ومنه حروف الجر مثل: مِن وعلى، وحروف النصب، مثل: أن ولن، وحروف الجزم مثل لم ولمّا وألم وألمّا، وحروف التحقيق والتسويف والتنفيس، وهي: قد وسوف والسين، وحروف الاستفهام مثل: هل والهمزة، ومن وظيفة هذه الحروف ربط الكلام واستئنافه وظهور المعنى المراد.

---

(1) التعريفات للجرجاني –ص 114.

المطلب الثاني: علم الصرف:

نتحدث عنه بإيجاز من خلال الفروع الآتية:

الفرع الأول: التعريف به:

عرفه علماء اللغة بأنه الدفع والرد، وعرفه علماء الشريعة بأنه بيع الأثمان بعضها ببعض، وعرفه علماء النحو بأنه: علم يعرف به أحوال الكلم من حيث الإعلال[1].

وقد عرفه ابن مالك بأنه: علم يتعلق ببنية الكلمة وما لحروفها من زيادة وأصالة وصحة واعتلال وشبه ذلك، ومُتَعَلِّقِه من الكلمات: الأسماء التي لا تشبه الحروف، والأفعال[2].

وعلم الصرف هذا لا يدخل في أربعة أنواع من الكلام، وهي:

1- الأسماء الأعجمية التي عجمتها شخصية كإسماعيل ونحوه؛ لأنها نقلت من لغة حكمها يختلف عن حكم اللغة العربية.

2- الأصوات كـ"عاق" ونحوه، فهي حكاية ما يُصوّت به وليس لها أصل معلوم.

3- حروف الجر والنصب والجزم وحروف التنفيس والتسويف والتحقيق والتقليل وغيرها.

4- الأسماء التي تشبه الحروف من مثل: مَن وما.

---

(1) التعريفات، الجرجاني، ص174.

(2) إيجاز التعريف في علم التصريف- ابن مالك- دراسة وتحقيق: محمد عبد الحي عمار سالم- ط أولى- 1422هـ، 2002م – عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية- المدينة المنورة- ص58، وبمثله في كتابة التسهيل، ص 290 مع شيء من الاختلاف.

لأن الحروف وما يشبهها من الأسماء بمنزلة جزءٍ من الكلمة التي تـــدخل عليها[1].

الفرع الثاني: أقسامه:

لمّا كان هذا العلم من مهمته بيان المجرد والمزيد كان لابد مـــن التعريـــف بهما، **إذ المجرد** هو: ما ليس بعض حروفه زائداً.

وهو إن كان اسماً يكون ثلاثياً، مثل: رجل وشجر، ورباعياً مثـــل: درهـــم وجعفر، وخماسياً مثل: سفرجل وعصفور، والمجرد من الأسماء لا يتجاوز خمسة أحرف، والفعل قد يكون ثلاثياً مثل: قرأ ونجح، أو رباعياً مثل: دحرج وعسعس، والمجرد منه لا يزيد عن أربعة أحرف، كما لا ينقص الاسم والفعل عـــن ثلاثـــة أحرف: حرف مبدوء به وحرف موقوف عليه وحرف مفصول به بينهمـــا، إلا إذا اعترى الكلمة شيء من الحذف ككلمتي: يد وقل مثلاً.

أما المزيد: فهو ما كان بعض حروفه زائداً ويقبل السقوط، ويكـــون فـــي الفعل الثلاثي المزيد بحرف مثل: ضارب وقاتل، والمزيد بحرفين مثـــل انطلـــق وانهدم، والمزيد بثلاثة أحرف مثل: استخرج واستصلح، والفعل الرباعي المزيـــد بحرف مثل: تدحرج وتزلزل، والمزيد بحرفين مثل: احرنجم، واعرنزم واقرنبـــع بمعنى اجتمع ومنه: اقْعَنْسَسَ بمعنى: تأخَّر ورجَعَ.

وأيضاً اقشعَرَّ واطمأن بمعنى: الشعور بالقشعريرة والطمأنينة.

الزيادة في الاسم: تكون الزيادة في الاسم الثلاثي والربـــاعي والخماســـي: فهي في الثلاثي تكون بحرف مثل: أرمل، وإثمد وأصْـــبُع، وضـــارب، وغـــزال وعصام، وتكون بحرفين، مثل: سروال وحمراء وقطران، وعفريت وطـــاووس، ومنابر، وتكون بثلاثة أحرف، مثل: إستبرق وأقحوان، وتكون بأربعـــة أحـــرف،

(1) المصدر السابق- هامش- ص58.

مثل: عاشوراء والزيادة في الاسم الرباعي تكون بحرف مثل: مُـدَحْرج وقُرَنفُـل وحزنبل، وتكون بحرفين، مثل: زعفران وعقربان ومنجنيق، وتكون بثلاثة أحرف ، مثل: هزنبران وعَفَرّزَان تثنية: هزنبر وعَفَرّز.

– أما الاسم الخماسي فلا تلحقه إلا زيـادة واحـدة مثـل: عنـدليب، و، وقرطبوس[1].

أما حروف الزيادة فهي محصورة في عشرة، وهي: الألف والواو واليـاء، وهي حروف اللين، وهي أحق بالزيادة من غيرها، يضاف إلى ذلك الهمزة والسين واللام والميم والتاء والنون والهاء، وقد صاغها بعضهم في بيت شعر، حيث قال:

يا سائلي عن أحرف الزيادة (سألتمونيها) جواب السادة

الفرع الثالث: الميزان الصرفي:

العبرة في وزن الكلمة بما عدا الحرف الأخير منها، وحينئذ فالفعل الثلاثي المجرد له أربعة أوزان، ثلاثة منها للمبني للمعلوم وواحد للمبني للمجهول، فالمبني للمعلوم يكون بفتح العين وكسرها وضمها في الماضـي مثـل ضـرَب وشـرِب وشرُف، وكل واحدة من هذه الأحوال الثلاثة يكون مع كسر العين وفتحها وضمها في المضارع، فيتحصل من ذلك تسعة أوزان وأمثلتها لا تخفى.

والفعل الماضي المبني للمجهول مثل قُرِأ وفُهِم على وزن فُعِل، فالفاء تمثل الحرف الأول الأصلي، والعين تمثل حرفه الثاني، واللام يمثل آخـر الكلمـة إن كانت الكلمة لا زيادة فيها.

والفعل الرباعي المجرد بوزن فعلل مثل دحرج.

---

(1) ينظر المزهر في علوم اللغة وأنواعها – السيوطي (ت:991) – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنـان – ط1– 1998م–3/2–40.

أما إذا كان الفعل مزيداً فما زيد على الأحرف الأصلية يـزاد نفسـه فـي الميزان، فمثل ما زيد بحرف لفظا: قاتل وخاصم، فهما على وزن فاعل، وما زيد بحرفين مثل انطلق على وزن انفعل، وما كان مزيداً بثلاثة أحرف مثل اسـتخرج فهو على وزن استفعل.

أما الاسم الثلاثي المجرد: فإن العقل يقضي بوجود اثنى عشر وزناً حاصلة من ضَرب ثلاثة، وهي: فتْح الفَاء وكسرها وضمها في أربعة، وهي: فتح العـين وكسرها وضمها وسكونها، ولثقل اثنيْن منْهـا قضَـى الاسـتعمال بسـقوطهما، والموجود من حيث الاستعمال الفعلي عشرة نذكرها مع أمثلة لها فيما يلي: فَعَـلٌ: كجَمَل وبَطَل ورَسَنٌ، وفَعِلٌ ككبِد وفخذ وكتف، وفعُل: كسبُع ورَجُل، وفعْل كفَهْـد وكَعْب وصَقْر، وفِعَل كقِيمَ، وفِعِل كإبِل، وفِعْل كجِذع ومِكْبس، وفُعَل كَدُئِل، وفُعِـل كدُبل ورئم، وفُعْل كقُفْل وحُلُو[1].

(1) ينظر: الشافعية في علم التصريف – ابن الحاجب (ت: 646) المكتبة المكية – مكـة المكرمـة – ط1– 1995م – تحقيق: حسن أحمد العثماني، ص9، المزهر في علوم اللغة –السيوطي – 4/2، 5.

المطلب الثالث: علم اللغة:

من علوم العربية علم اللغة، ونوجز الكلام فيه من خلال الفروع الآتية

الفرع الأول: التعريف به: عرّفة أبو الفتح بن جنِّي بأنه: "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[1].

وقال إمام الحرمين: "اللغة من لغي يلغى من باب رضي إذا لهج بالكلام، وقيل: من لغى يلغى"[2].

وقد عرّفه ابن الحاجب بأنه: "كل لفظ وضع لمعنى"[3].

وقال الأسنوي في تعريف اللغات: هي عبارة عن الألفاظ الموضوعة للمعاني"[4]، وكل هذه التعريفات تؤدي الغرض وتبين المراد.

الفرع الثاني: واضعه:

اختلف العلماء في أصل وجوده هل كان بالوضع والاصطلاح أم بالوحي والتوقيف، بالأول قال ابن جني في الخصائص وشيخه أبو علي الفارسي وهو ضعيف، وبالثاني قال غيره وهو الصحيح، فقد ورد عن ابن فارس أنه قال: "اعلم أن لغة العرب توقيف، ودليل ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة من الآية،31] فكان ابن عباس يقول: علمه الأسماء كلها، وهي هذه الأسماء التي يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل وجمل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها "وروى خصيف عن مجاهد قال: علمه اسم كل شيء، وقال غيرهما

---

(1) الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت، 33/1.

(2) البرهان في أصول الفقه، أبو المعالي الجويني، دار الوفاء، المنصورة، ط4، 1498هـ، 135/1.

(3) رفع الحاجب عن مختصر بن الحاجب، السبكي، تحقيق علي محمد عوض، عادل أحمد عبد الموجود، عالم الكتب، بيروت، 349/1.

(4) نهاية السول شرح منهاج الوصول، الأسنوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى، 1420هـ، 1999م، ص160.

إنما علمه أسماء الملائكة، وقال آخرون علمه أسماء ذريته أجمعين، قال ابن فارس: والذي نذهب إليه في ذلك ما ذكرناه عن ابن عباس[1].

الفرع الثالث: موضوعه:

موضوع علم اللغة الكلمات العربية من حيث معرفة مدلولاتها وسلامة النطق بها، وذلك أنه لما فسدت ملكة اللسان عند النطق بمخالطة العجم وملابستهم، وأدى ذلك إلى فساد موضوعات الألفاظ باستعمال كثير من كلام العرب في غير موضعه عندهم مع فساد لسان المتعرّبين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية، احتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس، وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث، فسارع كثير من أئمة اللسان بكتابة الكتب، فكان أول من كتب فيه: الخليل بن أحمد الفراهيدي كتابه المسمى العين، حيث حصر فيه مركبات حروف المعجم كلها من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي، واعتمد في كتابه على ترتيب المخارج، فبدأ بحروف الحلق التي ابتدأها بحرف العين وسمى كتابه بها؛ لأن المتقدمين كانوا يذهبون في تسمية كتبهم بأول ما يقع فيها من الكلمات والألفاظ، وبعد حروف الحلق أتى بحروف الحنك ثم الأضراس ثم الشفة، وجعل الحروف الهوائية وهي حروف العلة آخر عمله في كتابه.

وقد قام الزبيدي[2] باختصار كتاب العين، حيث حذف منه المهمل وحذف كثيراً من شواهد المستعمل، وكان تلخيصه لكتاب العين أحسن تلخيص وسماه مختصر العين[3].

---

(1) المزهر في علوم اللغة، السيوطي، 13/1.

(2) هو: محمد بن الحسن بن عبد الله بن مذحج الزبيدي الأندلسي الإشبيلي، عالم باللغة والأدب، شاعر أصولي سلفه من حمص بالشام، ولد ونشأ واشتهر في إشبيلية سنة 316هـ وتوفي سنة 379هـ، الأعلام للزركلي، دار العلم للملايين، ط15، 2002، 82/6.

(3) ينظر المقدمة لابن خلدون، ص354.

كما ألف الجوهري كتابه الصحاح وجعل الرجوع إليه للتعرف على الكلمة المرادة بأن يجعل الباب لآخر حرف الكلمة والفصل لأولها، فمثلاً للتعرف على كلمة "هجن" يتم البحث عن باب النون فصل الهاء، ومن خلال الفصل توجد الكلمة وفق ترتيبها الواقعي.

وقد ألف من الأندلسيين في هذا المجال أيضاً ابن سيدة[1] كتابه المحكم على نحو ترتيب كتاب العين، غير أنه خالف سابقيه حيث زاد في كتابه مالم يكتبه السابقون، وهو تعرضه لاشتقاقات الكلمة وتصاريفها فصار من أحسن الكتب، ولخص كتاب المحكم المذكور محمد بن الحسين ورتبه وفق كتاب الصحاح، وجاءت في هذا المجال كتب عدة، منها: كتاب المنجد لكراع[2]، وكتاب الجمهرة لابن دريد[3]، وكتاب الزاهر لابن الأنباري[4]، ولسان العرب لابن منظور[5]، ومن المعاصرين التليسي[6] في كتابه النفيس من كنوز القواميس.

---

(1) هو: علي بن اسماعيل بن سيدة، أبو الحسن، إمام في اللغة وآدابها، ولد بمدينة شرف بالأندلس سنة 390هـ، وانتقل إلى دانية فتوفي بها سنة 458هـ، الأعلام للزركلي، 263/4.

(2) هو علي بن الحسن الهنائي الأزدي، أبوالحسن، عالم بالعربية، مصري لقب "كراع النمل" لقصره، له كتب غير هذا الكتاب، منها المنضد والمنتخب والمجرد وغيرها، توفي سنة 309هـ، الأعلام للزركلي،272/4.

(3) هو محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، من أزد عمان من قحطان، من أئمة اللغة والأدب، ولد سنة 223هـ، وتوفي سنة 321هـ، الأعلام للزركلي، 80/6.

(4) هو محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبوبكر الأنباري، من أعلم أهل زمانه في الأدب واللغة، ولد في الأنبار على الفرات سنة 271هـ، وتوفي ببغداد سنة 328هـ، الأعلام، 334/6.

(5) هو محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، الإمام اللغوي الحجة، ولد في مصر وقيل في طرابلس الغرب سنة 630هـ، وولي القضاء في طرابلس، وهو من نسل رويفع بن ثابت الأنصاري الصحابي الجليل دفين مدينة البيضاء بليبيا، وذهب إلى مصر فتوفي فيها سنة 711هـ، الأعلام، للزركلي، 108/7.

(6) هو خليفة بن محمد التليسي، ليبي من سكان مدينة طرابلس، ولد سنة 1930م، وقد التجأت أسرته للسكن إبان الحرب العالمية الثانية في قرية الحرشة، عين وزيراً للإعلام والثقافة من عام 1964 حتى 1967، ثم سفيراً لدى المغرب سنة 1968، ثم انتخب نائباً للأمين العام لاتحاد الأدباء العرب سنة 1978، واختير سنة 1981 أميناً عاماً للاتحاد العام للناشرين العرب، وتوفي سنة 2010 م بطرابلس.

المطلب الرابع: علم البلاغة:

قال ابن خلدون: "يعتبر هذا العلم من العلوم اللسانية لأنه متعلق بالألفاظ وما تفيده، ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني"[1].

وهو من العلوم التي وجدت بعد علوم العربية واللغة، وهو متأخر عنها وله بها تعلق.

وقد عرف الخطيب القزويني البلاغة بأنها: "مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته"[2].

والحال هو: الأمر الداعي للمتكلم إلى أن يعتبر مع الكلام الذي يؤدي به أصل المراد خصوصية ما، ومقتضى الحال هو تلك الخصوصية، ومطابقة الكلام له: بمعنى اشتماله عليه[3]، فقولك إن محمداً قادم تأكيد لمن ينكر قدوم محمد، فإنكاره حال استدعى تأكيد الخبر، وتأكيد الخبر هو مقتضى الحال.

ومعلوم أن مقتضى الحال يختلف؛ لأن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام يقتضي التأكيد وآخر يقتضي الإهمال، ومقام يقتضي التقديم وآخر يقتضي التأخير، ومقام يقتضي التقييد وغيره يقتضي الإطلاق، ومقام يقتضي التنكير وغيره يقتضي التعريف، وملاحظة هذه الأمور وجريان الكلام على وفقها هو البلاغة، ولا بلاغة بدون فصاحة، ولكي يكون الكلام فصيحاً لابد أن يقوم على السلامة من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والغرابة والتعقيد، فلا فصاحة في قول امرئ القيس:

غدائرهُ مستشزراتٌ إلى العلى تضِل المداري[4] في مُثنّى ومُرسل

لتنافر قوله مستشزرات حيث لا انسجام بين حروفها.

---

(1) ينظر المقدمة، ص519.

(2) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصعيدي، ص33.

(3) المرجع السابق، ص33 هامش.

(4) المداري: الأمشاط، وأحدها مدري، وأصل المداري القرون. المخصص لابن سيده- ص324.

كما لا فصاحة في قول القائل الذي تجمّع عليه الناس فأظهر ضجره (ما لكم تكأكأتم عليّ كتكأكئكم على ذي جنة افرنقعوا)، فإن السمع يستغرب مثل هذا الأسلوب ويصير الكلام بذلك خالياً من الفصاحة، التي هي شرط في البلاغة.

والبلاغة تقوم على ثلاثة علوم، هي: علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع، وسنوجز القول في ذلك من خلال ثلاثة فروع:

الفرع الأول: علم المعاني:

وهو: "علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال"[1].

وحصره العلماء في ثمانية أبواب، وبيان ذلك: أن الكلام إمّا خبر وإمّا إنشاء، فالخبر لابد له من إسناد ومسند ومسند إليه، وهذه تمثل الأبواب الثلاثة الأولى، ثم المسند قد يكون له متعلقات إذا كان فعلاً أو متصلاً به أو في معناه، كاسم الفعل ونحوه وهذا هو الباب الرابع، ثم الإسناد والتعلق كل واحد: منها يكون إما بقصر أو بغير قصر وهو الباب الخامس، والإنشاء هو الباب السادس، ثم إنّ الجملة إذا قرنت بأخرى فتكون الثانية إما معطوفة على الأولى أو غير معطوفة وهذا هو الباب السابع، والكلام البليغ إما زائد على أصل المراد لفائدة أو غير زائد عليه وهذا هو الباب الثامن[2].

وفي كل باب كلام كثير تعرض له المتخصصون بتوسع أحياناً وباقتصاد أحياناً أخرى، وقد آثرت الاكتفاء بالإيماء إليه تنفيذاً للأسلوب الذي رأيته في هذه العجالة التي قصدت من القيام بها مجرد التذكير بما يدرسه المختصون من هذه العلوم.

---

(1) المرجع السابق، ص32.

(2) ينظر المرجع السابق، ص34.

الفرع الثاني: علم البيان:

علم البيان هو: "علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه"[1].

وبيان ذلك أن الدلالة إما أن تدل على كل ما وضع له اللفظ فتسمى دلالة مطابَقة، مثل دلالة الإنسان على الحيوان الناطق، وإما أن تدل عل بعض ما وضع له فتسمى دلالة تضمنية، مثل: دلالة الفرس على الصاهلية فقط أو على الحيوانية فقط، أو تدل على غير ما وضع له أصلاً فتسمى دلالة التزامية مثل: دلالة البيت على بانيه.

ثم إن علم البيان يقوم على ثلاثة أبواب: باب يعقد للتشبيه، وثان يعقد للحقيقة والمجاز، وثالث يعقد للكنايه.

فأما التشبيه فهو: "الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى"[2].

كقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾ [الجمعة، من الآية 5] وقد تحذف أداة التشبيه كأن تقول لشخص لا يتأثر هو حجر أي كالحجر.

وللتشبيه شرف وقدر كبيران في علم البلاغة، لأن تعقيب المعاني به يضاعف قواها في تحريك النفوس إلى المقصود بها مدحاً كانت أو ذماً أو افتخاراً أو غيرها، كقول أبي تمام في المدح:

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود[3].

وكقول ابن لنكك في الذم:

إذا أخو الحسن أضحى فعله سمجاً رأيت صورته من أقبح الصور

---

(1) المرجع السابق، ص212.

(2) بغية الإيضاح، ص217.

(3) ديوان أبي تمام، دواوين العصر العباسي، ص271.

وهبه كالشمس في حسن ألم ترنا نفيرٌ منها إذا مالت إلى الضرر

أما الحقيقة فالمراد بها الكلمة المستعملة فيما وضعت له في اصطلاح ما به التخاطب[1].

فإذا استعمل اللفظ في غير ما وضع له عند أهل التخاطب، فيكون مجازاً لا حقيقة، كاستعمال لفظ الصلاة عند أهل التخاطب وإرادة الدعاء منه، وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام: حقيقة لغوية وشرعية وعرفية خاصة أو عامة.

فالحقيقة اللغوية: كاستعمال لفظ الأسد على الحيوان المعروف، والحقيقة الشرعية مثل: استعمال لفظ الزكاة في ما يدفعه الغني للفقير عن ماله الذي بلغ النصاب، والحقيقة العرفية الخاصة مثل: استعمال الفاعل في الاسم المرفوع المذكور قبله فعله عند النحاة، والحقيقة العرفية العامة: كإطلاق لفظ الدابة على ذوات الأربع.

أما المجاز: فهو الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له في اصطلاح ما به التخاطب، وهو: إما لغوي، مثل: لفظ البحر إذا أريد به ذو العلم الغزير، أو شرعي، مثل: لفظ الصوم إذا أريد به السكوت وعدم النطق، ومنه قول الله تعالى على لسان السيدة مريم: ﴿ إني نذرت للرحمن صوماً﴾ [مريم، من الآية 26] أي سكوتاً.

وإما عرفي، وهو إما عرفي عام، مثل إطلاق لفظ البصير على الأعمى، وإطلاق لفظ البياض على الفحم وهو أسود.

وإما عرفي خاص، كإطلاق لفظ الدابة على الحمار خاصة في بعض البلدان.

---

(1) بغية الإيضاح، ص219.

الفرع الثالث: علم البديع:

عرف بأنه علم يعرف به وجوه تحسبن الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة[1].

فهو علم لا يتعدى تزيين الألفاظ والمعاني بألوان بديعة من الجمال اللفظي أو المعنوي، وما يحصل به تزيين الكلام يسمى محسنات وهي إما لفظية وإما معنوية.

والمحسنات اللفظية تنحصر في الجناس والاقتباس والسجع، كما أن المحسنات المعنوية تنحصر في: التورية، والطباق، والمقابلة، وحسن التعليل، وتأكيد المدح بما يشبه الذم، وعكسه، وأسلوب الحكيم، ويمكننا أن نقتصر على ذكر أمثلة لهذه المحسنات حتى يتبين للقارئ الكريم شيء من المعرفة الفعلية لجوانب هذه المحسنات:

أولاً-المحسنات اللفظية:

1-الجناس:

وهو أن يحصل تشابه في الكلام بين لفظين[2]. فإن اتفق اللفظان في أنواع الحروف وأعدادها وهيأتها وترتيبها سُمي جناساً تاماً، ومثاله قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ [الروم: 55] وكقول أبي تمام:

وإذا الخيل جابت قسطل الحرب صدعوا صدور العوالي في صدور الكتائب

فبين لفظتي الساعة في الآية جناس تام، وبين لفظتي صدور في البيت جناس تام.

---

(1) بغية الإيضاح – ص 394.

(2) الإيضاح في علوم البلاغة، ص 354.

وإن اختلفا في عدد الحروف سُمى جناساً ناقصاً، كقول الله تعالى: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المَسَاقُ﴾ [القيامة، 29]، وكقول أبي تمام:

يمدون من أيد عواصٍ عواصمٍ تصول بأسياف قواضٍ قواضب[1]

فبين لفظي الساق والمساق في الآية جناس ناقص، وبين لفظي عواص وعواصم ولفظي قواض وقواضب في بيت الشعر جناس ناقص.

2- **الاقتباس:**

وهو أن يضمن الكلام شيئاً من القرآن الكريم أو الحديث الشريف لا على أنه منه[2].

ومثاله، كقول عبد المؤمن الأصفهاني:

لا تغرنك من الظلمة كثرة الجيوش والأنصار إنما نؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار.

وكقول الشافعي –رحمه الله–:

عمدة الخبر عندنا كلمات أربع قالهن خير البرية

اتق المشتبهات وازهد ودع ما ليس يُعينك واعملنّ بنية

فقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ في المثال الأول اقتباس من سورة إبراهيم من الآية 42.

وفي المثال الثاني اقتبس الشاعر من الأحاديث الآتية بعضاً من الألفاظ: قوله صلى الله عليه وسلم: ((الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهة))[3]،

---

(1) قواضب من قضب إذا قطع، الصحاح تاج اللغة، مادة (ق ض ب).

(2) الإيضاح في علوم البلاغة، 386.

(3) صحيح البخاري – كتاب البيوع – باب الحلال بيّن والحام بيّن وبينهما مشبهات– 723/2– حديث رقم 1946، حديث مسلم– كتاب المساقات، باب فضل من استبرأ لدينه–101/1 حديث رقم 52 عن النعمان بن يثير رضي الله عنه.

وقوله صلى الله عليه وسلم: ((أزهد في الدنيا يحبك الله))[1]، وقوله -عليه الصلاة والسلام-: ((من حسن إسلام المرء تركه مالاً يعنيه))[2]، وقوله -عليه الصلاة والسلام-: ((إنما الأعمال بالنيات))[3].

3-**السجع:**

عرفه الجاحظ بأنه: الكلام المزدوج على غير وزن، وعرفه المبرد بأنه: ائتلاف أواخر الكلام على نسق كما تأتلف القوافي"[4]، وكل منهما يصور المعرَّف تصويراً معبراً.

ومن لوازم صفاته: الرصانة وحسن الإبانة والسلامة من التكلف والخلو من التكرار، ومن أمثلته: ما رواه أبو هريرة -رضى الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا))[5].

ومن أمثلته أيضاً قول أعرابي لنزيلٍ نزل به وكان بخيلاً: "نَزَلْتَ بِوَادٍ غَيْرِ مَمْطُور، وَفِنَاءٍ غَيْرِ مَعْمُور، وَرَجُلٍ غَيْرِ مَيْسُور، فَأَقِمْ بِنَدَم، أو ارْتَحِلْ بِعَدَم "[6].

فالحديث في المثال الأول اشتمل على فاصلتين اتفقتا في الحرفين الأخيرين، والمثال الثاني الشق الأول منه اشتمل على ثلاث فواصل التقت أيضاً في الحرفين

---

(1) سنن ابن ماجة - كتاب الزهد- باب الزهد في الدنيا، 1373/2 حديث رقم 4102 من حديث سهل بن سعد الساعدي.

(2) الموطأ - 366/2 عن علي بن أبي طالب وفي الترمذي: "إن من حسن اسلام المرء...".

(3) متفق عليه بين البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب وقد حيث جعله أول حديث يذكره صدر به البخاري صحيحه.

(4) الإيضاح في علوم البلاغة، ص202.

(5) صحيح البخاري - كتاب الزكاة- باب قول الله: فأما من أعطى - 522/2 - حديث رقم: 1374، صحيح مسلم - كتاب الزكاة- باب في المنفق والممسك- 324/6- حديث رقم:2383.

(6) البلاغة الواضحة - ص310 وفي المستطرف مع نقص فقرة وشيء من التغيير- ص176.

الأخيرين، والشق الثاني اشتمل على فاصلتين، وأقل ما يتكون منه السجع فاصلتان وأكثره لا حد له.

ثانياً- المحسنات المعنوية:

1-التورية،وتسمى الإبهام، ومعناها: أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان قريب ظاهر غير مراد وبعيد خفي هو المراد[1].

وهي إما مرشحة وإما مجردة، فالمرشحة هي التي قرن بها ما يلائم المورى به كقول الله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات،47]، فإنه يحتمل اليد الجارحة وهو المعنى القريب، وقد ذكر من لوازمه البناء على وجه الترشيح، ويحتمل القدرة وهو البعيد المقصود"[2].

ومن هذا القبيل أيضاً قول ابن نباته:

أقول وقد شنوا إلى الحرب غارة دعوني فإني آكل العيش بالجبن

فالمعنى القريب هو الجبن المصنوع من اللبن ويرشحه لفظ العيش وهو غير مراد للشاعر، والمعنى البعيد وهو المراد أي الجبن بمعنى الخَوَر وهو عكس الشجاعة.

والتورية المجردة: هي التي خلت من ذكر ما يلائم أحد المعنيين: ومثاله قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام، من الآية 60] فإن لفظ جرحتم له معنيان قريب وهو شق العضو من جسم الإنسان ومعنى بعيد وهو ارتكاب المعصية وهو المراد.

2-الطباق والمطابقة، ومعناها: الجمع بين المتضادين، أي الجمع بين معنيين متقابلين في الجملة[3]، ومن أمثلته في الأسماء قول الله تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ

---

(1) الايضاح – ص 331، البلاغة الواضحة – ص313.

(2) الخلاصة في علوم البلاغة- علي بن نايف الشحود – ص 59.

(3) بغية الإيضاح – ص 395، 396.

أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف، 18]، ويكون في الأفعال كقول الله تعالى: ﴿ تُؤْتِي المُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ المُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾ [أل عمران، من الآية 26].

ومنه قول ابن رشيق:

وقد أطفئوا شمس النهار وأوقدوا نجوم العوالي في سماء عجاج

ويكون في الحروف، كقول الله تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة، من الآية286].

وقد يكون في لفظين مختلفين أحدهما اسم والثاني فعل كقوله تعالى: ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام، من الآية 122].

والطباق قد يكون إيجاباً كالأمثلة السابقة، وقد يكون سلباً، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ۞ يَعْلَمُونَ ظاهراً من الحياة الدنيا ﴾ [سورة الروم، من الآيتين 6،7].

وهو أيضاً قد يكون ظاهراً، كالأمثلة السابقة، وقد يكون خفياً، ومن هذا قول الله تعالى: ﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً﴾ [سورة نوح، من الآية 25] حيث طابق بين "أغْرقوا" و"أدخلوا ناراً".

3-المقابلة، وهي: أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معان متوافقة ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب، أو مجموعة كلمات ضد مجموعة كلمات في المعنى على التوالي"[1].

وله صور كثيرة، منها: مقابلة معنيين بمعنيين، كقول الله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً﴾ [التوبة، من الآية 82].

وثلاثة بثلاثة، نحو قوله تعالى: ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنكَرِ

(1) الخلاصة في علوم البلاغة- ص58.

وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ﴾ [الأعراف، من الآية 175][1].

ومقابلة أربعة بأربعة كقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۞فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۞وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى۞ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ [الليل، الآيات 5، 6، 7، 8، 9، 10] .

4-حسن التعليل: وهو أن ينكر الأديب صراحة أو ضمناً علة الشيء المعروفة ويأتي بعلة أخرى أدبية ظريفة لها اعتبار لطيف، ومشتملة على دقة النظر بحيث تناسب الغرض الذي يرمي إليه[2].

ومن أمثلته قول أبي العلاء المعري في الرثاء:

وما كلفة البدر المنير قديمة ولكنها في وجهه أثر اللطم

يرثي أبو العلاء في هذا البيت ويبالغ في أن الحزن على المرثي شمل كثيراً من مظاهر الكون، فهو لذلك يدعي أن ما يظهر على وجه البدر من كدرة ليست ناشئة عن سبب طبيعي، وإنما هي حادثة من اللطم على فراق الحبيب[3].

ومن أمثلته أيضاً قول أبي تمام:

لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي

يذكر الشاعر أن المكان العالي لا يصله السيل، لارتفاعه وعلوه لا لخسته وعدم استحقاقه للسيل، فكذلك الممدوح كان فقره لكرمه وكثرة بذله وعطائه لا لبخلٍ وشح منه عن غنى.

---

(1) المراد بالثلاثة هي الفعل وحرف الجر والمجرور في المقابلة الأولى، وفي المقابلة الثانية الفعل والمفعول والجار مع مجروره.

(2) الخلاصة في علوم البلاغة – ص61.

(3) ينظر البلاغ الواضحة – علي الجارم ومصطفى أمين – ص236.

5-تأكيد المدح بما يشبه الذم، وهو نوعان[1]:

أ- أن يستثنى من صفة ذم منفية عن الشيء صفة مدح بتقدير دخولها فيها، ومن أمثلته قول النابغة الذبياني:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

فكأنه قال: لا يوجد في المذكورين عيب أبداً حيث نفاه بلا، ثمّ استثنى الشاعر من صفة مدح صفة ذم تنزيلاً لا حقيقة وهي فلول السيوف، حيث حصلت من مقارعة الأعداء، فهي في ظاهرها ذم لكنها في الحقيقة مدح.

ب- أن يثبت لشيء صفة مدح معقبة بأداة استثناء تليها صفة مدح أخرى له، مثل قول النابغة الجعدي:

فتى كملت أخلاقه غير أنه جواد فما يبقي من المال باقياً

6-تأكيد الذم بما يشبه المدح: وهو أيضاً نوعان[2]:

أ- أن يستثنى عن صفة مدح منفية عن الشيء صفة ذم بتقدير دخولها فيها، ومثاله أن تقول:

لا حسن في المنزل إلا أنه مظلم ضيق الحجرات.

ب-أن يثبت لشيء صفة ذم تُعَقَّب بأداة استثناء تليها صفة ذم أخرى له، مثل قولك: فلان فاسق إلا أنه جاهل.

وهذا والذي قبله يقع على ألسنة المتكلمين إلا أنه قليل الاستعمال وقد يحصل عفواً.

7-أسلوب الحكيم:

وهو أن يُحَدِث المخاطب بغير ما يقصد[3].

---

(1) بغية الايضاح في علوم البلاغة، ص442 وما بعدها.

(2) الخلاصة في علوم البلاغة، ص62.

(3) المرجع السابق - ص64.

ويمكن أن يعرّف بأنه: "تلقي المخاطب بغير ما يترقبه إما بترك سؤاله والإجابة عن سؤال لم يسأله، وأما بحمل كلامه على غير ما كان يقصد"[1]، ومثاله: قول الله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة، 215]، فقد سألوا النبي –صلى الله عليه وسلم –عما يجوز ولا يجوز الانفاق به من مال لهم، فأجيبوا ببيان طرق إنفاق المال لا ما ينفقونه؛ تنبيهاً على أن هذا هو الأولى والأجدر بالسؤال عنه.

ومثاله أيضاً: ما رواه أبو هريرة–رضي الله عنه– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: ((أتدرون من المفلس)) قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: ((إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيامٍ وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه ثم طرح في النار))[2].

فقد حمل النبي –صلى الله عليه وسلم– المفلس على غير مقصود المجيبين وهو المفلس من الحسنات وليس المفلس من المال.

وبهذا ننهي الكلام عن علم البلاغة بما يشير إلى جوانبها التي تكونت منها بإيجاز.

---

(1) البلاغة الواضحة – ص243.

(2) صحيح مسلم – كتاب البر والصلة – باب تحريم الظلم – 1997/4– حديث رقم: 2581.

المبحث الثالث: علم التاريخ وعلم السيرة النبوية:

ينحصر هذا المبحث في علمي التاريخ والسيرة النبوية، وسنتحدث عنهما من خلال المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: علم التاريخ:

وهو يشتمل على الفروع الآتية:

الفرع الأول: التعريف به:

التأريخ والتوريخ لغة: معرفة الوقت، يقال: أرخت الكتاب بيوم كذا وورخْته[1].

واصطلاحاً: هو معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائع أشخاصهم وأنسابهم ووفياتهم إلى غير ذلك.

وقيل في تعريفه أيضاً: إنه السبيل إلى معرفة أخبار من مضى من الأمم، وكيف حلّ بالمعاند السخط والغضب فآل أمره إلى التلف والعطب، وكشف عورات الكاذبين وتمييز حال الصادقين، وقيل لولا التاريخ لماتت معرفة الدول بموت ملوكها وخفي عن الأواخر عرفان حال الأول وسلوكها وما وقع من الحوادث في كل حين[2].

وخلاصة ذلك يمكن أن يقال: التاريخ علم نظري إنساني يبحث فيه عن حوادث الزمان من حيث التعيين والتوقيت ومن حيث التفسير والتعليل.

موضوعه: أحوال الأشخاص الماضين من الأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء والشعراء والملوك والسلاطين وغيرهم، وقال السخاوي في موضوعه:

---

(1) الصحاح، الجوهري، مادة (أرخ).

(2) ينظر الشماريخ في علم التاريخ، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، 10، 11.

إنه الإنسان والزمان[1].

كما قيل فيه: إنه البحث في تاريخ الإنسان عبر الزمان الماضي بعصوره المختلفة، وأحواله المتجددة والمتعددة في جوانبها العلمية والسياسية والاجتماعية والحضارية، وضبط زمان وقوعها وكيفيته.

فائدته: الوقوف على الأحوال الماضية، والعبرة بتلك الأحوال، والتنصح بها، وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن، ليحترز عن أمثال ما نقل من المضار وتستجلب نظائرها من المنافع.

وبه أيضاً يتم معرفة الأجيال والأعمار وحلولها وانقضاء الأجل وأوقات التعاليق ووفيات الشيوخ ومواليدهم والرواة عنهم، فيعرف بذلك كذب الكاذبين وصدق الصادقين[2].

وقال سفيان الثوري: لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ، وقال حفص بن غيّاث: إذا اتهمتم الشيخ فحاسبوه بالسنين، يعني سنه وسن من كتب عنه، وقال حماد بن زيد: لم يستعن على الكذابين بمثل التاريخ[3].

ويقسم المؤرخون التاريخ إلى ثلاثة عصور، وهي:

1- العصر القديم.

2- العصر الوسيط.

3- العصر الحديث.

وتحديد بداية ونهاية كل عصر يختلف باختلاف الأمم، فالأمم الأوروبية لمّا لم تحض مواقعها بوجود النبوات فيها نجدهم يغفلون تاريخ النبوات، فليس للنبوات حسبان عندهم، بينما تحديد الشرق يجعل للنبوات ودعواتها وجوداً وأثراً، والذي

---

(1) ينظر الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل، علي بن نايف الشحوذ، 214/9.

(2) الشماريخ، السيوطي، 26/10.

(3) المرجع السابق، 27/10، 28.

يهمنا هو تقسيم المسلمين للتاريخ إلى عصر قديم ينتهي ببعثة سيدنا محمد –صلى الله عليه وسلم– وإلى عصر حديث يبدأ بالبعثة المحمدية.

وهذا العصر يقسم عند المسلمين إلى عصور مختلفة:

1–تاريخ صدر الإسلام الذي يشمل عصر النبوة والخلافة الراشدة والدولة الأموية إلى سنة 132هـ.

2–العصر العباسي (132–656هـ).

3–العصر المملوكي وقيام الخلافة في مصر (656–923هـ).

4–العصر العثماني وقد استمر إلى إلغاء الخلافة العثمانية (923–1343هـ).

5–العصر الحاضر وقد بدأ بانتهاء الدولة العثمانية، حيث وضعت الخرائط الجغرافية ورسمت فيها الحدود بين كل دولة وأخرى.

وفي زمن سيدنا عمر بن الخطاب –رضى الله عنه– اختلف الصحابة فيما يؤرخون به، وبعد أن شرقوا وغربوا قال عمر ضعوا للناس شيئاً يعرفونه من التاريخ، فقال بعضهم: اكتبوا على تاريخ الروم، فقال عمر: إن الروم يطول تأريخهم ويكتبون من عهد ذي القرنين، فقالوا اكتبوا على تاريخ فارس، فقال: إن فارس كلما قام ملك طرح من كان قبله، فأجمع رأيهم على أن الهجرة كانت عشر سنين، فكتبوا التاريخ من هجرة النبي –صلى الله عليه وسلم–[1].

ولما كانت الأحكام الشرعية ترتبط بالأشهر القمرية ذكر العلماء أن اليوم يبدأ بالليل ويضم إليه النهار، فالليل سابق النهار وبهما يحصل اليوم ويكتمل، واختلف العلماء في أول أيام الأسبوع والراجح عندهم هو يوم السبت، لما رواه أبو هريرة –رضى الله عنه– قال أخذ رسول الله – صلى الله عليه وسلم– بيدي فقال: ((خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر فيهما يوم

(1) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، السيوطي، 538/100.

الأثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم -عليه السلام- بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى المغرب))[1].

الفرع الثاني: الرحلة والرحالة:

وقد قام أصحاب القلم والفكر من علماء الأمة الإسلامية بكتابة أمجادهم المختلفة في العصور المختلفة، وشمل ذلك مناحي الحياة كلها من ارتقاءٍ وهبوطٍ ونصر وهزائم، واتفاق واختلاف وتجديد وابتكار ونجاح وتعثر، أحياناً يكتب الكتاب منهم في حال حلِّهم وأحياناً في حال ترحالهم، وقد كان للرحالة منهم شأن عظيم، حيث يقوم العالم الرحال بتسجيل مشاهداته وملاحظاته أثناء سفره وقطعه للمسافات البعيدة، وما شاهده خلال رحلته من عمار وخرابٍ وشجر وفواكه وكرم وبخلٍ وغنى وفقر، وربما فاق الرحالة المسلمون غيرهم في كتابة ما دق ولطف وصغر وكبر فكانت كتاباتهم مبعث شوق للقارئيين على مر العصور، وهم كثر لا يحصون عدداً، نذكر بعضاً منهم:

1- **الرحالة المسعودي:** وهو علي بن الحسين المسعودي، من ذرية عبد الله بن مسعود، مؤرخ رحالة، بحاثة من أهل بغداد، أقام بمصر وتوفي فيها سنة 346هـ[2].

2- **الفارقي:** وهو أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق الفارقي، مؤرخ ورحالة من أهل ميافارقين، وبها ولد سنة 510هـ، و تعلم بها ثم ببغداد، قام برحلاته إلى بلاد فارس والجزيرة والشام، وتوفي سنة 577هـ[3].

---

(1) المسند للإمام أحمد، 82/19، حديث رقم 8391، السنن الكبرى، النسائي 293/6، حديث رقم 11010، واللفظ لأحمد.

(2) الأعلام – للزركلي، 277/4.

(3) الأعلام – للزركلي، 273/1.

3- **ابن جبير:** هو أحمد بن جبير بن محمد بن جبير الكناني البلنسي، ثمّ الشاطبي (أبو الحسن)، رحالة، أديب، ناثر، ناظم، ولد ببلنسية سنة 540هـ، ونزل بشاطبة، وحذق الإقراء، وولع بالترحّل والتنقل فزار المشرق ثلاث مرات، إحداها سنة 578-581هـ، وهي التي ألف فيها كتابه المسمى: "رحلة ابن جبير" ومات في الإسكندرية في رحلته الثالثة سنة 614هـ[1].

4- **الهروي:** وهو علي بن أبي بكر بن علي الهروي، أبو الحسن، رحالة مؤرخ، أصله من هراة، ومولده بالموصل، طاف البلاد وتوفي بحلب سنة 611هـ، من كتبه الإشارات إلى معرفة الزيارات[2].

5- **العبدري:** وهو أحمد بن علي العبدري ثم الميورقي، مغربي الأصل، رحل على قدميه إلى الحجاز، فكتب أثناء رحلته كثيراً عما شاهده خلالها، وما كتبه مازال محل استفادة لمن أراد إلى يومنا هذا، وتوفي سنة 678هـ[3].

6- **ابن رشيد:** وهو محمد بن عمر بن محمد، أبو عبد الله محب الدين بن رشيد الفهري السبتي، رحالة عالم بالأدب، عارف بالتفسير والتاريخ، ولد سنة 657 بسبتة، وولي الخطابة بجامع غرناطة، ومات بفاس سنة 721هـ، رحل إلى مصر والشام والحرمين سنة 683هـ، وصنف رحلة سماها: ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى مكة وطيبة، وهو ست مجلدات، أخذ عنه جم غفير، منهم: ابن جزي وأبو البركات والتجاني[4].

---

(1) معجم المؤلفين- كحالة- 246/8، الأعلام- للزركلي- 314/5.

(2) الأعلام - للزركلي- 266/4، 267.

(3) معجم المؤلفين- كحالة- 14/2، الأعلام - للزركلي - 173/1.

(4) شجرة النور الزكية - محمد مخلوف- ص 216، 217، الأعلام - للزركلي - 314/6.

7- **ابن بطوطة:** وهو محمد بن عبد الله الطنجي، رحالة مؤرخ، ولد في طنجة بالمغرب الأقصى سنة 703هـ، وخرج منها سنة 723هـ، وطاف كثيراً من مدن العالم وكتب عنها، وعاد إلى بلاده وأملى أخبار رحلته على محمد بن جزي الكلبي بمدينة فاس سنة 756هـ، واستغرقت رحلته حوالي سبعاً وعشرين سنة، ومات ودفن في مراكش سنة 779هـ[1].

8- **السباعي:** وهو إبراهيم بن علي بن محمد أبو اسحاق الدرعي الشهير بالسباعي، مقرئ رحالة من الحفاظ، ولد بدرعة في المغرب سنة 1034هـ، جاور المدينة المنورة مدة واستقر في الزاوية الناصرية بدرعة يدرس ويقرئ إلى أن توفي سنة 1138هـ، له كتاب الشموس المشرقة بأسانيد المغاربة والمشارقة[2].

9- **الحشائشي:** وهو محمد بن عثمان الحشائشي الشريف، فاضل من أهل تونس، ولد سنة 1271هـ، له كتاب بعنوان "جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، أو النفحات المسكية في أخبار المملكة الطرابلسية، ورحلة إلى فزان وجغبوب والكفرة من مدن ليبيا، وما كتبه محل استفادة للراغبين إلى يومنا هذا، توفي سنة 1330هـ[3].

10- **الكتاني:** وهو محمد بن محمد بن محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني الحسني، رحالة، فقيه مالكي من علماء الحديث، ولد سنة 1305هـ بفاس وتعلم بها، وحج فأخذ عن بعض العلماء بالحجاز ومصر والعراق والهند، وقام برحلة ثانية فاستقر في دمشق وتوفي بها سنة 1371هـ، له كتاب رحلتان إلى الهند[4].

---

(1) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة – أحمد بن محمد بن علي بن محمد العسقلاني (ت: 852هـ)– 227/5، الأعلام – للزركلي – 235/6، 236.

(2) الأعلام – للزركلي – 54/1.

(3) الأعلام – للزركلي – 263/6.

(4) الأعلام – للزركلي – 131/6.

الفرع الثالث: كتاب للتاريخ ليسوا رحالة:

وكما قام بكتابة تاريخ الأمة الإسلامية غير الرحالة وهم كثر أيضاً، منهم المطيل ومنهم المختصر، وتنوعت كتاباتهم حول ظروف الأمة الإسلامية وتقلبات حياتها، ونقتصر على ذكر بعض منهم اعترافاً بجهودهم وترحماً على أرواحهم:-

1- **محمد بن جرير الطبري (224-310هـ):** حيث كتب كتاباً بعنوان: تاريخ الرسل والملوك، فتحدث فيه عن عدد من ملوك بني إسرائيل واليمن، كما تحدث فيه عن رسل الله -عليهم السلام-، منهم: سيدنا آدم ونوح وإبراهيم الخليل وإسماعيل وإسحاق وأيوب، وختم الرسل بمن ختم الله به ذكرهم ووجودهم: وهو سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم-، كما ذكر فيه نبذة من تاريخ عدد من الصحابة، منهم: أبوبكر وعمر، وعثمان، وعلي -رضى الله عنهم جميعاً-، وكان ذلك من خلال خمسة أجزاء[1].

2- **الخطيب البغدادي:** هو الحافظ أبو بكر أحمد بن علي، المعروف بالخطيب البغدادي، ولد في عزبة في الكوفة سنة 392هـ، كان ورعاً زاهداً يختم القرآن كل ليلة، وكان حسن الخط، توفي سنة 463 هـ، له تصانيف عدة، منها تاريخ بغداد في أربعة عشر مجلداً، وكتاب الرحلة في طلب الحديث[2].

3- **ابن عساكر:** هو أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر، حافظ بلاد الشام والإسلام، ولد سنة 499هـ، وتوفي سنة 571هـ، مؤلف كتاب تاريخ دمشق[3].

---

(1) ينظر تاريخ الرسل والملوك - ابن جرير الطبري.

(2) ينظر طبقات الفقهاء - للشيرازي ص 235، الأعلام - للزركلي - 172/1.

(3) الأنساب- أبو سعيد عبد الكريم محمد السمعاني - (ت562هـ) - 558/3.

4- **ابن الجوزي:** هو عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي القرشي البغدادي (508-597هـ)، عالم بالتاريخ والحديث، له كتب عدة، منها: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم في ستة أجزاء، ولقط المنافع في الطب والفراسة عند العرب[1].

5- **ابن الأثير:** هو علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد، العلامة، عز الدين أبو الحسن بن الأثير الحافظ المؤرخ، ولد سنة 555هـ وتوفي سنة 630هـ، من أهم كتبه: كتاب الكامل في التاريخ في اثني عشر مجلداً، وأسد الغابة في معرفة الصحابة في خمس مجلدات كبيرة، وتاريخ الدولة الأتابكية، وتاريخ الموصل[2].

6- **ابن كثير:** هو اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، حافظ ومؤرخ، ولد سنة 706هـ، ورحل في طلب العلم، وتوفي بدمشق سنة 774هـ، له كتب كثيرة، منها: كتاب التفسير والبداية والنهاية في التاريخ في أربعة عشر مجلداً[3].

7- **السيوطي:** هو الحافظ أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن السيوطي المعروف بابن الأسيوطي، ولد بالقاهرة سنة 849هـ، انصرف إلى الجمع والتأليف وهو صغير فبلغت عدة مؤلفاته نحو ستمائة ما بين رسائل صغيرة وكتب في عدة مجلدات، منها: تاريخ الخلفاء وطبقات النحاة، وطبقات الحفاظ، وكتاب الشماريخ في علم التاريخ[4].

---

(1) الأعلام- للزركلي- 316/3، 317.

(2) الوافي بالوفيات – الصفدي- 48/7، الأعلام للزركلي – 331/4.

(3) الأعلام – للزركلي – 320/1، موسوعة الأعلام – وزارة الأوقاف المصرية – ص979.

(4) طبقات الحفاظ – للذهبي – ص225، ينظر جلال الدين السيوطي عمره وحياته وآثاره – طاهر سليمان حمودة – ص220.

ومع أن الكاتبين حول تاريخ الأمة الإسلامية أكثر من أن يحصـــوا عـــدداً، فإن الاكتفاء بمن ذُكِروا يعطينا مؤشراً إلى أن تاريخنا قد حرص عليه كثير مـــن المخلصين، ينبغي أن تكون أجيالنا المتعاقبة على علم به، ليستفيدوا من معرفة حال رقي الأمة ونزولها، وليتخذوا من عبر التاريخ زاداً لهم يفيدهم في الدنيا والآخرة.

المطلب الثاني: السيرة النبوية:

المراد بالسيرة النبوية: ما يتعلق بحياة خاتم الأنبياء والرسل سيدنا محمد- صلى الله عليه وسلم-، من نسب ومولدٍ وسلوك وأخبار تتعلق به حال صباه وحال شبابه وحال كهولته وحال شيخوخته، وما اتصل به من تعظيم عارفيه له، والأوصاف التي أطلقت عليه، ونبوته وأخلاقه وجهاده في سبيل الله، والمعجزات التي جرت على يديه، وتبليغ الدعوة إلى كل من أمكن تبليغه إياها بالشخص وبالرسل وبالكتب، والحديث عن هذه الأمور كلها يمكن أن يدخل في إطار التاريخ الذي أوجزت الحديث عنه سلفاً، لكن أخبار الرسول الكريم- صلى الله عليه وسلم- وأخبار رسالته تختلف عما يذكر في التاريخ العام من حيث مصدرها ومن حيث وقوعها ومن ارتبطت به، لذلك رأيت إفرادها بعنونة تفصلها عن التاريخ العام، ونجملها في الفروع الآتية:

الفرع الأول: التعريف بالنبي -صلى الله عليه وسلم-:

فنقول في نسبه -صلى الله عليه وسلم -: إنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النظر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان[1].

أمه: آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر.

---

(1) المعارف، ابن قتيبة أبو محمد عبدالله بن مسلم (213-276) تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، 117.

توفي والده- صلى الله عليه وسلم- وهو في بطن أمه، وولد صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل[1]، الموافق 571 ميلادي.

تولت إرضاعه حليمة السعدية بنت أبي ذؤيب، وقد تعرض أثناء ذلك لشق صدره حيث ورد على لسان مرضعته أنها قالت: " رجعنا به فوالله إنه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه لفي بُهْم لنا خلف بيوتنا، إذ أتانا أخوه مسرعا فقال: لي ولأبيه"[2] ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه، فشقا بطنه، فهما يسوطانه، قالت: فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائما منتقعا وجهه، وقالت: فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له:مالك يا بني، قال -صلى الله عليه وسلم- :جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني وشقا بطني فالتمسا فيه شيئا لا أدري ما هو، قالت: فرجعنا به الى خبائنا"[3]، وخوفاً عليه من أي سوء أرجعته مرضعته إلى والدته وهو ابن خمس سنين، ولم تلبث أن توفيت تلك الوالدة وعمر هذا المولود ست سنوات.

ثم تولى رعايته جده عبد المطلب الذي توفي وعمر ابن ابنه ثمان سنوات، ثم تولى رعايته عمه أبو طالب.

وكانت تحفه رعاية الله وعنايته، فلم تصبه الجاهلية بما أصابت غيره من انحراف ولهو، بل شب على أخلاق البادية وصفائها، حتى صار مدح الناس له والثناء عليه وذكر شمائله مضرب الأمثال، وأمنه الناس على رعاية أغنامهم فرعاها، كما فعل الأنبياء والرسل السابقون عنه -عليهم السلام-.

---

(1) السيرة النبوية، لابن هشام، 158/1، السيرة النبوية لابن كثير، 202/1.

(2) أبوه في الرضاع: هو الحارث بن عبد العزيز بن رفاعة بن ملّان بن ناصرة بن فصية بن نصر بن سعد بن بكر بن هوازن، ينظر السيرة النبوية- لابن هشام- ص 160.

(3) السيرة النبوية - لابن هشام - ص164.

وعندما تعرضت الكعبة للسيول وانهدم جزء منها اختلفت قريش -وهي تبنيها- عند إرادة وضع الحجر في موقعه، واشتد اختلافهم رغبة في تميز من سيضعه في مكانة بالشرف حتى كادوا يصلون إلى القتال، فاقترح عاقلهم أن يحكم في ذلك أول مارٍّ بهم، فكان محمد بن عبد الله، فلما رأوه هللوا فرحاً: رضينا بالأمين حكماً فعرضوا عليه الأمر، فطلب ثوباً ووضع عليه الحجر وطلب من كل قبيلة ترشيح شخص ففعلوا، فأمرهم محمد بن عبد الله أن يأتوا فيرفعوه جميعاً فامتثلوا لذلك حتى إذا بلغوا به المكان أخذه بيديه الكريمتين فوضعه في موضعه، فانطفأت بذلك الفتنة والتأم الشمل، وازداد ذكره بهذا الحدث عند قريش وغيرهم.

ونظراً لأمانته وصدقه ومعرفة الناس بأخلاقه الكريمة لقبوه بالأمين، وصار محل ثقتهم وتقديرهم، فبلغ أمره إلى خديجة بنت خويلد التي كانت تتمتع بالثراء وكثرة المال، فأوكلت إليه الاتجار في مالها فكان نعم التاجر الأمين، وقد ازداد مالها وعظم ثراؤها على يديه، فعرضت عليه أن يتزوجها وهي بنت الأربعين وهو ابن الخامسة والعشرين، فرضي بذلك فصار نعم الزوج ونعمت الزوجة، فولدت له ست أولاد بين ذكر وأنثى[1]، واستمر في نشاطه التجاري في مال زوجته الكريمة مع خالص الصدق والوفاء والأخلاق الحميدة.

الفرع الثاني: تباشير الوحي

عند اقتراب تباشير النبوة حببت إليه – صلى الله عليه وسلم- الخلوة والتأمل والتفكر في هذا الكون وخالقه، وصار يميل إلى العزلة والتحنث -أي التعبد- في غار حراء، مع توالي مقدمات النبوة، وكان أعظم ذلك الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى شيئاً في منامه إلا كان مثل فلق الصبح في تحققه، وظل كذلك حوالي

(1) هم: رقية فزينب فأم كلثوم ففاطمة، فعبد الله ويلقب بالطيب، فالطاهر. ينظر السيرة لابن هشام – ص189.

ستة أشهر، حيث فاجأه الحق وهو في غار حراء فقال له- أعني الملك- اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ- قال- فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ۞ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[العلق، الآيات 1، 2، 3، 4، 5]، فرجع بها الرسول الله -صلى الله عليه وسلم- ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال:((زملوني زملوني))فزملوه حتى ذهب عنه الروع، ثم قال لخديجة: ((أي خديجة مالي))، وأخبرها الخبر، قال: ((لقد خشيت على نفسي))، قالت له خديجة: كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً، والله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقه بن نوفل بن أسد بن عبد العزى وهو ابن عم خديجة أخو أبيها، وكان امرءاً تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العربي ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: أي عم اسمع من ابن أخيك، قال ورقة بن نوفل: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خبر ما رآه، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى - عليه والسلام- يا ليتني فيها جذعا يا ليتني أكون حيا حين يخرجك قومك، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أومخرجي هم))؟ قال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً"[1].

(1) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، 8/2، حديث رقم 422.

وقد استمر نزول الوحي والنبي –صلى الله عليه وسلم– في مكة ثلاث عشرة سنة، كان معظم ما نزل خلال هذه المدة يتعلق بالعقيدة فيخلصها من شوائب الشرك، ويثبتها في قلوب من آمنوا بها، وكان في مقدمتهم السيدة خديجة زوجة النبي– صلى الله عليه وسلم– وابن عمه علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق وقليل من الضعفاء ونفر من وجهاء وعظماء قريش، من مثل: زيد بن حارثة، وعمار بن ياسر ووالداه، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وحمزة بن عبدالمطلب، وقد لقي الرسول –صلى الله عليه وسلم– وهؤلاء وغيرهم ممن آمنوا من بني هاشم وبني عبد المطلب من المضايقة، ثم المقاطعة التي أبرمت من قبل كفار قريش وكتبت بنودها في صحيفة تعاقدوا فيها على ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يدعوا سبباً من أسباب الرزق يصل إليهم، ولا يقبلوا منهم صالحاً ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلم بنو المطلب رسول الله ليقتل، وعلقوا الكتاب في جوف الكعبة، والتزم كفار قريش ببنود هذه الصحيفة ثلاثة سنوات –وقيل سنتين– ظل فيها الرسول –صلى الله عليه وسلم– وصحابته محاصرين في شعب بني المطلب حتى اضطروا إلى أكل العشب وورق الشجر، فدعت حالة المسلمين تلك نفراً من بني قصي إلى الاتفاق على نقض هذه الصحيفة التي أرسل الله عليها الأرضة فأتت على معظم ما فيها من ميثاق"[1].

وقد أخبر بذلك رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عمه أبا طالب فقال له أبو طالب: "أربك أخبرك بذلك؟ قال: نعم، فمضى في جماعة من قومه إلى قريش، فطلب منهم أن يأتوه بالصحيفة موهماً إياهم أنه نازل عند شروطهم فجاءوا بها وهي مطوية فقال أبو طالب: إن ابن أخي قد أخبرني ولم يكذب قط، أن الله تعالى قد سلط على صحيفتكم التي كتبتم الأرضة، فأتت على كل ما كان فيها من جور

(1) ينظر فقه السيرة النبوية – للمرحوم البوطي– ص 130 وما بعدها.

وقطيعة رحم، فإن كان الحديث كما يقول فأفيقوا وارجعوا عن سوء رأيكم، فوالله لا نسلمه حتى نموت من عند آخرنا، وإن كان الذي يقول باطلاً دفعنا إليكم صاحبنا ففعلتم به ما تشاؤون، فقالوا: قد رضينا بالذي تقول، ففتحوا الصحيفة فوجدوا الأمر كما أخبر الصادق المصدوق –صلى الله عليه وسلم– فقالوا: هذا سحر ابن أخيك، وزادهم ذلك بغياً وعدواناً"[1]، وتمسكوا بها على ما هي عليه.

وقد تحركت ضمائر خمسة من مشركي قريش فاتفقوا على نقض هذه الصحيفة، وأول من جهر بذلك زهير بن أمية حيث قال: "يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم وبنو المطلب هلكى لا يباعون ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة"، ثم قال بقية الخمسة – وهم: هشام بن عمرو بن الحارث، والمطعم بن عدي وأبو البحتري بن هشام وزمعة بن الأسود– مثل ما قال زهير، وتقدم المطعم بن عدي فقطعها، بعدها انطلقوا ومعهم جماعة إلى بني هاشم وبني المطلب ومن معهم من المسلمين فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم"[2].

وانتهت بذلك المقاطعة وتوجه المسلمون إلى مساكنهم بعد هذه الشدة التي لم تزدهم إلا تمسكاً بإيمانهم، لكن النبي –صلى الله عليه وسلم– أذن لهم بالهجرة إلى الحبشة لكي يجدوا متنفساً فيها ففعل بعضهم ذلك، فراراً من ظلم الظالمين وأملاً في أن يتمكنوا في الحبشة من الدعوة إلى الإسلام وعبادة الله بحرية كاملة.

الفرع الثالث: هجرته – صلى الله عليه وسلم- إلى يثرب:

بعد ثلاث عشرة سنة من صبره –صلى الله عليه وسلم– وصبر صحابته الكرام على أذى قريش لهم في مكة المكرمة أذن الله له في الهجرة إلى يثرب، وقد

---

(1) الدرر في اختصار المغازي والسير – ابن عبد البر – ص58.

(2) ينظر فقه السيرة النبوية – السيوطي – ص 132، 133.

كان فيها عدد من الصحابة الكرام، وبصحبته أبو بكر الصديق ودليل يدلهما على الطريق في رحلة مليئة بالمفاجآت والخيرات حتى وصل منطقة قباء من ضواحي المدينة المنورة، فبنى بها المسجد المسمى الآن بمسجد قباء والذي قال الله فيه: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ المُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة 108].

بعدها واصل مسيرته إلى المدينة فدخلها ليلة الثاني عشر من ربيع الأول، فألتفت حوله الأنصار كل يمسك زمام راحلته يريد النزول عنده، فكان يقول لهم: ((دعوها فإنها مأمورة))، حتى إذا وصلت إلى مربد لغلامين يتيمين من بني النجار أمام دار أبي أيوب الأنصاري قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((ههنا المنزل إن شاء الله)).

روي عن أنس بن مالك–رضي الله عنه– قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم مر ببعض المدينة فإذا هو بجوار يضربن بدفهن ويتغنين ويقلن:

نحن جوار من بني النجار يا حبذا محمد من جار

فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–((الله يعلم أني أحبكن))[1].

وبقي صلى الله عليه وسلم ضيفاً بعض الأيام على أبي أيوب الأنصاري، ثم بدأ حياته الجادة لتأسيس دولة على أسس تضمن النجاح والاستقرار والاستمرار فأسس مسجده، وآخى بين المهاجرين والأنصار، وكتب وثيقة عهد وجوار بينه وبين اليهود.

الفرع الرابع: غزواته –صلى الله عليه وسلم:

بعد هجرته –صلى الله عليه وسلم– انتقل إلى مرحلة الدفاع عن الإسلام ودولته بالقيام بالجهاد في سبيل الله؛ استجابة لقوله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ

(1) سنن ابن ماجة – كتاب النكاح – باب الغناء والدف – 613/1 – حديث رقم 1899.

بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[الحج، 39] بعد أن نهي عن القتال في نيف وسبعين آية[1]، كي لا يطمع طامع في وأد هذه الدعوة ودولتها، حيث قام بصد كفار قريش من خلال غزوة بدر الكبرى، وأدب أصحاب فتنة من بني قينقاع وملخصها: أن امرأة من المسلمين أرادت شراء مصوغات من تاجر يهودي فأراد ومن معه أن تكشف عن وجهها فامتنعت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سوأتها فضحك الحاضرون منها فصاحت، فقام مسلم بقتل ذلك اليهودي واجتمع عليه عدد من اليهود فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المقتول المسلمين على يهود فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين يهود بني قينقاع، وبذلك كانوا أول من نقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فأجلاهم النبي–عليه الصلاة والسلام– إلى أذرعات بالشام[2].

ثم توالت غزوات النصر والظفر واحدة تلو الأخرى، فكانت غزوة أحد ثم غزوة ذات الرقاع فبني المصطلق فغزوه الخندق فغزوة بني قريضة فغزوة خيبر فغزوة مؤتة، ثم كان فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، ثم بعد ذلك غزوة تبوك.

الفرع الخامس: حجة الوداع.

بعد أن مكن الله لنبيه –صلى الله عليه وسلم– بانتصاره في ما قام به من جهاد بالنفس وتضحية المؤمنين معه بأنفسهم وأموالهم، أراد الله تكريمه وتكريم المجاهدين معه فأذن الله له بتنفيذ الرحلة الجسدية والروحية حيث يربط آخر عمره بذكرياته الحبيبة إلى نفسه في جنبات مكة المكرمة والكعبة المشرفة التي كانت له في أول عمره، فكانت حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة، وعلى أرض عرفة

---

(1) مفاتيح الغيب – الرازي – 35/23.

(2) بنظر السيرة النبوية – لابن هشام – 96/3 وما بعدها، فقه السيرة النبوية – البوطي رحمه الله – ص 247 وما بعدها.

نزل قول الله تعالى: ﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ [التوبة من الآية 3].

ففرح بعض من الصحابة بكمال الدين، لكن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– عندما سمع هذه الآية بكى؛ لأنه فهم منها نعي رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وقال: ما بعد التمام إلا النقصان، وفعلا لم يعش رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بعدها إلا ثمانين يوماً، قيل إنها آخر ما نزل من القرآن الكريم، ولكن الصحيح أن آخر ما نزل هو قول الله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة،281]، فلم يعش –صلى الله عليه وسلم– بعد هذه الآية إلا أحد عشر يوماً وقيل سبعة أيام[1]. فارتحل عن هذه الدنيا وفي قلب جميع أصحابه شوق وحنين وإجلال وتقدير، واحترام وتعظيم له– صلى الله عليه وسلم–، فرحمه الله رحمة واسعة وصلى الله عليه وسلم وبارك، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تم بحمد الله ما أردته باختصار وكان ذلك يوم الإثنين الموافق: 3 / جمادى الأولى / 1435 هـ 3 / 3 / 2014 م بمدينة الحرشة.

(1) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) – الرازي – 32 / 151.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أولا : كتب التفسير وعلوم القرآن

1- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبـــراهيم، ط2، 1391هـــ، 1992م، المكتبة العصرية، بيروت.

2- التفسير الكبير، للإمام محمد فخر الدين الرازي، ط1، المطبعة الخيرية، مصر، 1307هـــ .

3- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبـــي، دار الشام للتراث، بيروت، لبنان.

4- مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ط16، 1975م، دار العلم للملايين.

5- محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، دار إحياء الكتب العربية.

6- النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، دار الكتب العلمية.

ثانيا : كتب الحديث وعلومه

1- أطراف المسند المعتلي بأطراف المسند الحنبلي، ابن حجر العسقلاني، دار الكلم الطيب، بيروت.

2- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، للمباركفوري، ط3، دار الكتب العلميـــة، بيروت.

3- تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي، المباركفوري، دار الكتـــب العلميـــة، ط1، بيروت .

4- تدريب الراوي في شرح تقريب النووي، عبد الرحمن بن أبي بكر الســـيوطي، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.

5-جامع بيان العلم وفضله، للإمام أبي عمر يوسف بن عبد البر، المتوفى463هـ، ج1، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ط2.
6-الجامع الصغير، السيوطي، ط1، 1373هـ،1954م، دار إحياء الكتب العربية.
7-الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي، تحقيق محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض.
8-سنن أبي داود بشرح عون المعبود، لأبي الطيب محمد شمس الحق، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية، ط2، 1388هـ، 1968م.
9-شرح الأربعين النووية، عطية بن محمد سالم، المكتبة الشاملة
10- شرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2003م.
11-شرح سنن أبي داود، عبد المحسن العباد، المكتبة الشاملة.
12-صحيح مسلم، بشرح النووي، المطبعة المصرية و مكتبتها، 1924م.
13-علوم الحديث ومصطلحه، د.صبحي الصالح.
14-فتح الباري بشرح صحيح البخاري للإمام أبي عبد الله البخاري، ط1، المطبعة الخيرية، مصر،1319هـ.
15-فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان،1379هـ
16-المختار في أصول السنة، لابن البنا، شرح عبد العزيز الراجحي، المكتبة الشاملة.
17-المدخل إلى السنن الكبرى، البيهقي، تحقيق محمد ضياء عبد الرحمن الأعظمي، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، 1414هـ.
18- مسند الإمام أحمد، الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق أحمد شاكر، دار الجيل، بيروت.

19-معالم السنن، شرح سنن أبي داود، أبو سليمان أحمد بن محمد الخطابي، المطبعة العلمية، حلب، ط1، 1932م.
20-معرفة الثقات، أحمد بن عبد الله بن الصالح أبو الحسن العجلي الكوفي، مكتبة الدار، المدينة، 1405هـ،1985م.
21-المقدمة لابن الصلاح وشرحها المعروف بالتقييد والإيضاح، لزين الدين عبد الرحيم بن الحسن العراقي، دار الفكر للنشر و التوزيع، بيروت لبنان، ط1 1389هـ، 1970م.
22-الموطأ، للإمام مالك، ط1، مكتبة الصفا، القاهرة، تحقيق محمود بن الجميل
23-النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، تحقيق الطاهر الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان،1349هـ.
24-اليواقيت والدرر في شرح نخبة ابن حجر، عبد الرؤوف المناوي، مكتبة الرشد، الرياض، 1999.

ثالثا: كتب الفقه وأصوله والعقيدة

1-الإحكام في أصول الأحكام، لسيف الدين أبي الحسن علي بن أبي علي الآمدي، مطبعة دار المعارف، شارع الفجالة، مصر، 1332هـ، 1914م.
2-إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي، توفي 505هـ، مطبعة مصطفى الحلبي، مصر، 1358هـ، 1939م.
3-أصول الإيمان في ضوء الكتاب و السنة، نخبة من العلماء، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، المملكة العربية السعودية.
4-بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ابن رشد القرطبي، ط2، 1370هـ، 1950م، مطبعة البابي الحلبي.

5-البرهان في أصول الفقه، أبو المعالي الجويني، دار الوفاء، المنصورة، ط4، 1498هـ.
6- بلغة السالك لأقرب المسالك، أحمد الصاوي، مطبعة حجازي، القاهرة.
7-تحفة المريد على جوهرة التوحيد، إبراهيم البيجوري، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، مصر.
8-التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1405،1هـ.
9-حاشية العلامة البقري على شرح الرحبية، لسبط المارديني، دار القلم، ط1419،8هـ،1998م.
10-حاشية كفاية الطالب الرباني لرسالة ابن أبي زيد القيرواني، العدوي، مصطفى البابي الحلبي،1357هـ،1938م،
11-الخلاصة الوفية في أحكام الميراث والوصية، للمؤلف وآخر، دار شموع الثقافة، ط2010،2م.
12-الرسالة، لابن أبي زيد القيرواني، توفي 386هـ، دار الفكر.
13-رفع الحاجب عن مختصر بن الحاجب، السبكي، توفي 646هـ، عالم الكتب،1419هـ.
14-شرح تنقيح الفصول في اختيار المحصول في الأصول، لشهاب الدين أبو العباس بن إدريس القرافي، توفي 684هـ، 1424هـ،2004م، دار الفكر، بيروت لبنان.
15-الفتاوى الهندية في مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان، لجنة علماء برئاسة نظام الدين البلخي، دار الفكر، ط3، 1310هـ.
16-الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، للشيخ أحمد النفراوي المالكي، ط3، 1374هـ، 1955م.

17-القضاء والقدر، عمر بن سليمان الأشقر، المكتبة الشاملة
18-قطف الجنى الداني، شرح مقدمة رسالة القيرواني، عبد المحسن بن حمد العباد، المكتبة الشاملة.
19-المستصفى لأبي حامد الغزالي، ط1، المطبعة الأميرية،1324هـ.
20-المغني، لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة، توفي 630هـ، مطبعة الإمام، القلعة، مصر،
21-نهاية السول شرح منهاج الأصول، الأسنوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1420هـ، 1999م.
22-الوسيط في أصول الفقه الإسلامي، للمؤلف، ط2.

رابعا: كتب اللغة العربية والمعاجم

1-إيجاز التعريف في علم التصريف، ابن مالك، دراسة و تحقيق محمد عبد الحي المختار سالم، ط1، 1422هـ، 2002م، عمارة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية.
2-تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، دار الهداية.
3-ترتيب القاموس المحيط، الطاهر أحمد الزاوي، ط3، 1980م، الدار العربية للكتاب.
4-الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد بن علي النجار، عالم الكتب، بيروت لبنان.
5-الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، أحمد بن محمد العسقلاني، توفي852 هـ.
6-الشافية في علم التصريف، ابن الحاجب، توفي 646هـ، المكتبة المكية، مكة المكرمة، ط1995،1م، تحقيق حسن أحمد عثمان.
7-شرح قطر الندى، ابن هشام الأنصاري، ط11، 1383هـ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد.

8-الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجـــوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطا، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1987م.
9-لسان العرب، لابن منظور، دار صادر بيروت، ط1،1990م.
10-المزهر في علوم اللغة و أنواعها، السيوطي، تـــوفي 991هـــــ، دار الكتـــب العلمية، بيروت لبنان، 1998م.
11-معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس، تحقيق عبد الســـلام محمـــد هارون، اتحاد الكتاب العرب، 2002م.
12-المنهاج الواضح للبلاغة، حامد عوني، ط2، 1370هـــ،1951م، مطبعة مصر.
13-النفيس من كنوز القواميس، لخليفة محمد التليسي، الهيئة القومية للبحث العلمي، ط1، 2003م.

خامسا: كتب الأخلاق

1-أدب الدنيا والدين للماوردي، المكتبـــة التوفيقيـــة، مصـــر، ط1، 1427هـــــ، 2006م.
2-أدب العالم والمتعلم، عبد الحميـــد شـــاهين، ط1، 1955م، مطـــابع عابـــدين، الإسكندرية.

سادسا: كتب التاريخ

1-الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل، علي بن نايف شحوذ.
2-حضارة العرب، غوستاف لوبون، نقله إلى العربية عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي.
3-الشماريخ في علم التاريخ، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيـــق محمـــد ابن إبراهيم الشيباني، الدار السلفية، الكويت، 1399هـــ.

فهرست المواضيع

الموضوع الصفحة

- مقدمة الكتاب 2
- مقدمة علمية 7
- الفصل الأول: العلم فضله وآداب تحصيله ونشره 8
- المبحث الأول: فضل تحصيل العلم وفيه مطلبان 9
- المطلب الأول: التعريف بالعلم 9
- المطلب الثاني: فضل العلم 10
- الفرع الأول: من القرآن 10
- الفرع الثاني: من السنة النبوية 15
- الفرع الثالث: كلام العلماء والحكماء حول فضل العلم والدعوة إليه ونشره وتحصيله 28
- المبحث الثاني: شروط تحصيل العلم وآداب العالم والمتعلم وحقوقهما على المجتمع وفيه أربعة مطالب 40
- المطلب الأول: شروط تحصيل العلم 40
- المطلب الثاني: آداب العالم والمتعلم وواجباتهما 45
- المطلب الثالث: آداب المفتي والمستفتي 53
- المطلب الرابع: حق العلم والعلماء وطلاب العلم على المجتمع ووجوب العمل بالعلم 58
- وجوب العمل بالعلم 61
- المبحث الثالث: كتابة العلم وآفاته وفيه تمهيد ومطلبان 64
- تمهيد: الكتابة والخط 64

- المطلب الأول: كتابة العلم 68
- دواعي النهي عن الكتابة 70
- الإذن بالكتابة 72
- أهمية الكتابة 74
- المطلب الثاني: آفات العلم 76
- قبض العلم 82
- الفصل الثاني: في العلوم عند المسلمين 84
- المبحث الأول: العلوم الشرعية وفيه أربع مطالب 85
- المطلب الأول: علم العقيدة 85
- الفرع الأول: الإيمان بالله 86
- الفرع الثاني: الإيمان بالملائكة 87
- الفرع الثالث: الإيمان بالكتب 89
- الفرع الرابع: الإيمان بالرسل 90
- الفرع الخامس: الإيمان باليوم الآخر 92
- الفرع السادس: الإيمان بالقضاء والقدر 101
- المطلب الثاني: علوم القرآن 108
- الفرع الأول: النسخ في القرآن 108
- الفرع الثاني: المحكم والمتشابه 110
- الفرع الثالث: أسباب النزول 111
- الفرع الرابع: القراءات 112
- الفرع الخامس: التفسير 117
- الفرع السادس: مكي القرآن ومدنيه 118
- المطلب الثالث: علوم الحديث 120

- الفرع الأول: ما يرجع إلى المتن باعتباره قولا أو فعلا أو تقريرا 121
- الفرع الثاني: ما يرجع إلى المتن باعتباره ناسخا أو منسوخا 124
- الفرع الثالث: ما يرجع إلى السند 130
- الفرع الرابع: الجرح والتعديل 134
- المطلب الرابع: علوم الفقه وأصوله 141
- الفرع الأول: علم أصول الفقه 141
- الفرع الثاني: علم الفقه 145
- الفرع الثالث: علم الميراث 150
- الفرع الرابع: علم الحساب 157
- المبحث الثاني: العلوم اللغوية وفيه أربعة مطالب 159
- المطلب الأول: علم النحو 160
- الفرع الأول: التعريف به 160
- الفرع الثاني: أقسامه 162
- المطلب الثاني: علم الصرف 169
- الفرع الأول: التعريف به 169
- الفرع الثاني: أقسامه 170
- الفرع الثالث: الميزان الصرفي 171
- المطلب الثالث: علم اللغة 173
- الفرع الأول: التعريف به 173
- الفرع الثاني: واضعه 173
- الفرع الثالث: موضوعه 174
- المطلب الرابع: علم البلاغة 176
- الفرع الأول: علم المعاني 177

- الفرع الثاني: علم البيان 178
- الفرع الثالث: علم البديع 180
- المبحث الثالث: علم التاريخ وعلم السيرة النبوية وفيه مطلبان 188
- المطلب الأول: علم التاريخ 188
- الفرع الأول: التعريف به 188
- الفرع الثاني: الرحلة والرحالة 191
- الفرع الثالث: كتاب للتاريخ ليسوا رحالة 194
- المطلب الثاني: السيرة النبوية 197
- الفرع الأول: التعريف بالنبي-صلى الله عليه وسلم- 197
- الفرع الثاني: تباشير النبوة 199
- الفرع الثالث: هجرته -صلى الله عليه وسلم- إلى يثرب 202
- الفرع الرابع: غزواته -صلى الله عليه وسلم- 203
- الفرع الخامس: حجة الوداع 204
- قائمة المصادر والمراجع 206
- فهرست المواضيع 212